العدد 36 – المجلد التاسع – ربيع 2021
Issue 36 - Volume 9 - Spring 2021



فصلية محَكَّمة تُعنى بالعلوم الاجتماعية
A Quarterly Peer-reviewed Social Sciences Journal

عدد خاص: إبستيمولوجيا الجائحة

ISSN 2305-2473

دارم البصام

إبستيمولوجيا الجائحة: في «معرفة المعرفة» (الجسد والثقافة والمجتمع)

فرانسيس أ. بير وروبرت هاريمان

جائحة فيروس كورونا (كوفيد-19) وإبستيمولوجيا الكوارث: التجميع والتصميم والاحتراز

دومينيك فانك

جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) في المجتمعات الغربية والعلوم الاجتماعية

بنعيسى زغبوش

الإنسان وجائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19): نحو أفق إشكالي جديد في سياق تداخل موضوعات الأبحاث وتقنياتها المنهجية

العدد 36 – المجلد التاسع – ربيع 2021

رئيس التحرير — **Editor-in-Chief**

المولدي الأحمر — Mouldi Lahmar

مدير التحرير — **Editorial Manager**

هاني عوّاد — Hani Awad

سكرتارية التحرير — **Editorial Secretary**

مجد أبو عامر — Majd Abuamer

نيروز ساتيك — Nerouz Satik

هيئة التحرير — **Editorial Board**

هيئة التحرير	Editorial Board
إسماعيل ناشف	Ismail Nashif
جمال باروت	Jamal Barout
سعود المولى	Saoud El-Mawla
الطاهر سعود	Tahar Saoud
كلثم الغانم	Kaltham Al-Ghanim
مارلين نصر	Marlene Nasr
مراد دياني	Morad Diani
مهدي مبروك	Mahdi Mabrouk
هشام أبو ريا	Hisham Abu Rayya

تصميم وإخراج — **Design and Layout**

أحمد حلمي — Ahmad Helmy

هشام الموسوي — Hisham Moussawi

الهيئة الاستشارية — **Academic Advisory Committee**

الهيئة الاستشارية	Academic Advisory Committee
إبراهيم العيسوي	Ibrahim Elissawy
أبو بكر باقادر	Abubakr Baqader
أحمد خواجه	Ahmed Khouaja
أديب نعمة	Adib Nehme
امحمد مالكي	Mhammed Malki
باقر النجار	Baqer Alnajar
برهان غليون	Burhan Ghalioun
تيسير رداوي	Tayssir Raddawi
ثناء فؤاد العبد الله	Tana Fouad Abdallah
جورج جقمان	George Giacaman
حازم رحاحلة	Hazim Rahahleh
حسن علي	Hassan Aly
خضر زكريا	Kheder Zakaria
دارم البصام	Darim Al-Bassam
طاهر كنعان	Taher Kanaan
عادل الشرجبي	Adel Al-Shargabi
عبد الرحمان رشيق	Abderrahmane Rachik
عبد الله الدليمي	Abdullah Aldolaimi
عبد الله ساعف	Abdallah Saaf
عبد الناصر الجابي	Abdenasser Djabi
علي خليفة الكواري	Ali Khalifa Al-Kuwari
فاديا كيوان	Fadia Kiwan
فاطمة الشامسي	Fatima Al-Shamsi
كريمة كريم	Karima Korayem
محمد الطوزي	Mohamed Tozy
مصطفى التير	Mustafa Attir
مصطفى كامل السيد	Mustafa Kamel Al–Said
نديم روحانا	Nadim Rouhana
هشام داوود	Hosham Dawod
يعقوب الكندري	Yagoub Al-Kandari

صاحب الامتياز

المدير العام للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

The Designated Licensee

The General Director of the Arab Center for Research and Policy Studies

لوحات العدد من أعمال الفنان التشكيلي الفلسطيني شريف سرحان

من مواليد غزة عام 1976، وهو فنان تشكيلي ومصور فوتوغرافي. عضو مؤسس لمجموعة **شبابيك من غزة للفن المعاصر**، وعضو رابطة الفنانين الفلسطينيين. حاصل على دبلوم في الفنون من جامعة ICS في الولايات المتحدة الأميركية. شارك في أكاديمية دارة الفنون الأردنية، تحت إشراف الفنان مروان قصاب باشي. حصل على الجائزة البرونزية لعام 2008، والتقديرية لعام 2007، في مسابقة اتحاد المصورين العرب. أنتج كتابَ صورٍ والفيلم التجريبي «غزة حرب». عُرضت أعماله في غزة ورام الله وبيت لحم والقدس وعمّان والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية.

Paintings by the Palestinian Artist Shareef Sarhan

Born in Gaza in 1976, he is an artist, a photographer, and a founding member of the collective *Shababeek from Gaza for Contemporary Art*. He is also a member of the Association of Palestinian Artists. Sarhan received his diploma in Arts from the university of ICS in the United States. He participated in Darat Al Funun Academy in Jordan, under the supervision of artist Marwan Kassab Bachi. He received the Bronze award (2008) and the certificate of appreciation (2007) in the Arab Photographers competition. Sarhan produced a photo-book and an experimental film titled "Gaza War". His work was exhibited in Gaza, Ramallah, Bethlehem, Jerusalem, Amman, the United Kingdom, and the United States.

ترسل المخطوطات وجميع المراسلات باسم رئيس التحرير على العناوين التالية:

Manuscripts and all correspondence should be sent to the Editor-in-Chief through:

شارع الطرفة – منطقة 70 – وادي البنات – ص. ب. 10277 – الدوحة – قطر

Al Tarfa Street - Zone 70 - Wadi Al Banat - P.O.Box: 10277 - Doha - Qatar

Phone: +974 4035 4117 - +974 4035 6888 :هاتف

E-mail: omran@dohainstitute.org



فصلية محكَّمة تُعنى بالعلوم الاجتماعية
A Quarterly Peer-reviewed Social Sciences Journal

العدد 36 – المجلد التاسع – ربيع 2021
Issue 36 – Volume 9 – Spring 2021

الإنسان مدنيٌّ بالطبع، أي لا بُدَّ له من الاجتماع
الذي هوَ المدنيَّةُ في اصطلاحهم وهُوَ معنى العُمْران.

ابن خلدون

لا تعبِّر آراء الكتَّاب بالضرورة عن اتِّجاهات يتبنَّاها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



جميع الحقوق محفوظة لمعهد الدوحة للدراسات العليا
والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَن الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانيِّ الَّذِي هُوَ عُمْرَانُ العَالَمِ، وَمَا يَعْرِضُ لِطَبِيعَةِ ذَلِكَ العُمْرَانِ مِن الأَحْوَالِ مِثْلِ التَّوَحُّشِ وَالتَّأَنُّسِ وَالعَصَبِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغَلُّبَاتِ لِلْبَشَرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِن المُلْكِ وَالدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا، وَمَا يَنْتَحِلُهُ البَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِن الكَسْبِ وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، وَسَائِرِ مَا يَحْدُثُ فِي ذَلِكَ الْعُمْرَانِ بِطَبِيعَتِهِ مِن الأَحْوَالِ....

وَكَأَنَّ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ. فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وهوَ العُمْرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ؛ وَذُو مَسَائِلَ، وهيَ بَيَانُ مَا يُلْحِقُهُ مِن الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ لِذَاتِهِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى. وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِن الْعُلُومِ وَضْعِيًّا كَانَ أَوْ عَقْلِيًّا....

الاجْتِمَاعُ الإِنْسَانِيُّ ضَرُورِيٌّ. وَيُعَبِّرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ: "الإِنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ"، أَيْ لَا بُدَّ لَهُ مِن الاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ المَدَنِيَّةُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ وهوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ....

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمْرَانُ العَالَمِ بِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ؛ لِمَا فِي طِبَاعِهِمْ الْحَيَوَانِيَّةِ مِن الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ... فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِم الْغَلَبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ؛ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمُلْكِ....

وَتَزِيدُ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ... أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِن الْحُكْمِ الْوَازِعِ... بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِن الْبَشَرِ؛ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالقَبُولُ مِنْهُ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَزْيِيفٍ. وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ؛ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ، أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ.

ابن خلدون، **المقدّمة**

Contents المحتويات



Special Issue:
Epistemology of the Pandemic

Guest Editor
Darim Albassam

عدد خاص:
إبستيمولوجيا الجائحة

المحرر الضيف
دارم البصام

صدر حديثًا



مارسيل فورنييه

ترجمة: فاطمة الزهراء أزرويل

إميل دوركهايم

١٨٥٨-١٩١٧

يعدّ هذا الكتاب عملًا شاملًا عن حياة إميل دوركهايم وفكره، وهو الذي أحدث ثورة في العلوم الاجتماعية؛ بدءًا من الدفاع عن استقلالية علم الاجتماع بصفته علمًا، مرورًا بالبلورة المنهجية لقواعد دراسة الاجتماع وأساليبها، وإدانة النظريات العرقية، ونقد المركزية الأوروبية، ووصولًا إلى إعادة تأهيل إنسانية «البدائي». دافع عن كرامة الفرد وحرية الصحافة والمؤسسات الديمقراطية والقيم الليبرالية الأساسية للتسامح والتعددية. في الوقت نفسه، كان ينتقد اقتصاديات عدم التدخّل ودافع عن قيم التضامن وحياة الجماعات. أصبح التراث الفكري الغني لدوركهايم في نواح كثيرة، جزءًا من الفهم الذاتي لعصرنا، وتعزّزت أهمية مساهمته في عملية تأسيس علم الاجتماع عندما أنشأ مجلة **السنة السوسيولوجية** (*L'Année sociologique*) في عام 1896، إذ أسس من خلالها، مع فريق من المعاونين، ما يُعرف بالمدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع.

وقد قام مارسيل فورنييه بتوثيق السيرة الذاتية الجديدة لدوركهايم بدقة، لتلقي ضوءًا جديدًا على شخصية دوركهايم، وعلاقته باليهودية، وحياته العائلية، وعلاقاته بأصدقائه ومعاونيه، ومسؤولياته السياسية والإدارية، وآرائه السياسية.

دارم البصام | Darim Albassam*

مقدمة العدد

Introduction to the Issue

يضمُّ هذا العدد الخاص من دورية **عمران للعلوم الاجتماعية** حول «إبستيمولوجيا الجائحة» أعمالًا لمفكرين وباحثين في الحقول المختلفة للعلوم الاجتماعية، الذين لكلٍ منهم مساهمته المتميزة في حقل اختصاصه. إلا أن ما يجمعهم في إطار الكتابة حول جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) هو تجاوز الحواجز الإبستيمولوجية Epistemological barriers لمجالهم والقيام بتطوير مقاربات جديدة لدراسة الظاهرة.

لماذا؟ وما الذي دفعهم إلى مثل هذا التجاوز؟ وما سبب التخلي عن «البراديغمات» السائدة والمألوفة في منطق البحث العلمي والتفكير في منهجيات وأطر نظرية جديدة ومغايرة؟ لعل الدافعية لكل ذلك قد أتت من القطيعة الإبستيمولوجية التي فرضتها لحظة الجائحة على نحوٍ جعلها مستعصية على الفهم بالرؤى والأدوات التقليدية.

جعلتنا مثل هذه القطيعة نطرح على أنفسنا، بوصفنا باحثين في حقول العلوم الاجتماعية، أسئلة مفصلية، منها: هل نفكر في ما نفكر فيه بسبب ما نلاحظه ونراه؟ أم هل نرى ما نرى بسبب ما نفكر فيه؟ قد يبدو هذان السؤالان بسيطَين، لكنهما ليسا كذلك، فهما يطرحان مسألة «العائق الإبستيمولوجي في توليد المعرفة». هنالك العديد من التحيزات التي تؤثر في معقولية منطقنا، من ذلك فَهْم المشكلة بعد حدوثها، والحكم بمعايير مسبقة، والتأثر بمسلّمات البراديغمات السائدة، والتأثر بنمط التفكير غير المنظّم ذي النزعة الانتقائية.

كل ذلك سيستدعي منّا أن نوجّه الانتباه إلى تلك التحيزات وأن ننظر إليها بمنظار إشكالي؛ فمنطق ظاهرة كونية مثل هذه الجائحة يجعل من غياب المعرفة حولها أشد صلة بالمعرفة التي نمتلكها عنها.

تسلّم الدراسات في هذا العدد بأنّ الأزمة الإبستيمولوجية في هذا المقطع التاريخي الذي جاءت في إطاره الجائحة هي أزمة ثقافية سببها عدم قدرتنا على تخيّل طرق بديلة للتعرف والفهم. فالحقبة التطورية الحالية التي تمر بها البشرية ومظاهر التعقّد التي أفرزتها ثورة النفاذ إلى المعلومة، قد جاءتا بتبعات إبستيمولوجية ورؤية مختلفة للعالم في ما يتعلق بالسلطة والمعرفة والذات والحقيقة والزمن الاجتماعي.

* عالم اجتماع عراقي An Iraqi sociologist.

كل ذلك له أثره في المخيال العلمي؛ فالجائحة قد أثبتت أنّ النظريات الكبرى ومساهماتها قد تعجز عن إيراد تفسيرات لما يجري، بعد أن أصبحت النظم الاجتماعية في حالة تعرية، وأنّ جميع المؤسسات والعلاقات والتفاعلات في إطار ذلك أصبحت ذات إشكالية. يعني هذا أنّ الفرضيات المسلّم بها للحياة اليومية قد تزعزعت وأصبحت محل تساؤل وعدم يقين. بتعبير أكثر دقة، يمكن التأكد من أنّ الجائحة ليست حدثًا منفردًا أو لحظة محددة في التاريخ كي تحدث تلك القطيعة، ولكنها جاءت في إطار حقبة تحولية تآكلت فيها الطرق القديمة للتعرف إلى الظواهر والتحقق منها، في الوقت الذي لم تتبلور بعد بدائل من ذلك بصورة كاملة. يعني هذا التحوّل أنّ التغير لا يحدث ببساطة على سطح الأشياء ولكن بالأساس على المستوى الإبستيمولوجي: مستوى المبادئ الأساسية للحقبة التأريخية الحالية ورؤيتها للعالم.

سوسيولوجيًا، يتشكل مخيالنا العلمي في إطار حالة مستمرة ومتراكمة من أثر العلوم المصنّعة Manufactured Sciences، التي تشتغل بطريقة شبه آلية وتقوم بعملها على نحوٍ يمنعنا من التحقق من أنّ المستقبل يولد وينشأ ونحن في غفلة عنه. يحدث ذلك، ببساطة، لكوننا أسرى تمثلاتنا الإبستيمولوجية للعالم.

يعتقد المؤرخ والمحقق في فلسفة العلم الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار، والذي استعانت بآرائه دراسة دارم البصام في هذا العدد، أنّ هناك حواجز إبستيمولوجية تمثّل التحدي الفكري الذي يواجه العلماء والباحثين في عملهم. ومن أجل التوصل إلى رؤى ومقاربات جديدة في النظر إلى المشكلات في العلوم، على الجماعة العلمية أن تتغلب على الحواجز الإبستيمولوجية، وعلى العوائق التي تفرضها رؤيتهم المسبقة للعالم. وهو بهذا يعتقد أنّ العلوم لا تمر عبر الزمن بتطور خطّي مستمر، ولكن بهزّات تتميز بالقطيعة مع الفكر العلمي المألوف. هذه التقطعات في التاريخ، والتي قد تزيد من حدّتها الكوارث، كما هو الحال مع كارثة جائحة فيروس كورونا، هي التي تولّد مقاربات جديدة للمشاكل العلمية، وتؤدي غالبًا إلى مقاربات جديدة للعلم عمومًا.

في هذا الإطار، يأتي مفهوم «الإبستيمولوجيا الكارثية» الذي أوضحته دراسة فرانسيس بير وروبرت هاريمان في هذا العدد، والذي يعني عندهما ضرورة السعي لتجنب إعادة إنتاج الأوضاع التي ولّدت الكارثة، والاعتراف بأنماط العجز البنيوي التي أفرزتها الأزمة. وبذلك، يدعو الباحثان إلى اكتشاف مصادر المعرفة المفقودة وإلى ربط أنفسنا (بوصفنا باحثين) بوسائل وأدوات متعددة لتطوير الذات العارفة المتمكنة من تحديد المستقبلات البديلة، حيث إنّ التغلب على الحاجز الإبستيمولوجي يمكن أن يقودنا إلى تطوير معمار نظري مختلف تبقى أبعاده محل نقد وتحوير وتطوير أو حتى هجران. نقطة الإقلاع في كل ذلك هي أن نطوّر مخيالنا وأن نتصور العالم على نحوٍ مختلف في تطوير المعرفة.

يشير الباحثان في هذا السياق إلى أنّ البيولوجيا وعلوم الأوبئة والطب الحيوي كلها حقول تعمل لفهم ظاهرة الجائحة في إطار أدوات نمطية يمكن أن تُدعى بالعلوم المألوفة Normal science، وأنّ النظم والمعايير التجريبية تولّد مناهج ذات صدقية وفق معايير لتلك النظم والسياقات المهيكلة.

وفي نظرهما، فإنّ هذا الشكل أو النمط وحده لا يكفي لدفع استجابات فاعلة عبر الفضاءات الأخرى للتنظيم الاجتماعي.

إحدى منافع مقاربة «الإبستيمولوجيا الكارثية» التي طوّرها بير وهاريمان هي قدرتها على إثارة الأسئلة التالية: لماذا تصل «المعرفة» متأخرة جدًا؟ ولماذا نستمر في تكريس تعلّم ما نعلمه أساسًا؟ ولماذا لا يكفي رصيدنا من «التعرف» أساسًا لإحداث التغيير؟

في السياق نفسه، ترينا دراسة دارم البصام في هذا العدد أنّ الفشل في توفير فهم حقيقي لإبستيمولوجيا الجائحة كان بمنزلة الإعلان عن «نهاية عهد البراديغمات»، إذ يرى الباحث أنّ المعرفة العلمية لم تعد قادمة من النظريات الكبرى، بل تتطور دائمًا ضمن محددات يتم اكتشافها من خلال دراسة الدينامية الاجتماعية للسياق المجتمعي المدروس، وأنّ الخطاب السوسيولوجي يجب أن يتم تطبيقه في سياقه الخاص من أجل الإنتاج المعرفي وفقًا لإبستيم الثقافات المختلفة. يعني ذلك عنده الحاجة إلى تطوير سوسيولوجيا تجريبية لفهم ظاهرة الجائحة. بمعنى آخر، ضرورة إعادة التبصّر، إبستيمولوجيًا، لإحداث انعطافة في الفكر السوسيولوجي الشائع، وتبنّي مقاربة للتعامل مع الوباء ضمن نسقه المعقّد. فهذا المخبر الحي الذي ولّدته الجائحة يحتاج، في نظره، إلى تفكير نسقي مغاير وإلى رؤية وأدوات منهجية جديدة. فالمقطع التاريخي الحالي هو بمنزلة بوابة بين عالم وآخر؛ ما يجبرنا على إعادة ترتيب المخيال السوسيولوجي حول ما هو «اجتماعي» و«ثقافي»، وفي العلاقة بما هو بيولوجي. ويعتقد البصام في مقاربته أنّ اللحظة التي أصبحت فيها الجائحة ظاهرة اجتماعية هي اللحظة ذاتها التي تتطلب تعريفًا اجتماعيًا. واللحظة التي تحوّل فيها الوباء إلى كارثة، هي اللحظة ذاتها التي تتسبب في قطيعة إبستيمولوجية مع الحقيقة كما اعتدنا على التسليم بها.

بقي الفهم الإبستيمولوجي الشائع إلى وقت قريب يؤكد أنّ المعرفة العلمية يجب أن تتيح تمثيلاً موضوعيًا للعالم الخارجي، وأنّ هذا العالم، مهما بلغت درجة تعقّده، يمكن مفصلته وحلّه من خلال اجتزاء الظواهر واختزالها إلى أبسط مكوناتها. ولكن من الواضح أنّ هذه التطورات قد وصلت إلى طريق مسدود، فالعقل البشري يتّسم بالتعقّد ولا يحمل صفة الخطية. وهو بذلك يتمرد على كل المحاولات «الاختزالوية» و«الحتموية» لفهمه.

تنحو الأوبئة هي الأخرى نحو التعقّد واللاخطية في سلوكها، بحيث تنتج آثارًا لما يمكن ولما لا يمكن التنبؤ به أو توقّعه، وذلك من خلال التفاعل والتكيّف في الوسط الثقافي، على نحو يولّد بيولوجية/ ثقافية (بايو-ثقافية اصطلاحًا) نستطيع من خلالها أن نختبر كيف أن العمليات السوسيوًثقافية والاقتصادية السياسية تؤثر في الموقف من الجسد والصحة والاعتلال وإعادة إنتاج الحياة.

مثل هذا التبصّر النسقي القائم على التعقّد والتكيّف والذي تحاول دراسة دارم البصام تطوير أبعاده في هذا العدد يساهم في إعادة تعريف الرؤية الإبستيمولوجية لسوسيولوجيا الجائحة، حيث يزوّدنا بعدسات مغايرة ننظر من خلالها إلى ظاهرة الوباء في سياقها المجتمعي بكل تعقّداته، على نحوٍ يتيح

للباحث السوسيولوجي إمكانية تفكيك الأحداث والعلاقات والرؤى المختلفة للعالم لدى الجماعات الاجتماعية في الأنساق الفرعية وإعادة تركيبها، والتمكّن من فهم الدوافع وأنماط السلوك المستبطنة التي لا يمكن تغطيتها عادةً بالمناهج التقليدية؛ إذ يجري إهمالها في عمليات التجريد والتصنيف التي عادة ما تمليها منهجية التفكير العلمي المنطقي الذي اعتدناه.

في السياق السيكولوجي لمناقشة موضوع «الإنسان والجائحة»، وفي إطار تداخل موضوعات الأبحاث وتقنياتها المنهجية، تتساءل دراسة بنعيسى زغبوش في هذا العدد عن تحليل بنية التفكير التي طبعت البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويناقش الباحث الثنائية المتمثلة في البيولوجي-العصبي/ الثقافة أو الفطرة/ الاكتساب، ويعتقد أنّ هذه الثنائية في العلوم المألوفة قد تكون في موضع إشكالي ومساءلة إبستيمولوجية بعد أن تدخّل عامل ثالث من أصول طبيعية (فيروس جائحة كورونا) ليحدث بيئة اجتماعية جديدة تتطلب رؤية مغايرة، تتجاوز في تبعاتها التأثير في الفرد في ذاته وتتوسّد في فضاء علاقاته وسياقات وجوده، ما يدفع الباحث السيكولوجي إلى الدعوة إلى تغيير المعادلة المعرفية ذاتها.

أخيرًا، وفي سبيل توفير الأرضية للإضافات المعرفية التي تقدّمها الدراسات، عمل هذا العدد الخاص على إجراء مسح شبه كامل لمساهمات العلوم الاجتماعية في المجتمعات الغربية في دراسة ظاهرة الجائحة، وذلك من خلال دراسة تفصيلية للباحث دومينيك فانك الذي أكد أنّ الجائحة قد وضعت على المحك معارفنا السابقة عن المجتمع وقدرته على إنتاج نفسه، حيث اتضح من خلال ما تم إنجازه من بحوث ودراسات أنه تم تدوير المفاهيم الجاهزة واستخدام البراديغمات المألوفة وتبنّي أطر مرجعية تعود إلى الماضي من أجل تحليل الحاضر وتفكيكه والقيام بالاستشرافات المستقبلية على نحوٍ خطّي من أجل التنبؤ بواقع ما بعد الجائحة.

عمومًا، كما تبيّن الدراسات المسحية لدومينيك فانك، فإن دراسات التفاعلية الرمزية وأنماط التفاعل الاجتماعي وسلوك المواجهة للفاعل الاجتماعي هي التي سيطرت على غالبية البحوث من خلال التركيز على الواقع المعيش وتأثيرات الجائحة: الحجر المنزلي، والتباعد الاجتماعي ووضْع الكمامة، والوصم الاجتماعي، وسيكولوجية الخوف. كما عرضت دراسة فانك كمًا آخرَ كبيرًا من الدراسات الماكروسوسيولوجية لمعالجة الجائحة في إطار مجتمع المخاطر ومكانة العلم في المجتمع، إضافةً إلى بحوث السياسات العامة وطرق إدارة الحالة الاستثنائية للجائحة وأساليبها، والتطرق إلى قضايا تعدّد مصادر المعلومات وتضاربها ودور وسائل الاتصال الاجتماعي في ذلك. وهي تكشف بحقّ الطرق التي تعاملت بها الجماعات العلمية والسياسات العامة في البلدان الغربية مع جائحة فيروس كورونا، ونقاط ضعفها وقوّتها المعرفية والاجتماعية.

أخيرًا، وعلى المستوى الدولي، يذكّر الباحث بتوافر عديد الدراسات التي تناولت الجائحة بوصفها ظاهرة كونية، وأهمية التضامن والتعاون الدوليّين، والتنسيق بين الأنظمة الصحية الوطنية والمنظمات الدولية والجهات المانحة مقابل القضايا السيادية.



دراسات

Articles



من دون عنوان، أكريليك على قماش، 40×40 سم (2019).

Untitled, acrylic on canvas, 40x40 cm (2019).

دارم البصام | Darim Albassam*

إبستيمولوجيا الجائحة
في «معرفة المعرفة»
الجسد والثقافة والمجتمع

Epistemology of the Pandemic
On "Knowledge of Knowledge"
Body, Culture and Society

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تطوير سوسيولوجيا تبصّرية للتعامل مع ظاهرة الجائحة ضمن نسقها التعقّدي التكيفي وسياقها المجتمعي؛ إذ إن هذا المخبر الحي الذي ولّده الوباء يحتاج إلى تفكير مغاير يتجاوز الحواجز الإبستيمولوجية التي تفرضها رؤيتنا المسبقة للعالم، ويتخطى إملاءات براديغمات المنطق العلمي المألوف. فالمقطع التاريخي الحالي يشكّل قطيعة مع ذلك المنطق، وهو بمنزلة بوابة بين عالم وآخر؛ مما يجبرنا على إعادة ترتيب المخيال حول ما هو اجتماعي. تتسم الدراسة باتساقٍ داخلي وتسلسلٍ منطقي في محاورها، حيث تناقش: أولًا: الجائحة والمخيال السوسيولوجي. ثانيًا: تجسير الفجوة في التحليل السوسيولوجي. ثالثًا: إبستيمولوجيا الجائحة: المعمار النظري البديل. رابعًا: إبستيمولوجيا الجائحة: مستوى الإحاطة في إطار سوسيولوجيا الممارسة.

كلمات مفتاحية: الجائحة، إبستيمولوجيا، براديغم، مخيال سوسيولوجي.

Abstract: The study aims at developing a sociological inquiry guided by reflexive sociology to articulate the Covid-19 pandemic, as social phenomena within its complex, adaptive, and societal contexts. The pandemic which has thrown us into a living laboratory requires a different mode of thinking: one that overcomes the epistemological barriers of prior world vision and transcending the dictates of the scientific logic of conventional paradigms. The current historical transformation constitutes a rupture with the core way of paradigm thinking. The virus is a portal, a gateway between one world and the next. As a portal, it forces a re–imagination of *the social*. The study strives for internal consistency and logical structuring to discuss in sequence: 1) the pandemic and

* عالم اجتماع عراقي An Iraqi sociologist.

the conventional sociological imagination; 2) Systems modality for bridging the gaps in sociological analysis; 3) building alternative theoretical architecture of pandemic epistemology; and 4) utilizing practice theory of sociology for analysis and interpretation of pandemic epistemology.
Keywords: Pandemic, Epistemology, Paradigm, Sociological Imagination.

أولًا: الجائحة والمخيال السوسيولوجي

هنالك مسلّمة يكاد يجمع عليها العديد من المفكرين والفلاسفة من مختلف مشاربهم، وهي أن الحقيقة تكشف عن نفسها في لحظات القطيعة وكما نعيشها حاليًا مع الانتشار الكوني لجائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19). وواجبنا كعلماء اجتماع، قبل غيرنا، أن نتساءل عن الذي كشفت عنه هذه الجائحة، وهل لدينا من الزاد المعرفي والأدوات ما يتوافق تاريخيًا لتحليل الظاهرة؟

قد يعتقد البعض أنّ من المبكر الوصول إلى استنتاجات حول ظواهر ما زالت قيد التشكل، ولكن لا بد لنا من أن نقر بأنّ ما كنّا نعدّه في خانة «متعذر الحدوث» قد حدث وأصبح في خانة «المألوف الجديد»، فقد رزحت مجتمعات بأكملها تحت الحجر الكامل وتوقف العالم، الذي نعرفه، عن الدوران.

من جانب آخر، تعرضت العديد من النواحي التي ألفناها في حياتنا اليومية إلى التشتت نتيجة لسواد حالة عدم اليقين والسيولة والخوف، فقد جاءت ظاهرة الجائحة بتغيرات غير مسبوقة أثّرت في جميع جوانب الحياة، وتأثرت بذلك العلاقات الاجتماعية بشكل كلّي.

الأهم من ذلك كله أنها أحدثت شرخًا في المخيال السوسيولوحي لفهم كيف أن الأنساق الاجتماعية المختلفة، عبر الثقافات، وداخل الثقافات الفرعية في المجتمع الواحد، تتفاوت في فهم الصحة والاعتلال وإعادة إنتاج الحياة وكيف تتفاوت في تحديد سبل المواجهة عندما تتغير البيئة البيولوجية بشكل غير مألوف مسبقًا. وأخيرًا كيف أن النظريات الكبرى ومساهمتها قد تعجز عن إيراد تفسيرات لذلك.

جائحة كورونا بإمكاننا تشبيهها بالبجعة السوداء وبكل الخصائص التي يحددها لها نسيم طالب في كتابه الذي يحمل الاسم ذاته، فهي أولًا: «برانية» خارج المخيال وخارج المتوقع المألوف الذي ينتج عادة من الأزمات والكوارث المعتادة كالزلازل والعواصف والفيضانات، إذ ليس في الماضي القريب ما يقنع باحتمال حدوث تعقّداتها. وثانيًا: جاءت لتحمل تبعات بالغة الأثر. وثالثًا: بالرغم من كونها خارج المخيال، فإن الطبيعة البشرية تجعلنا ننهمك في تجهيز وإقحام تفسيرات لحدوثها بعد أن تم الوقوع في أسرها، كي نجعلها قابلة للتفسير والتنبؤ[1].

في نظري، إن نسيم طالب ساعدنا على أن نحدد في سطور قصيرة أزمة البراديغمات السائدة في العلوم الاجتماعية، فمنطق ظاهرة كونية كهذه الجائحة يجعل من غياب المعرفة حولها أكثر صلة من المعرفة التي نمتلكها عنها.

(1) Nassim Nicholas Taleb, *The Black Swan: The Impact of the Highly Improbable* (New York: Penguin Books, 2008 [2007]), pp. xvii–xviii.

في إطار هذه المراجعة الفكرية، كان تساؤلي وأنا بصدد التفكير في كتابة الدراسة هو: في هذا المقطع التاريخي الذي أفرزته الجائحة، كيف يعلم الباحث الاجتماعي بما يعلم؟ وما هو الرصيد في مخياله السوسيولوجي لتحليل هذه الظاهرة البازغة ومعالجتها؟

لا نختلف في القول إن السوسيولوجيا تتشكل بالنظريات الكبرى وتتأثر بالتراث العالمي وتساهم في أطره المرجعية. ولكن، وهذا المهم في نظري، تبقى السياقات المجتمعية مختلفة، والأهم من ذلك تبقى السياقات الثقافية مختلفة. وذلك أمر يرتبط بإنتاج المعرفة وبإبستيم الثقافات، الأمر الذي يحتاج منا إلى تطوير سوسيولوجيا تبصّرية لفهم ما يجري.

بتعبير آخر، ما نحتاج إليه حاليًا هو إعادة التبصّر، إبستيمولوجيًا، لإحداث انعطافة في الفكر السوسيولوجي الشائع في اتجاه التعامل مع ظاهرة الجائحة ضمن نسقها المعقد، إذ إن هذا المخبر الحي الذي ولده الوباء يحتاج إلى تفكير نسقي مغاير وإلى رؤية وأدوات منهجية جديدة، فالمقطع التاريخي الحالي هو بمنزلة بوابة بين عالم وآخر، مما يجبرنا على إعادة ترتيب المخيال حول ما هو «اجتماعي».

ولعل الأهم من ذلك هو أن الجائحة تمثل في هذا المقطع التاريخي لحظات تعرية للنظام الاجتماعي، فجميع المؤسسات والعلاقات والتفاعلات في إطاره أصبحت فجأة ذات إشكالية، والفرضيات المسلم بها للحياة اليومية قد تزعزعت وأصبحت محل تساؤل وعدم يقين.

وينبغي عندي أن نتذكر أن اللحظة التي أصبحت فيها الجائحة ظاهرة اجتماعية هي اللحظة ذاتها التي تتطلب تعريفًا اجتماعيًا/ بيولوجيًا. واللحظة التي تحولت فيها إلى كارثة هي اللحظة ذاتها التي تتسبب في قطيعة إبستيمولوجية مع الحقيقة كما اعتدنا التسليم بها.

حقلنا التخصصي (السوسيولوجيا)، كما ألفناه، يهدف في غاياته كحقل من حقول البحث العلمي إلى فهم العالم الطبيعي. ولتحقيق تلك الغاية دأب على اعتماد استراتيجيات إدراكية مختلفة، من بينها التبسيط في التوضيح والتفسير، وبمعنى الإقدام على تحليل النظام الاجتماعي المعقد من خلال اختزاله إلى عناصره المجزأة، واستخدام مفاهيم خطية وحتمية (مد الحاضر في المستقبل) لفهم الحياة بكل تجلياتها وعلاقاتها العضوية المترابطة.

بتفصيل أكثر، تسعى السوسيولوجيا، أنتولوجيًا، إلى التأمل في الحقيقة، وإلى فهم العالم ومكوناته، كما تهدف، إبستيمولوجيًا، إلى بلورة رؤية معرفية في كيفية حيازة الحقيقة، وإلى مقاربة فهم العالم ومكوناته.

ما أود الإشارة إليه بهذا الصدد أن الفهم الإبستيمولوجي الشائع بقي إلى وقت قريب يؤكد أن المعرفة العلمية يجب أن توفر تمثيلاً موضوعيًا للعالم الخارجي، وأن هذا العالم، مهما بلغت درجة تعقّده، يمكن مفصلته وحلّه من خلال اجتزاء الظواهر واختزالها إلى أبسط مكوناتها[2].

(2) Francis Heylighen, Paul Cilliers & Carlos Gershenson, "Philosophy and Complexity," in: Jan Bogg & Robert Geyer (eds.), *Compllexity, Science and Society* (London: Routledge, 2007), pp. 117–134.

ولكن من الواضح أن هذه التصورات قد وصلت إلى طريق مسدود، فالعقل البشري يتسم بالتعقّد ولا يحمل الصفة الخطية، وهو بذلك يتمرد على كل المحاولات «الاختزالية» و«الحتموية» لفهمه[3].

لقد زادت عندي القناعة بأن دراستنا للأنساق المجتمعية، من منظور التعقّد، تتطلب منا أن نعي، سوسيولوجيًا، أن كلاًّ من «العشوائية» و«النظام» مستبطنان في سلوك النسق الاجتماعي كـ «كلّ»، وعليه فإن ذلك يمنعنا من إرجاع ذلك السلوك إلى «حتمية كاملة» أو «عشوائية كاملة».

وبمعنى آخر، وبلغة نظرية التعقّد، علينا أن نفهم أن النسق الاجتماعي هو، دائمًا، على «حافة الفوضى»، إذ يمكن أن يظهر لنا سلوكًا خطيًا وقابلاً للتنبؤ، ولكنه في الوقت ذاته يمكن أن يفاجئنا بتغيرات حادة وآنية ذات تبعات بالغة الأثر تأتي نتيجةً لمدخلات ومثيرات قد تبدو للوهلة الأولى بسيطة في نظرنا، إلا أن مخرجاتها المدوية لا تتناسب مع حجم مدخلاتها المحدودة. هذا هو ما حدث بالضبط بالنسبة إلى جائحة كورونا التي كانت قد بدأت في إطار مدينة محددة وامتدت كونيًا خلال عام واحد، الأمر الذي لا يمكننا فهم تكيفاته إلا من منظور التعقّد.

مثل هذا التبصّر النسقي بدأ يعمل على إعادة تعريف الرؤية الإبستيمولوجية للعلوم التقليدية، وللسوسيولوجيا بالذات. وهو بمنزلة دحر تام للمفهوم القديم للنسق الاجتماعي الذي جاءت به مدرسة الوظيفية البنيوية لتالكوت بارسون، والذي ظل يؤمن بقدرة النسق على صيانة نفسه بنفسه، وإصلاح حالة اللاتوازن التي قد تعترضه ليعود إلى الاستقرار والتوازن، وبشكل خطي[4].

على العكس من ذلك، فإنّ ما يؤكده التبصّر النسقي القائم على التعقّد هو الإقرار بأنّ الظواهر الاجتماعية تتسم بالتقطع وعدم الاستقرار من خلال أنماط السلوك والتكيفات الاجتماعية التي تبرز بشكل غير متوقع. وعليه، فإنّ «اللاخطية» و«الخطية» يمكن أن تتزامنا وفق طبيعة النسق المدروس.

يعني ذلك أنّ فهمنا النسق الاجتماعي ككل معقد، وتحليل خصائصه وفق هذا التبصّر، بإمكانهما أن يدعما قدرتنا على التأسيس النظري للعمران الاجتماعي للسياق الذي نقوم بدراسته، وبإمكانه كذلك أن يزودنا بعدسات مغايرة ننظر من خلالها إلى الأنساق الفرعية لذلك العمران، والتي عادة ما تبدو للباحث الوضعي مستقلة بطبيعتها وغير مترابطة في وجودها، في حين أنها متصلة «عضويًا»، بتغذية راجع بعضها إلى بعضها الآخر في «كل جامع» هو النسق الاجتماعي.

ما أود التأكيد عليه، وأسعى إلى توضيحه في هذه الدراسة، أن لا سبيل إلى دراسة ظاهرة الجائحة، إبستيمولوجيًا، إلا من خلال السياق المجتمعي بكل تعقّداته، حيث إن ذلك يصبح أمرًا أساسيًا لعملية التفسير. ففي هذا الإطار الدينامي للتفكير النسقي يتمكن الباحث السوسيولوجي من تفكيك الأحداث والعلاقات والرؤى المختلفة للعالم لدى الجماعات الاجتماعية في الأنساق الفرعية، وإعادة تركيبها،

(3) Wolf Singer, "Understanding the Brain: How Can Our Intuition Fail so Fundamentally When it Comes to Studying the Organ to Which it Owes Its Existence?", *EMBO Reports*, no. 8, sup. 1 (July 2007), pp. 16–18.

(4) Talcott Parsons, *The Social System* (London: Routledge and Kegan Paul, 1951).

والتمكن من فهم الدوافع وأنماط السلوك المستبطنة، والتي لا يمكن تغطيتها عادة بالمناهج التقليدية، إذ يجري إهمالها في عمليات التجريد والتصنيف في التفكير المنطقي العلمي الذي اعتدناه.

نضيف إلى ذلك أن الأوبئة، كما هو الحال مع الجائحة الحالية، تنحو هي الأخرى نحو التعقّد واللاخطية في سلوكها، بحيث تنتج آثارًا لما يمكن ولا يمكن التنبؤ به أو توقعه، من خلال التفاعل والتكيف مع الوسط الثقافي، مما يولد أنساقًا بيولوجية/ ثقافية (بايو-ثقافية اصطلاحًا) نستطيع من خلالها أن نختبر كيف أن العمليات السوسيوثقافية والاقتصادية-السياسية تؤثر في الموقف من الصحة والاعتلال وإعادة إنتاج الحياة. تلك هي المقاربة الأفضل، في نظرنا، والتي سنسعى إلى تطويرها نظريًا ومعرفيًا في هذه الدراسة.

التصور البايو-ثقافي، مثلما أراه، يجد مكانه في إطار القيمة السوسيولوجية للتفكير النسقي، والتعريف الذي يمكن أن نتبناه لذلك التصور هو باعتباره الحوار النقدي بين النظريات البيولوجية والنظريات والمناهج الثقافية للإجابة عن الأسئلة الجوهرية لسوسيولوجيا الجائحة. يحدث ذلك من خلال الربط بين أبعادٍ أساسية ثلاثة: الجسد والثقافة والمجتمع.

في النهاية، نحن أجسادنا، وكل ما نحن عليه، وما نفعله يفترض شكلاً ونمطًا من «التوسد الجسدي»، أو بتعبير آخر سريان الثقافة تحت جلدنا.

معنى هذا أنّ فعل المفهمة الإبستيمولوجية للجائحة من منظور بيولوجي/ سوسيولوجي وبيولوجي/ ثقافي يحمل معه جملة من الأسئلة حول طبيعة إنتاج المعرفة للوباء.

تلك في الواقع، وكما أراها، مسؤولية فكرية تتطلب منا في الحقل السوسيولوجي أن نتعهد بها، فالطريقة التي تتفهم من خلالها المجتمعات طبيعة الجائحة، وتستوعب أبعادها لا يمكن اختزالها في الحقيقة الأنتولوجية للجرثومة. المطلوب هو تبني وتطوير المنطق المعرفي والاجتماعي، فالبيولوجيا والثقافة مصدران متلاحمان في نسق مجتمعي موحد[5].

ولكنني، وأنا بصدد مفصلة العلاقة بين البيولوجيا والسوسيولوجيا، والتي أخذت مني وقتًا كافيًا، طرأ على ذهني تساؤل أعتقد أنه يجسد إشكالية أساسية في التطوير النظري لهذا الحقل البيوسوسيولوجي والبيوثقافي. كان تساؤلي هو: كيف يفكر الباحث السوسيولوجي عندما ينطق كلمة «بيولوجي» سواء في فهمها كعمليات يومية (الحياة في تجلياتها الدينامية) أو كشكل من أشكال المعرفة المبنية على التخصص؟

وقد دفعني ذلك الفضول إلى الرجوع إلى قاموس علم الاجتماع (2009) لأستطلع المعنى السوسيولوجي الموسوم لمصطلح «البيولوجيا»[6]. ومما أثار استغرابي أن هنالك إغفالاً تامًا، إذ لا يوجد مدخل

(5) Andrew Whiten et al., "The Extension of Biology Through Culture," *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*, vol. 114, no. 30 (July 2017), p. 7775.

(6) John Scott & Gordon Marshall (eds.), *A Dictionary of Sociology,* 3rd ed., revised (Oxford: Oxford University Press, 2009).

أو إحالة له. عوضًا عن ذلك هنالك مصطلح «الاختزالية البيولوجية» Biological Reductionism وBiologism، وهما مفهومان انتقاصيان يعكسان أيديولوجية التطبيق الحتمي/ اللاإرادي للمخرجات البيولوجية على المجتمع.

تنبع تلك النظرة الاختزالية من فكرة أن البيولوجيا الجزيئية يمكن من ناحية المبدأ أن تفسر بشكل كامل كل الحقائق البيولوجية، وأن التعددية في ذلك الحقل ومختلف نظرياتها وقيمها الإبستيمولوجية والإدراكية لا يأخذها السوسيولوجيون في الاعتبار، إذ يعتقدون أن لا علاقة لها بما هو «اجتماعي»[7].

لا يخفى على المتتبع في هذا الميدان أن هناك في إطار التعددية البيولوجية ضمن السياقات الثقافية معالجات إبستيمولوجية عديدة، في حقل الأنثروبولوجيا على الأخص، قد أغفلها السوسيولوجيون، وبالأخص حقل البيولوجيا التطورية التي تساعدنا في فهم الأبعاد الإدراكية وأنماط المعرفة، كمقاربات مشروعة في دراسة الحياة والجسد. والأهم من ذلك النظر إلى البيولوجيا كإنتاج معرفي.

ما حاولت أن تقدمه تلك المساهمات هو تذكيرنا بعدم إمكانية الافتراض أن التطور الإدراكي والثقافي للإنسان هو بمنزلة عملية «ثابتة» للتكيف تجاه بيئة «ثابتة» توجد بالتساوي لكل كائن حي. عوضًا عن ذلك علينا أن ننظر إليها كعملية للتطور المتصاحب للأنساق بعلاقاتها المتبادلة.

بتعبير آخر، مورفولوجية ووظيفة البيئة المحددتان لا تبزغان ببساطة من الشروط الموضوعية للعيش، ولكن من خلال الخبرة والاستجابات لتلك الشروط. فمعاني الحدث وإملاءاته الثقافية (الممارسات، والأعراف، والهرميات الاجتماعية) توصل أثرها الإدراكي/ الانفعالي، وتؤثر في الاستجابات البيولوجية، وتعزز الاستجابات الشرطية للسلوك البشري[8].

كل ذلك أصبح ضمن المقاربات النظرية والمقاييس العملية للدينامية البيوثقافية التي تتجلى في أنماط الثقافة تحت الجلد (التوسد الجسدي) بين الثقافات وداخل الثقافة الواحدة بين الجماعات الاجتماعية.

عندما نتبنى التصور النسقي للتوسد الجسدي، والذي سيشكل أحد أعمدة التطوير النظري الذي سنسعى لتوضيح أبعاده في هذه الدراسة، نبدأ بتجاوز الثنائية الديكارتية في التفريق بين «العقل» و«الأشياء» أو «الطبيعة». تلك الثنائية التي ما زالت تعبر عن نفسها في حقل السوسيولوجيا من خلال التسليم بأن الجذور الطبيعية للكائن البشري يتم تقليديًا اكتشافها عبر وسائط العلوم الطبيعية، في حين أن التمايزات في الممارسات السوسيوثقافية في العالم المعيش تتبع حقل العلوم الاجتماعية.

ولكن لماذا يصيبنا الاستغراب من هذا الإغفال المتعمد والواضح لدى السوسيولوجيين لحقل البيولوجيا؟ أليس لهذا الضعف في الاهتمام مرجعيات تاريخية في حقل تخصصهم؟ ألم يعتبر الرواد

(7) Maurizio Meloni, "How Biology Became Social, and What it Means for Social Theory," *The Sociological Review*, vol. 62, no. 3 (August 2014), p. 598.

(8) Catherine Panter–Brick & Carol M. Worthman (eds.), *Hormones, Health and Behavior: A Socio–Ecological and Lifespan Perspectives* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), pp. 6–7.

الأوائل والآباء المؤسسون لعلم الاجتماع الفصل الإبستيمولوجي بين ما هو اجتماعي وما هو بيولوجي إنجازًا تاريخيًا؟ ألم يعلنوا أن الوقائع الاجتماعية لا تفسرها إلا القوانين الاجتماعية، وأن لا داعي لإدماج معرفة مشتقة من العلوم البيولوجية في فهم السلوك البشري وتفسيره؟[9]

لقد عشنا مع تلك المسلمات والقناعات الفكرية ردحًا طويلاً من الزمن، والتي بدأنا نعترف أخيرًا بأنها تقسيم مخلّ وخاطئ بين الطبيعة والثقافة، الأمر الذي أحطّ من موقع البيولوجيا في التحليل السوسيولوجي العلمي.

ربما كانت تلك المسلمات ملائمة تحت أوضاع إبستيمية وسياسية معينة، ولكن حان الوقت لكتابة فصل جديد في هذه العلاقة من خلال التطوير النظري للحقل البيوسوسيولوجي والبيوثقافي، ووضع تلك الأطر النظرية محل تساؤل.

لقد أصبح من المسلّم به أن الإنسان، كأي شكل آخر من أشكال الحياة يتشكل ويتكيف للبيئة، إلا أن ما يميزه من غيره هو خلق عالم جديد تمامًا: المجال السوسيوثقافي للحقيقة.

في البيولوجيا هنالك اعتراف واضح في الوقت الحالي بأن الكائنات عمومًا تنهمك في بناء عمران لها متموضع في المكان والزمان Niche Construction، أي تنشئ أبعادًا للبيئة التي يجب أن تتكيف لها. الإنسان ذهب إلى أبعد من ذلك في عمرانه، حيث أنشأ عالمًا سوسيوثقافيًا يجب أن يتكيف له. ولكن الأهم في نظر الباحثين أنه خلق عالمًا سوسيوثقافيًا يستطيع أن يعرقل العوالم الأخرى البيولوجية والطبيعية، وأن هنالك تغذية متبادلة بين البعدين. وعلينا فهم تلك العلاقة، فالعالم السوسيوثقافي له آثاره في الأشكال الأخرى للحياة كالبكتيريا والجراثيم والنظام الإيكولوجي الذي تتعايش فيه مثل تلك الأشكال[10]. الجائحة في هذه الحالة تصبح نتيجة وليست ظاهرة.

ألا يمكننا أن نقرّ بأن تشكل أسباب الجائحة وانتشارها الكوني يمثلان تعزيزًا وصدقية لمثل هذه المقاربة؟

تاريخيًا، وفي إطار تتبع الفكر السوسيولوجي، لا بد من الاعتراف بأن فكر ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية قد أحدثا انعطافًا في المفهمة العلمية حول معنى «الحياة»، وبهذا فقد بدأت العقود القريبة الماضية تشهد لغة بيواجتماعية جديدة في غالبية العلوم الاجتماعية. ويمثل ذلك بالتأكيد تطويرًا مهمًا في النظرية الاجتماعية وميدانًا يجب أن ندلف إليه عربيًا للتعمق في اللحظة البيواجتماعية

(9) التفكير المضاد للنزعة الطبيعية Anti–Naturalism كان واضحًا عند الرواد الأوائل. دوركهايم بإصراره على مكانة «الاجتماعي» كنظام سببي قائم في حد ذاته مع رفض قاطع للمحتمات البيولوجية للحياة الاجتماعية. وكذلك الأمر مع ماكس فيبر الذي جسد من خلال فرضياته المنهجية القائمة على الكانتية الجديدة عدم جدوى اعتماد المقاربة المتجذرة في البيولوجيا وإقحامها في العلوم الإنسانية. وأخيرًا مقاربات غرامشي ولوكاش التي تفصل بين الأنثروبولوجيا طبيعية التوجه، وبين معنى الطبيعة البشرية كناتج للعلاقات الاجتماعية المعقدة.

(10) Ted Benton, "Biology and Social Sciences: Why the Return of the Repressed Should be Given (Causious) Welcome," *Sociology*, vol. 25, no. 1 (February 1991), pp. 12–13.

والبيوثقافية الجديدة. وهي لحظة أولدت رؤية موحدة تدمج، أول مرة، بين الأبعاد البيولوجية والإدراكية والسوسيوثقافية لمعنى تعقّد الحياة[11].

ومن منظور البيوسوسيولوجيا تم، كذلك، مراجعة القناعات القديمة التي اعتبرت أن الجسد هو بمنزلة ماكينة، وأن للعقل مملكته المنفصلة، إذ تم استبدال تلك القناعات بتصور معرفي مغاير يعترف، إبستيمولوجيًا، بأن النسق الإدراكي والحي لا يقتصر على العقل، بل يتعداه إلى نظم المناعة وإلى كل أنسجة وخلايا الجسد[12].

في السياق ذاته هنالك حاليًا إضافات معرفية بالغة الأهمية في العلوم الاجتماعية وعلوم الإدراك توضح لنا جملة تصورات، منها:

1. أن الثقافة تتسرب «تطوريًا» تحت الجلد في السياقات المجتمعية المختلفة.
2. أن هذا المخزون من «التوسد الجسدي» والثقافة لدى الفرد والجماعة الاجتماعية يمكن تنشيطه واسترجاعه واستخدامه في السياق.
3. عندما يتم تنشيط الثقافة المتوسدة جسديًا تبدأ بإحداث تأثير فاعل في مواقع الإدراك والانفعال وتقرير الأحكام والأفعال.

تنشيط هذه الثقافة المتوسدة جسديًا يمكن أن يتجلى من خلال التحكم في وضعية الجسد أو ما يمكن أن نطلق عليه التوسد الجسدي الحركي Hard Emobdiment، كالنزعة نحو التباعد الجسدي وعدم المصافحة. كما يمكن أن يتجلى من خلال إحداث تأثير فاعل في التوسد الجسدي الناعم Soft Emobdiment، والذي لاحظناه في إبستيم التفسير الرمزي للجائحة، وآليات الخطاب التي يفرضها المألوف المستبطن للثقافة المعينة[13].

التحليل السوسيولوجي لكل من هاتين الحالتين للتوسد الجسدي سيقدم لنا إطارًا منهجيًا بالغ الأهمية في فهم إبستيمولوجيا الجائحة في معالجاتنا القادمة في هذه الدراسة.

بقي أن نقر بأنه بالرغم من التطور في كل هذه الإضافات للفكر البيوسوسيولوجي، فإن دراسة سوسيولوجيا الجسد في إطار التعقّد، أو الإنتاج الاجتماعي للجسد كحقل للدراسة في العلوم

(11) Jonathan H. Turner, Russell K. Schutt & Matcheri S. Keshavan, "Biology and American Sociology, Part II: Developing a Unique Evolutionary Sociology," *The American Sociologist*, vol. 51, no. 4 (December 2020), p. 471.

(12) Fritjof Capra & Pier Luigi Luisi, *The System View of Life: A Unifying Vision* (Cambridge: Cambridge University Press, 2014).

(13) Omar Lizardo, "Improving Cultural Analysis: Considering Personal Culture in its Declarative and Nondeclarative Modes," *American Sociological Review*, vol. 82, no. 1 (February 2017), p. 94.

ينظر أيضًا:

Omar Lizardo, "Pierre Bourdieu as Cognitive Sociologist," in: Wayne H. Brekhus & Gabe Ignatow (eds.), *The Oxford Handbook of Cognitive Sociology* (New York: Oxford University Press, 2019), pp. 65–80.

الاجتماعية، لم تحظ إلى يومنا هذا بالإحاطة اللازمة وبالتطوير النظري المطلوبين، ولم تأخذ مكانها كمدخل تحليلي للعلاقات الاجتماعية والممارسات والمعاني المتمايزة، والذي بإمكاننا أن نستخدمه في إطار التحليل النسقي.

ويبدو أن الجائحة قد قامت (كفاعل غير بشري) بلفت انتباهنا إلى ضرورة إيلاء الأهمية اللازمة للتعمق في سوسيولوجيا الجسد ووضعها في مركز البحث السوسيولوجي، بدلًا من أن يكون في موقع التخوم في حقلنا التخصصي، أو بالأحرى ضرورة وجوده في مركز حياتنا الاجتماعية وإحساسنا بالذات البشرية، فالجسد، على ما يبدو، يستطيع أن يخبرنا بما نود أن نعرفه عن العوامل السيكولوجية والسوسيولوجية التي كنا سابقًا نتنكر لها أو نتجاهلها عندما ننظر إليه نظرة بيولوجية وكبَدَن.

ويفيدنا بهذا الصدد أن نقتبس من كريس شلنج قوله إن الجسد تأريخيًا هو من قبيل «الحاضر الغائب» في السوسيولوجيا، وذلك يعني أن حضوره كموضوع وكأداة للتحليل موجود في قلب المخيال السوسيولوجي، وغيابه يتجلى في أن السوسيولوجيا نادرًا ما ركزت بشكل تراكمي على التعمق في العلاقة بين البيولوجيا والثقافة وحالة «التوسد الجسدي» كموضوع بالغ الأهمية والحيوية في حد ذاته[14].

دراستنا للجائحة من منظور سوسيوثقافي تحتم علينا أن نتعمق في تصوراتنا الأنتولوجية والإبستيمولوجية لموضوع الجسد، وأن نحاول تطوير مقاربة نسقية جديدة لفهم عملية التوسد الجسدي للثقافة وتجلياته التي برزت في التكيف والمواجهة للوباء.

ما أقصده بذلك هو التوصل إلى منظور منهجي يتميز بالاتساق الداخلي يساعدنا في مراجعة المسلمات المنهجية القديمة، وطرح أسئلة وفرضيات وتصورات نظرية جديدة.

ثانيًا: تجسير الفجوة في التحليل السوسيولوجي

حاليًا تنحصرُ المعالجات البيوسوسيولوجية والبيوثقافية ما بين السوسيولوجيا الكلية/ البنيوية Macro Sociology والسوسيولوجيا القاعدية/ الفردانية Micro Sociology. تأتي محاولتنا في التطوير النظري من خلال استكمال المستويين من المعالجة بإضافة بعد ثالث هو الميزو سوسيولوجيا Miso Sociology (السوسيولوجيا ذات الموقع الوسطي الدينامي بين البنية والفاعل الاجتماعي) وفي إطار التفكير النسقي الجامع للمستويات الثلاثة. هنالك محاولات جادة وعديدة في ردم الفجوة، وفي توظيف سوسيولوجيا الممارسة على هذا المستوى الوسطي، لكنها لا تقترب من مستوى التعقّدية الاجتماعية التي نتبنى مقاربتها.

نطمح كذلك في أطروحاتنا للتطوير النظري إلى عدم الاقتصار على التعمق في دراسة وتحليل سوسيولوجيا الجسد، ولكن أيضًا الجسد في إطار السوسيولوجيا. مثل هذه المقاربة التي نتبناها تؤمن

(14) Chris Shilling, "Sociology and the Body: Classical Traditions and New Agendas," *The Sociological Review*, vol. 55, no. 1–sup (May 2007), pp. 1–18.

بأن اعتبارات الجسد، متضمنًا ذلك جسد المراقب والباحث السوسيولوجي ذاته، وأجساد الجماعة الاجتماعية المحددة، أو المجتمع المدروس بشكل عام، تكون في مركز الاهتمام، إذ يمكن أن يساعدنا ذلك على تطوير سردياتنا وفهمنا السوسيولوجي لمدى واسع من الديناميات، ويزيد قدرتنا على تفكيك عمل المؤسسات الاجتماعية، وبتعبير أدق مساعدتنا في فتح الإمكانات لتوضيح الميكانيزمات التي تعطي المعنى لتلك المؤسسات.

هناك من يعترف بأن فشلنا المزمن في تجسير الفجوة بين مستوى البنية الاجتماعية ومستوى الفاعل الاجتماعي في النظرية السوسيولوجية، غالبًا ما يتم استغلاله من قبل أعداء السوسيولوجيا واتهامها بأنها لا تشكل علمًا، ذلك ما يؤكده عالم الاجتماع جوناثان تيرنر[15].

وهذا صحيح في نظرنا، فالسوسيولوجيا من دون مفصلة للدينامية الاجتماعية وأنماط التواصل والتشبيك على المستوى الوسطي، تبقى تخصصًا ناقصًا يخضع لإغراءات الاختزالية.

بهذا المعنى، يمكننا أن نطلق على ثنائية التحليل السوسيولوجي الكلي والقاعدي مصطلح «الصندوق الأسود»، أي بمعنى عملية تحليل مدخلات ومخرجات من دون النظر إلى العمليات. في مثل هذه المقاربة التحليلية لا يتعدى الفرز بين المستويين إلا كونه تمييزًا مفهوميًا بين قاع المجتمع وسقفه، مع التجاهل للفعل السوسيولوجي بين المستويين، والذي يحدد قواعد اللعبة السوسيولوجية.

كل ذلك يعني عندي أن ممارسة النظرية في الحقل السوسيولوجي تشكل بالنسبة إلينا جميعًا تحديًا مستمرًا، فالحقيقة الاجتماعية، كما يشير إلى ذلك بيار بورديو في العديد من كتاباته، ليست بالمادية/ الكلية البحتة، ولا بالرمزية/ الفردانية البحتة.

من هنا فإن الرؤية التي نتبناها، كأحد أبعاد تطويرنا النظري لفهم إبستيمولوجيا الجائحة، تسعى إلى تجنب الاستقطاب الثنائي (ذاتي/ موضوعي)، والتفكير في منهج يتحدى ذلك التضاد التقليدي بينهما، ويتدارس الجائحة في إطار المنهج النسقي القائم على التعقّد، والذي يربط بين الأبعاد الثلاثة في كل حيوي.

عمليًا، يمكننا أن نلاحظ أن التحليل السوسيولوجي الكلي/ البنيوي يفرض العبودية على الفعل الفردي، ويدعي تفسير ما يفهمه كقوانين أو نمط مثالي، في حين أنه يسيء فهم ذلك بمقاربته الحتمية. أما التحليل القاعدي/ الفرداني والذي يشكل، كمنهج، غالبية الدراسات السوسيولوجية التي تناولت الجائحة بالتحليل، فهو من قبيل المقاربة العمياء بالنسبة إلى المضامير الاجتماعية Social Fields والتشبيك المؤسسي، والمتغافلة عن كون المجتمع لا يتشكل من الناس، بل هو منظومة تواصل يحددها المستوى الوسطي بالدرجة الأساس.

وفي إطار تفكيك كلا المستويين، وتوظيفهما في تصورنا النسقي الكلي، يمكن القول إن النزعة الكلية في السوسيولوجيا تركز على بنية النسق المجتمعي، في حين تنزع الفردانية إلى تحليل تشكيلة ذلك.

(15) Jonathan H. Turner, "Academic Journals and Sociology's Big Divide: A Modest but Radical Proposal," *The American Sociologist*, vol. 47, no. 2–3 (September 2016), p. 295.

كلاهما مهم في نظري، ولكنه يصبح غير ملائم إذا ما تمت المناقشة بشكل مستقل ومنعزل، إذ إن القيم المقترنة بالتنشئة الاجتماعية لا تخضع لحتمية البنى الاجتماعية، ولا تنبع على الطرف الآخر من الإرادة الحرة للأفراد، بل تتكرس من خلال الوجود التواصلي بين المستويين عبر الزمن.

هذا يعني أننا عندما نريد توفير إطار دلالة لفهم إبستيمولوجيا الجائحة، نحتاج قبل كل شيء إلى أن نطور نظرية للمجتمع، كي نتجنب مخاطر التحليلات التي تختزل علاقات القوة والمؤسسات والفواعل الاجتماعية وحصرها في متغير أو عامل، أو مناقشة جانب أحادي للحقيقة الاجتماعية غير متصل بالبنى القائمة وبالفعل الاجتماعي وبالمظاهر المختلفة للتفاعلات المعقدة في المجتمع.

ما نحتاج إليه في الواقع هو إعادة التبصّر لإحداث انعطافة في البراديغمات الشائعة في البحث السوسيولوجي في اتجاه التعامل مع الظاهرة الاجتماعية ضمن نسقها المعقد، وفي إطار السياق للمجتمع المدروس، بحيث يصبح باستطاعتنا استيعاب كل من السوسيولوجيا الكلية/ البنيوية والسوسيولوجيا الفردانية/ الاختزالية ضمن نموذج التفكير النسقي الذي نتبناه.

يعني ذلك أن سوسيولوجيا الممارسة بشكلها التعقّدي والتكيفي، على المستوى الوسيط، هي التي ستوفر تصورات الدينامية الاجتماعية وتفاعلاتها التي تحتاج إليها المعالجات على كلا المستويين.

وإذا ما استخدمنا لغة العصر الرقمي لتوصيف هيكلية النسق وعلاقاته العضوية بين المستويات الثلاثة، ومن ثم النظر إلى المجتمع بكليته، فلدينا تصورنا النظري لذلك.

بإمكاننا، وفق هذا التأسيس النظري، اعتبار المستوى البنيوي/ الكلي بمنزلة عتاد المجتمع Society's Hardware، إذ تتمثل فيه البنية المادية، بنية المصالح، قوانين المجتمع والهيكلية الاجتماعية، أيديولوجية الحكم، العمليات الاجتماعية والتفاعلات في ما بينها، القضاء، الدساتير، المؤسسات التعليمية، الميديا وكل المؤسسات النظامية التي تحدد الفضاء السياسي والقانوني لحركة المجتمع.

ولذلك، فإن بنية ووظيفة هذا المستوى يمكن تشبيهها بلوحة الدائرة الكهربائية Circuit Board للنسق المجتمعي، حيث تضمن تشغيل العمليات على المستوى الوسطي، وتتلقى الإشارات القادمة منه (إيجابًا أو سلبًا).

بتعبير أدق، نعتقد أن طبيعة البنية الاجتماعية في المجتمع المعين هي بمنزلة القوة الصلبة خلف الستار، والتي تجعل من المجال السوسيوثقافي بتجلياته المختلفة أمرًا ممكنًا.

أما المستوى الوسطي، مستوى التواصل والتشبيك المجتمعي، والقواعد والأحكام، فهو مستوى العقلية الاجتماعية Social Mindset، ومركز الدينامية الاجتماعية. ويمكننا أن نعدّه بمنزلة برمجيات المجتمع Society's Software أو القوة الناعمة، فالمجتمع لا يحيل إلى إجمالي الأفراد ولا إلى بنيته، كما أسلفنا، بقدر ما يعتمد على عمران تواصلي شامل وشبكة برمجيات حية ترتبط بالفعل والأداء.

التواصل على هذا المستوى هو ظاهرة متكيفة ونسق مفتوح يحمل إمكانية الإبداع البشري والتحول بالمجتمع، ولكنه في الوقت ذاته يمكن أن يحمل سوء التفسير أو اللافعل.

برمجيات المجتمع، أو القوة الناعمة، كما نراها، هي التي توفر الانتشار للأحكام والقواعد في اتجاه المستوى الكلي/ مستوى النظام والقوة الصلبة. وعليه، فإن سؤال كيفية تأثير القوة الناعمة فيه، هو سؤال كيف تجد نفسها في ذلك النظام الذي يختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن ثم في كيفية الاستجابة للقواعد والأحكام، وفي مدى تمتعه بالمرونة للتخلي عن القديم منها وإدخال الجديد ليشكل نظامًا متجددًا.

على الجانب الآخر، برمجيات المجتمع هي مستوى مهمّ للتحليل السوسيولوجي للأنساق الفرعية والعمليات المعقدة، وعملية تشكل أرصدة رأس المال الثقافي والاجتماعي والرمزي، فإما فائض طاقة مجتمعية أو عجز في تلك الطاقة، وإما الدفع بالتطوير المؤسسي البنيوي وبتحفيز الدافعية السلوكية لدى الفاعل الاجتماعي أو عكس ذلك.

تلك البرمجيات قادرة على أن ترينا كيف أن الثقافة لا تؤثر في ما يفكر فيه الناس فحسب، بل الأهم من ذلك، كيف يفكرون. القوة الناعمة تشكل، عمليًا، الجانب اللامادي واللامرئي للثقافة التي تسود حياة الناس.

في إطار برمجيات المجتمع كذلك يتم تدوين العقد الاجتماعي، وتقرير مستويات المساءلة المجتمعية، وتحديد مستوى سواد علاقات الثقة المؤسسية والشبكات الاجتماعية التي تدعمها من عدمها، ومن ثم طبيعة تأثير القوة الناعمة في تطور أو تخلف القوة الصلبة على المستوى البنيوي.

على هذا المستوى تتشكل المضامير الاجتماعية(16) ومنظومة المألوف المستبطن Habitus(17) لتقرير قواعد اللعب وساحة الملعب الاجتماعي، ويتفاعل في إطارها الذاتي والموضوعي في كل متكامل، وضمن ذلك تتشكل، إبستيمولوجيًا، رؤية الشرائح الاجتماعية المختلفة للعالم في ظل مستويات المعرفة، والدين، والمعتقدات، والقيم، والأعراف، واللغة، والعادات، والرموز.

برمجيات المجتمع والقوة الناعمة توفر الانتشار كذلك للقواعد والأحكام على المستوى الفرداني/ مستوى الفاعل الاجتماعي، والذي يمكن أن نطلق عليه تسمية مستوى المستخدم User’s Level.

التطور المعرفي، الإبستيمي، على هذا المستوى، له مقوماته من خلال التكيف السلوكي والتنظم الذاتي للقواعد والأحكام التي تقررها القوة الناعمة واتخاذ موقف دائري منها، إذ يتميز هذا المستوى

(16) هنالك مقاربات سوسيولوجية عديدة لتحديد وفهم المضمار الاجتماعي، منها مساهمات ماكس فيبر وكرت ليفين وبيرغر ولوكمان، ولكنني أفضل الاعتماد على مقاربات بيار بورديو، وإن كنت لا أتفق كليًا مع تعميماته المطلقة وكما سيتضح ذلك لاحقًا، فإن فكره يبقى الأقرب نسبيًا إلى التفكير النسقي من خلال تركيزه على «سوسيولوجيا الممارسة»، وبشكل يعمل على تجسير الفجوة بين مستويين: «البنية والفاعل الاجتماعي».

(17) اعتمدنا تسمية Habitus بالمألوف المستبطن على عبد الرحمن بن خلدون، والذي نعدّه أول من جاء بهذا المصطلح، إذ يذكر في مقدمته «الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألف من الأحوال حتى صار خلقًا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة».

بدينامية عالية تبعث بتغذيتها الراجعة إلى المستويين الوسطي والكلي من خلال التواصل والتفاعل الرمزي. الأمر من منظور الواقعية التطورية يختلف بطبيعة الحال من مجتمع إلى آخر.

ثالثًا: إبستيمولوجيا الجائحة: المعمار النظري البديل

بعد هذه المقدمة التأسيسية لتطوير أبعاد النظرية السوسيولوجية بوجه العموم، وحقل البيوسوسيولوجيا بوجه الخصوص، يتطلب منا الآن أن نواصل بطرح سؤالين أساسيين لهما علاقة بتأطير الإحاطة في البنود المتبقية من الدراسة. أولهما: ما المعمار الذي نقترحه لبناء نظرية للتفكير النسقي يمكننا توظيفها في دراستنا هذه؟ أقول ذلك لأن الأمر لا يمكن أن يقتصر على تحديد الإطار العام للتفكير النسقي Systems Thniking في أساس العمران وأبعاده وعناصره الأساسية، كما مهدنا لذلك بالشرح.

المطلوب هو تحديد أي رؤية معرفية وأي مقاربة وأي منهج وأي أدوات يمكننا اختيارها من هذا الحقل النظري الواسع، ومن ثم توظيفها في عمليات التحليل. وثانيهما: كيف يمكن أن يساعد اختيارنا ذلك المعمار النظري في فهم إبستيمولوجيا الجائحة؟

أود البدء بالقول إن مقاربتنا النظرية، التي نسعى إلى توظيفها، تشتق مرجعياتها من مفهوم النسق التعقّدي التكيفي Complex Adaptive System، وهي مقاربة تساعدنا في فهم «معرفة المعرفة»، وتمكننا من فهم حدود ذلك التوليد وإمكاناته، فالسوسيولوجيا، كما أفهمها، يجب ألا تكتفي بتطوير مفاهيم وأدوات جديدة لتحليل الظواهر فحسب، بل تعمل على التحقق كذلك من مقاربة تلك المفاهيم والأدوات في توليد المعرفة. ينبع هذا من التسليم بأن النظرية، وفق منهج التعقّد، هي ناتج للبحث السوسيولوجي وليست مسلمات مسبقة مشتقة من نظريات كبرى. من جانب آخر، نود تأكيد أن النسق التعقّدي التكيفي يعتمد نماذج صريحة وليست ضمنية، ولا يخضع لأي تقييم أو مسلمات مسبقة.

يحتاج الباحث السوسيولوجي عند تبني هذه المقاربة النظرية إلى التعددية المعرفية في العلوم الاجتماعية، وإلى تطوير نظامها للمفهمة والمصطلحات، فنحن نتحدث عند تأسيس مثل هذا المعمار النظري القائم على التعقّد عن ضرورة توحيد المنهج وطريقة التفكير. وعليّ أن أقر بأنني، في حدود هذه الدراسة، لا أدعي أن ما أقدمه هو رصيد معرفي متكامل، فنهج التنظير الذي أخوض غماره ما زال في بداياته، وعليه فإن ما أقوم به هو بمنزلة قذف الكرة وتوفير «إطار نظري» أكثر من كونه نظرية متكاملة، إذ إن إحدى الخصائص الحيوية لهذا التطوير النظري، كونه عملية مفتوحة هو «ما نوليه من أهمية قصوى» لدور الباحث السوسيولوجي عند قيامه بدراسة الظواهر البايو-اجتماعية والبايو-ثقافية.

يعني هذا أننا نقف في مقاربتنا هذه ضد الفهم التقليدي للعلوم الاجتماعية والإنسانية الذي يفترض من الباحث التخلي عن «الذاتية» من أجل خلق «معرفة موضوعية». على العكس من ذلك، إذ نؤكد أن دراسة النسق المجتمعي، من منظور التعقّد التكيفي، تملي على الباحث أن يكون جزءًا أساسيًا من عملية جمع وحيازة المعرفة وأداء البحث، فالتعامل مع ظواهر اجتماعية، تتجلى بشكل غير خطي وفي إطار حالة عدم اليقين، يفرض على الباحث السوسيولوجي أن يحور ملاحظاته الميدانية، ليس من أجل شراء الدلالة، ولكن لإعطاء منهج جديد لتوليد المعرفة.

يعني ذلك، منهجيًا، أنه عوضًا عن الاتفاق المسبق الذي تفرضه النظريات الكبرى عادة على الباحث باتباع نقطة مدخل معينة للملاحظة، بإمكان الباحث السوسيولوجي وفق مقاربتنا أن يختار نقطة المدخل التي يراها هي الأساس في فهم السلسلة السببية للأحداث غير الخطية، وأن يؤسس لنظريته من خلال السياق والنسق اللذين يتناولهما بالبحث.

في هذه الحالة، ترفض مقاربتنا دراسة المجتمع كـ «نسق مغلق»، وبشكل يعمل على قولبة وتشظي المعرفة، بل نعيد تأكيد أن اختيار المتغيرات الأشد تأثيرًا هو من وظيفة الباحث السوسيولوجي دون غيره في كيفية تحديد تلك المتغيرات.

ما أود التركيز عليه، في هذه المقاربة المغايرة للمألوف السوسيولوجي، هو أن الجانب الإبستيمولوجي من التفكير النسقي القائم على التعقّد، يتيح للباحث أن يبدي رأيه في خصائص وحدود المقاربة العلمية في توليد المعرفة، وهو من يحدد السلسلة السببية والتغذية الراجعة بين المتغيرات في المستويات الثلاثة (الكلي، والوسطي، والقاعدي).

ولكن لماذا كل هذه المساحة لتدخل الباحث السوسيولوجي؟ السبب أن التفكير النسقي هو منهج تفسيري لعناصر النسق ونظمه الفرعية، وأن النسق لا يستطيع أن يتحدث عن نفسه كما هو الحال مع المنطق العلمي المألوف، إذ تسود النسق، كما أسلفنا، حالة اللاخطية (عدم التناسب بين السبب والنتيجة أو حجم المدخلات مقابل حجم المخرجات للظاهرة الاجتماعية).

وضع الباحث السوسيولوجي في موقع تفسير لهذه الأبعاد، ينقلنا منهجيًا من منطق «البراديغم» (قواعد المنطق العلمي) إلى منطق «السردية» لبناء تصور نظري Grounded Theory Building نابع من خصوصية النسق الذي يقوم بدراسته.

وعندي، فإن التصحيح السردي للتفكير المنطقي العلمي ينتج أنماط تبصّر جديدة للظواهر المعقدة، وهذا يعني أننا في حاجة، كما أسلفنا، إلى سوسيولوجيا تبصّرية على الدوام، تبتعد عن المصطلحات الأكاديمية الجاهزة التي تفتقر عادة إلى الدينامية والإبداع، وتقترب من المفاهيم المفتوحة في استيعاب ديناميات الأنساق.

لقد اعتدنا في البحث السوسيولوجي أن نتعامل مع «قواعد» تحكم عملنا، وهي عادة تعميمات تعمل على توصيل أنماط من السلوك بأنماط من الفاعلين، وترجعها إلى أنماط من الأوضاع، ومن أجل تأكيد وجود «القواعد» نلجأ إلى عمليات التعميم والتصنيف ومأسسة الفعل البشري، باعتبار أن ذلك يصبح من باب الضرورة[18].

ليس الأمر كذلك في حالة التفكير النسقي/ السردي، فبالشكل الذي نراه، يصبح بالإمكان وضع تلك القواعد في إطار تسلسل مشاهد وسلاسل سببية تتفاعل في ما بينها بشكل عضوي. وعند بناء تلك السلسلة السببية التي يشتقها الباحث السوسيولوجي من السياق المحدد تغدو مجاميع المتغيرات

(18) Peter L. Berger & Thomas Luckmann, *The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge* (London: Penguin Books, 1967 [1966]), p. 23.

المختارة والتغذية الراجعة بينها واضحة وملموسة. ويتضح سلوك الفواعل تجاه الأحداث ونتمكن عندها من استقراء تبعات ذلك.

كل هذا يصب في إطار تطوير الفكر السوسيولوجي، فنحن نشهد حاليًا مرحلة «نهاية البراديغمات». يأتي ذلك بعد أن تم الإقرار بأن المعرفة العلمية دائمًا ما تتطور ضمن محددات يتم اكتشافها من خلال دراسة الدينامية الاجتماعية للحالة المدروسة، وأن الخطاب السوسيولوجي يجب أن يجري تطبيقه في سياقه الخاص من أجل الإنتاج المعرفي.

ولكن تبقى المشكلة قائمة في تحقيق النقلة إلى هذا النمط من التفكير السوسيولوجي، فالأمر متعلق بتحدٍّ بالغ الأهمية وهو: كيف لنا أن نتجاوز الحواجز الإبستيمولوجية؟

تلك عقبة أساسية يوضحها الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار بقوله: إن للعلماء حواجز فكرية عند مقاربتهم مشكلات علمية جديدة. ويعتقد أنه في سبيل تطوير مقاربات جديدة، عليهم أن يتغلبوا على الحواجز التي تفرضها رؤيتهم المستقبلية، أو بتعبير أدق الرؤية المسبقة للعالم ونمط التفكير الذي يتملكهم، لأن ذلك يعمل كمعوق للتطور المستقبلي لإنتاج المعرفة[19].

أنتولوجيًا، نعتقد أننا في إطار التفكير النسقي السردي القائم على التعقّد والتكيف استطعنا توفير إطار دلالة متماسك يبعد الباحث السوسيولوجي عن مسلمات النظريات الكبرى وفرضياتها، ويمكنه من فهم الدينامية الاجتماعية للمجتمع وللثقافة ذات السياق وامتلاك القدرة سوسيولوجيًا على تفكيك ما يجري من تغيرات على مستوى الممارسة، أي على المستوى الوسطي، أو ما يمكن أن ندعوه مسار الفضاء البيوثقافي وما يوفره من تغذية راجعة لكلا المستويين للنسق الاجتماعي.

إبستيمولوجيًا، إذا نظرنا إلى المعرفة، باعتبارها بنية قواعد وأحكام، فنحن نتعامل في إطار مقاربتنا مع مكونات توجد داخل النسق (أنساق فرعية) وأخرى خارج النسق، وأن بنيات القواعد والأحكام المختلفة بين الجماعات الاجتماعية يمكن تحليلها كذلك من خلال طبيعة وبنية التواصل والتشبيك الاجتماعي ضمن المضامير الاجتماعية وفي إطار المألوف المستبطن على المستوى الوسطي.

رابعًا: إبستيمولوجيا الجائحة:
مستوى الإحاطة في إطار سوسيولوجيا الممارسة

توظيفنا لهذه المقاربة النظرية في توفير فهمٍ لإبستيمولوجيا الجائحة يتطلب بالدرجة الأساس التعرّف إلى الممارسة البيوثقافية في السياق الذي نتدارسه، وذلك يتطلب توفير الإجابة عن ثلاثة أسئلة أساسية.

أولها: كيف تتشكل رؤية الجماعات الاجتماعية للعالم (رؤية الفرد لذاته)، (رؤيته للآخر «بتصنيفاته ومعاييره»)، (رؤيته للطبيعة «بجانبيها المادي والروحي/ الماورائي)؟ وكيف ينسحب ذلك على الموقف من الجسد والصحة والاعتلال في المحيط البيوثقافي المعين ضمن المضامير الاجتماعية المختلفة؟

(19) Gaston Bachelard, *La formation de l'esprit scientifique* (Paris: Librairie philosophique J. Vrin, 1993).

وثانيها: ما طبيعة التغذية الراجعة التي تؤثر في تشكل الفعل الاجتماعي «المتوسد جسديًا» لدى الأفراد؟ وما طبيعة الاستجابات للتأويل والمواجهة للجائحة في ظل الحالة الاستثنائية؟

وثالثها: ما طبيعة التغذية الراجعة على مستوى حاكمية الجسد في الحالة الاستثنائية للجائحة، والتي تفرضها طبيعة الممارسة البيوثقافية؟ وكيف تقترن السياسة بالحياة؟ وكيف تقترن السلطة بالحياة؟

لعل أول ما يمكن الشروع فيه، من أجل توفير إطار دلالة لاختبار الأسئلة الثلاثة، هو قيام الباحث السوسيولوجي بتفكيك السمات والخصائص العامة والأساسية للثقافة في المجتمع المدروس. بتعبير آخر: أيّ نوع من الثقافة نحن نتعامل معها؟

للمساعدة على توفير إجابة عن مثل هذا السؤال، نستعرض هنا جملة من التصنيفات للفضاءات البيوثقافية، كما هو متوافق عليه في الأدبيات. تزودنا تلك التصنيفات بمفاهيم أكثر تحديدًا تساعد في تشخيص متى وكيف تشكل الثقافة المعينة إبستيمها لفهم معنى الصحة والمرض، وكيفية التكيف للمواجهة، والخبرة النفسية والموقف من الجسد؟ كذلك، متى وكيف يتم النظر إلى الربط بين السياسة والحياة والسلطة والحياة في الثقافة المعينة؟

هنالك تصنيفات متعارف عليها تفيد في قياس نمط الثقافات والحكم على مستوى تعقّدها لاستجلاء طبيعة الممارسات البيوثقافية حيث يتم تقسيمها إلى:

1. ثقافات متماسكة مقابل ثقافات سائبة الطرف.
2. ثقافات صلبة تتصدى لحالات عدم اليقين مقابل ثقافات تتعايش مع الحالة.
3. ثقافات لديها فروق كبيرة في التقسيم الهرمي لرأس المال الثقافي مقابل تجانس وفروق ضئيلة.
4. ثقافات لديها فائض مجتمعي في منسوب الثقة بالمؤسسات الاجتماعية مقابل عجز في ذلك المنسوب.
5. ثقافات يغلب عليها التشبيك الاجتماعي في إطار الفضاء الخاص مقابل ثقافات غالب تشبيكها الاجتماعي مهيكل في إطار الفضاء العمومي.
6. ثقافات ذكورية مقابل ثقافات متساوية النزعة.
7. ثقافات تتشبث بالبقاء مقابل ثقافات التحكم في الحياة[20].

ولعل الأهم من هذا هو اتفاق الأنثروبولوجيين وعلماء النفس الثقافي على تبنّي تقسيم ثنائي كوني للممارسات البيوثقافية، والذي سنستخدمه كأمثلة توضيحية في دراستنا هذه، يضع تصنيف العمران الثقافي ما بين ثقافات قائمة على الفردانية Individualism (ثقافات المركزية الأوروبية التي تؤكد

(20) Ayse K. Uskul, "Socio–cultural Aspects of Health and Illness," in: David French et al. (eds.), *Health Psychology*, 2nd ed. (Hoboken, NJ: Wiley–Blackwell, 2010), p. 350.

اعتبار الفرد مقياس جميع الأشياء)، والثقافات القائمة على الجماعية Collectivism (الثقافات الآسيوية بالدرجة الأساس، والتي تؤكد امتداد الذات في الجماعة). وهو تقسيم يطلقون عليه «البنية العميقة للمخيال الثقافي»، وذلك لأهميته التاريخية، ولشمول تبنّيه من قبل الديانات التي تشمل قناعات غالبية سكان الأرض.

ولا شك في أن الاستنارة بتلك المقارنات تفيد الباحث السوسيولوجي في استنباط أسئلة بحثية وفرضيات دقيقة من خلال تفكيك الفضاء البيوثقافي، والتحقق من طبيعة تأثير المألوف المستبطن في الموقف من الأمراض السارية والأوبئة (القناعات الفلسفية حول الصحة والمرض، المسؤولية الاجتماعية أو الفردية، الموقف من الجسد، الترويض والتأمل، طبيعة التكافل الاجتماعي في مواجهة الوباء ... إلخ).

مثل هذه الأسئلة والفرضيات، يمكن أن توفر للباحث عملية مفهمة أكثر عمقًا، حول كيف أن هذه المتغيرات قد ترتبط بطبيعة التكيف والتنظم الذاتي لعمليات المواجهة الذي تمليه تلك الثقافة وانعكاساته على الثقافات الفرعية المتصلة بالعرق والجنس واللامساواة الرأسية (بين الطبقات) واللامساواة الأفقية (بين الجهات)، وبالنوع الاجتماعي، ومدى عمق الترابط الاجتماعي في ما بينها.

ومن خلال ذلك يمكن للباحث التزود بآليات حول كيفية تحديد هرمية المتغيرات الأكثر وزنًا وتأثيرًا، من أجل توظيفها كنقاط مدخل في بناء سلسلة العلاقات السببية المطلوبة في التفكير النسقي السردي، وباعتبارها من أكثر الممارسات الثقافية الحساسة لدى الجماعة المحلية في التعامل مع الجائحة.

إضافة إلى ذلك يمكن اعتماد تصنيفات أخرى لتحديد سمات المألوف المستبطن لدى الثقافات المختلفة وتشخيص موقفها من الجسد (مثال: ثقافات حداثية لديها قطيعة إبستيمولوجية مع الماضي يتسم مألوفها المستبطن بالعقلانية، وثقافات تتعايش مع الموروث الثقافي، ولكنها توظف قيمه لتطوير الحاضر وبناء المستقبل، وأخيرًا ثقافات يأخذ مألوفها المستبطن من الماضي كمعيار للحكم على الحاضر). كل هذا يمكن أن يوفر تصورات للباحث حول طبيعة الممارسات في الفضاء البيوثقافي وتحديد المواقف وطبيعة التكيف والتنظم الذاتي في التعامل مع الجائحة.

بطبيعة الحال لا يمكن الاكتفاء بهذا المستوى الإجمالي في وصف الثقافة من خلال الشخصية الوطنية وخصائصها، والتغافل عن الديناميات الاجتماعية للثقافات الفرعية داخل الثقافة الواحدة، ومفصلة ماكينات التعايش التي تنتج عادة مختلف القناعات المستبطنة ومختلف الاستراتيجيات للمواجهة من خلال المفهمة المعينة للجسد والصحة والاعتلال بين المضامير الاجتماعية.

تصورنا النظري للتفكير النسقي السردي ودور الباحث السوسيولوجي في إطاره يعني الممارسة البحثية داخل السياق، حينئذ نتمكن من تفكيك الفضاء البيوثقافي، والنظر إلى طبيعة الرساميل (الثقافية، الاجتماعية، الرمزية والمادية) وأنماط التشبيك الاجتماعي المتوافرة للشرائح الاجتماعية المختلفة، وبمعنى تفكيك أشكال الهشاشة والمقاومة وأنماط توظيف الموارد المادية وغير المادية عبر المضامير

الاجتماعية (الإقصاء الاجتماعي، اللامساواة، التكافل)، النفاذ إلى الخدمات العمومية، وكل ما يؤثر في الفهم والموقف من الوباء واستراتيجيات التكيف والتنظم الذاتي لمواجهته.

في محيطنا العربي، هنالك ثقافات بسيطة التركيب، وأخرى يسودها التعقّد، فإضافةً إلى التراتب الطبقي الحاد وأشكال اللامساواة، تتشكل في تلك المجتمعات هويات فرعية وجماعات إثنية وتقسيمات جغرافية متباعدة، توضح وجود عادات وطقوس دينية وثقافية لن تكون متجانسة في فهمها واستجابتها للجائحة.

بمعنى أدق، بالرغم من أن الجميع ينتمون إلى ثقافة واحدة، فإن لكل ثقافة فرعية إبستيمًا معينًا ورؤية مختلفة قد تتباين من زوايا عديدة في فهم ذات الحقيقة الاجتماعية وذات الحقيقة البيولوجية، ومن ثم، تكيفًا وتفسيرًا مغايرًا للصحة والاعتلال وتحديد أنماط المواجهة.

كل ذلك يضع الباحث السوسيولوجي أمام نسيج سوسيوثقافي متشابك ومعقد. ومثل هذه «التعقّدية الاجتماعية» تشكل خلفية السياق المجتمعي الذي يشتق منها سردياته، وينشئ السلاسل السببية لدراسة وتحليل سوسيولوجيا الجائحة التي تتأتى من خلال مفصلة العلاقة بين الجسد والثقافة والمجتمع.

من جانب آخر يتطلب تدارس الفضاء البيوثقافي معرفة الرسائل التواصلية التي يبعثها لكلا مستويي البنية والفاعل الاجتماعي.

على المستوى الكلي، نتعرف إلى ردود الفعل إيجابًا حيادًا أو سلبًا حول آليات التحكم في الجسد وطبيعة التعامل مع الحالة الاستثنائية.

كل ذلك يشكل العالم الاجتماعي والثقافي والسياسي للمجتمع المعين، ويحدد الموقف من الحياة والموت، ومدى احترام حق الإنسان في الحياة. معنى ذلك عندما تصبح الحياة كموضوع للسياسة، فإن لذلك تبعات على مستوى القواعد التأسيسية والأدوات والغايات للفعل السياسي.

علاقة الإنسان بالحياة (والبيولوجيا كعلم للحياة) لها دائمًا على المستوى البنيوي صلة بالتطور التاريخي للمجتمعات، وتختلف وفقًا لأنماط الحكم (ليبرالي حداثي بأنماطه المختلفة، تسلطي، شمولي، أبوي ... إلخ) التي تحدد طبيعة التحكم في الجسد في الحالات الاستثنائية وطبيعة الفائض أو العجز في رصيد نظم المناعة الاجتماعية لديها، فالجوائح مقاطع تأريخية حية ومحكات اختبار لتطوير تقنيات جديدة للسلطة وأساليب للتفكير حول العالم الاجتماعي، إذ تم، كما لاحظنا، تأميم كل ما هو بيولوجي، وبروز استراتيجيات مغايرة للتحكم في الجسد على حساب تقييد حرية الفرد. وكذلك كانت الجائحة بمنزلة مقطع تاريخي لتقييم مدى إفلاح استراتيجيات أنماط الحكم المختلفة أو إخفاقها في التفكير في الإنسان كغاية نهائية وحماية حقه في الحياة.

يفيد ذلك أن معنى الحالة الاستثنائية يحمل، سوسيولوجيًا، مضامين مختلفة وفقًا لطبيعة الأنظمة. تقييد الحرية الفردية، كاستثناء، في المجتمعات الليبرالية على سبيل المثال يقابله الحالة الدائمة

للحرية المقيدة، لدى الأنظمة التسلطية والأبوية، كما هو الحال مع العديد من الدول العربية، فالثقافة السوسيولوجية عند تلك الأنظمة، والتي يجب معرفة جينيلوجيتها في إطار التفكير النسقي السردي، لا تفرق بين مفهومي «مواطنين» و«سكان». ولذلك فهي ترمي جانبًا التفسير التعاقدي أو الحقوقي للمجتمع، وتهدف إلى التحكم السلطوي في الجسد. وبهذا فهي تضفي صفة «الكائن البشري» على «الاجتماعي». السكان عادة هو مفهوم «جسد من دون رأس». تصبح المعادلة عندئذ: التحكم في الجوانب الطبيعية للجسد وادعاء ملكيته الأخلاقية.

ومن دون شك، فإن تفكيك تلك العلاقة يحتاج منا إلى تحليل كيف أن السلطة السيادية (السلطة المطلقة) في مجتمعاتنا تكون مفروضة على الفرد، فهؤلاء الذين تتسلط الهيمنة عليهم يتواطؤون لاشعوريًا مع المتحكمين فيهم من خلال سوء تعرّفهم إلى عملية الهيمنة[21]. وحتى في حالة الأزمات التي يعدو فيها العالم في وضع استثنائي، كما هو الأمر مع الجائحة، فإن القابعين في مواقع التحكم والسلطة سيسعون إلى تكريس قبضة الإدارة وصياغة العالم كما هو مسلم به.

معنى ذلك أننا في حالة الأنظمة التسلطية، لا نتوقع أن نجد تغذية راجعة مؤثّرة من الفضاء البيوثقافي في الاتجاه الصاعد، لأنها أنظمة لا تستمد شرعيتها من أحد. يدعم ذلك أن التشبيك الاجتماعي الغالب هو في إطار «الفضاء الخاص»، وليس التشبيك في إطار الفضاء العمومي المهيكل، والذي يمكن أن يشكل قوة ناعمة منظمة تضغط في اتجاه مواقع القوة الصلبة/ قوة النظام، لذلك، وكما لاحظنا من مجريات إدارة الحالة الاستثنائية لدى تلك الدول، فإن هنالك تباينًا واضحًا وجليًا بين سياسات تلك الحالة وسلوك الناس.

استجلاء تلك العلاقات يوجب علينا أن نتدارس «النسق الاجتماعي للصحة والاعتلال» والاقتصاد السياسي لذلك جنبًا إلى جنب مع نظيره «النسق الثقافي»، وإلا فسيجري اتهامنا بالثقافوية.

عمليًا، إن دراستنا للنسق الاجتماعي للصحة والاعتلال وإعادة إنتاج الحياة على المستوى الكلي، هي بمنزلة التحقق من رصيد (نظام المناعة الاجتماعي) لدى الثقافة المعينة، أو بتعبير أدق مستويات العجز أو الفائض في تلك المناعة، وبمعنى تفكيك السياسات الوطنية للصحة، استكشاف ظواهر اللامساواة والحيف الاجتماعي، التعرف إلى طبيعة مستوى الثقة المؤسسية القائمة وعلى قنوات المعلومات المتوافرة ومدى الاتساق أو التضارب في عملية التواصل، تحديد الموقف من الجماعة العلمية وتجليات الجائحة وآثارها من خلال تلك السياسات. والأهم من ذلك كله هو فهمنا شكل الدولة وموقفها من قيمة الإنسان بالمعنى السيادي.

تلك هي ميزة التفكير النسقي السردي، إذ لا يكتفي بحساب آثار الجائحة باعتبارها نتائج للخصائص البيوثقافية للشرائح السكانية المختلفة، بل يربطها بمظاهر اللامساواة في المجتمع، أنماط التهميش والإقصاء الاجتماعي، العلاقة بين الفقر والدخل المحدود والمرض والموت. باختصار إن الربط في

(21) Pierre Bourdieu, *Practical Reason: On the Theory of Action* (Cambridge: Polity, 1998), p. 121.

العلاقة بين النسقين الاجتماعي والثقافي للصحة والاعتلال عند دراسة إبستيمولوجيا الجائحة هو الذي يحدد طبيعة العلاقة بين المستويات الثلاثة للنسق ككل.

في ما يتعلق بتأسيس البناء السردي للنسق الثقافي، والذي يشكل المخبر السوسيولوجي، نسعى إلى التركيز على الأبعاد الرمزية لفهم الجسد، والتي تعني الإدراك والمعرفة في تعريف وتصنيف ما معنى أن يكون الفرد معتلاً أو بصحة وافرة في الثقافة المعينة، وكيف تتشكل استراتيجيات المواجهة لدى الجماعات الاجتماعية، وما هو رصيد الفائض أو العجز في الرساميل المساندة؟ ففي الثقافات المختلفة هنالك تصنيفات متباينة في المخيال يطرحها المألوف المستبطن، ويحددها وفق معاييره عن الأعراض ومدى حدة المرض.

من بين الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الباحث السوسيولوجي لتحديد نقطة المدخل في سرديته في هذا الصدد ما يلي:

1. كيف يتعامل الناس في المضامير الاجتماعية المختلفة مع الوباء؟ وما المعاني المختلفة التي يعطونها إيّاه؟
2. كيف يتصورون الحالة الاستثنائية والمخاطر؟
3. كيف يتواصلون حول الأعراض؟
4. كيف يتعايشون مع الوباء؟
5. هل أن المألوف المستبطن يشجع على النزعة القدرية أم التحكم في الحياة؟
6. هل تعتمد الثقافة على العون التكافلي للمواجهة؟
7. أي نوع من العون؟
8. ما هي استراتيجيات التوسد الجسدي بجانبيه الحركي والناعم في مواجهة الحالة الاستثنائية للجائحة؟

تلك عينة من الأسئلة نستطيع من خلالها أن نوفر إجابات حول ما يلي: كيف يتواصل الناس، وكيف يطورون معرفتهم واتجاهاتهم نحو الحياة؟ وكيف يفهمون العالم من حولهم عن طريق اللغة والمعتقدات والفرضيات والقيم التي تحدد موقعهم فيه، مع إعطاء معنى للخبرة التي تمر عبر الأفراد والجماعات والأجيال من خلال المألوف المستبطن؟

بقي أن أشير إلى إشكالية ستواجه الباحث السوسيولوجي عند تعامله مع تفكيك هذا المخزون المستبطن لدى الجماعات والثقافات الفرعية المختلفة، حيث تبرز تجلياته عادة بشكل لاشعوري، مما يشكل أحد التحديات التي سيتعرض لها عند تطبيق المفهوم إمبريقيًا للتحقق من الأسس المعرفية لفهم الجائحة ومواجهتها وأنماط التكيف لذلك، إذ كيف له أن يلاحظ مثل هذه الظواهر، سواء أكان عمله ميدانيًا أم من خلال التحليل الكيفي؟

يساعدنا على حل هذه الإشكالية الاعتماد على التصنيف الذي توفره دايان ري، حيث عملت على تقسيم المألوف المستبطن إلى أربعة محاور قابلة للتحليل الإمبريقي والقياس، وهي:

1. المألوف المستبطن كعملية توسد جسدي.
2. العلاقة بالفاعل الاجتماعي Social Agency.
3. كمسارات جماعية وفردية.
4. وأخيرًا كماضٍ وكحاضر[22].

ما يهمنا التركيز عليه في ملاحظاتنا الميدانية هو أن المألوف المستبطن كعملية توسد جسدي وعلاقته بالفاعل الاجتماعي لا ينعكس من خلال المفردات والأفكار والمشاعر فقط، ولكن كذلك من خلال «التهيؤ البدني».

أسئلتنا الميدانية تصبح عندئذ: كيف أن اشتراطات القناعات والعادات الموروثة لدى الفرد والجماعات الاجتماعية تنعكس في أنماط الفعل الاجتماعي والتعامل مع العالم الاجتماعي ومع اليومي؟ وكيف يتحدد الموقف من الجسد في حالتيه: الجسد كمعاش والجسد كملكية؟

نعمل هنا على توظيف ثنائية «التوسد الجسدي الناعم» و«التوسد الجسدي الحركي» وكلاهما متلازم يغذي بعضهما الآخر كي نختبر أسئلتنا. ونفترض بهذا الصدد أنه في حالة مواجهة المخاطر، كحالة الجائحة، هنالك أنماط مختلفة من المواجهة والتكيف تتشكل من خلال تآلف هويات جماعية وفعل جماعي، تبدأ بإبراز خطوط جديدة للتفاعل الاجتماعي وفهم مشترك للمواجهة، وذلك بعد: تقدير مشترك للمخاطر والفرص، تقدير إمكانيات التعبئة والتنظم والتمكن من الموارد، الانخراط جماعيًا في أفعال تكيفية لم تكن مألوفة في الفضاء الاجتماعي المعين.

بطبيعة الحال لا يحدث ذلك دون الرجوع إلى المخيال، وإلى المخزون الثقافي، وإلى منظومة المألوف المستبطن لتقرير كيفية التهيؤ البدني.

ولكن من منظور التعقّد، فإن عملية إعادة إنتاج المضمون المستبطن أو حتى تحويره وتوظيفه لمواجهة الحالة الاستثنائية قد لا تجد طريقها في بعض الحالات نتيجة لإكراهات التعقّدات المحيطة[23]. يمكن أن ينشأ ذلك ويظهر في السلوك التكيفي الاستجابي للحالة الاستثنائية لدى بعض الجماعات الاجتماعية، حيث تبرز حالة التنكر الكامل للمألوف المستبطن والقطيعة مع قيمه.

(22) Diane Reay, "'It's All Becoming a Habitus': Beyond the Habitual Use of Habitus in Educational Research," *British Journal of Sociology of Education*, vol. 25, no. 4 (September 2004), p. 438.

(23) خلافنا هنا مع بيار بورديو، هو أننا ننظر إلى المألوف المستبطن ليس باعتباره وظيفية كامنة فبدلًا من ذلك ننظر إليه من مدخل «التعقّد»، إذ إن ذلك المألوف المستبطن باعتباره تشبيكًا اجتماعيًا تصبح عملية إعادة إنتاجه غير مضمونة في كل الحالات، حيث لا يمكن إبقاؤه «حيًا» باستمرار. آلياته ذاتية بالنسبة إلى النسق، ولا تجعله دائمًا قابلًا لمواجهة التعقّدات التي يفرضها المحيط. وعليه فإن الأبعاد المختلفة للتواصل تتزاحم في عملية انتقاء السلوك التكيفي، مما ينتج أحيانًا إعادة تموضع في شكل قناعات أو سلوك بازغ إلى حد التخلي الكلي عن قيم المألوف المستبطن.

يحدث هذا بوجه الخصوص بين القطاعات المهمشة في القاع الاجتماعي، وبالأخص عندما يشعر الفرد بالتهديد لسد قوته اليومي، وعندما يسلم بأن الجائحة وقيود الحالة الاستثنائية بدأت تنفي وجوده وبقاءه. عندئذ تسيطر عليه استراتيجية التشبث بالعيش، على حساب الالتزام بقيم وأحكام المألوف المستبطن، التي تبدأ بالتهرؤ وبفقدان صفة المرجعية القيمية. أمام مثل هذه الحالة يصبح التوسد الجسدي الحركي عاريًا ومتجردًا قيميًا.

وإذا كان هنالك درس قد تعلمناه من هذه الجائحة فإنها، ومنذ بداية إقلاعها، قد اصطدمت بماكينة اللامساواة المتوسدة في جسد المجتمعات، وبأن الفئات الاجتماعية التي تضررت من هذا الاصطدام هي أصحاب «الحياة الحافية» على حد تعبير جورجيو أغامبين.

الحياة عند أصحاب الحياة الحافية تتسم عادة بعدم اليقين، وبمواجهة أصناف من العنف الرمزي والمادي من المحيط. تسود أجسادهم نزعة التشبث بالعيش تحت أي تكلفة اجتماعية أو جسدية كانت، مما يؤدي إلى تآكل أحكام المألوف المستبطن عندهم، والدخول في حالة اللامعيارية Anomie على حد تعبير دوركهايم، وإلى حالة من التحلل القيمي الحياتي والمهني.

جرثومة الجائحة تكون قد اختطفت من هذه الشريحة الاجتماعية العريضة، في القطاع غير المنظم أساسًا، عملها اليومي. وبهذا أصبح الحجر الصحي بالنسبة إليها نوعًا من الرفاه الذي لا تقدر على توفيره، إذ عليها أن تعمل على سد حاجاتها الأساسية يومًا إثر يوم، والتضحية بالجسد من أجل ذلك.

مثل هذه الحالات تتطلب منا تحليلاً سوسيولوجيًا معمقًا لفهم إبستيمولوجيا الجائحة. وبإمكاننا أن نفترض أن حالة التوسد الجسدي لدى الفرد، عند مواجهة ضغط الحالة الاستثنائية بوجه عام، تتنافر ما بين اختفاء «الجسد المعاش» أو بروزه إلى الواجهة. ويمر الفرد بحالة من «الشك الجسدي» مما يدفعه إلى مراجعة رصيده من الرساميل وإعادة ترتيبها للمواجهة، أو طلب الدعم المادي والمعنوي في إطار مضماره الاجتماعي أو المضامير الأخرى.

ولكن حالة الشك الجسدي وقيمة الجسد المعاش تختفيان عندما تنعدم البدائل، وينحصر الأمر في نزعة البقاء والتشبث بالعيش. عندئذ يستسلم الجسد المعاش ليصبح في شكل «الجسد المتنحي» أو «الجسد المتحلل من قيمة الحياة». ونتيجة لذلك لا يبقى للفرد من خيار إلا المقارعة بالجسد، كملكية، تتحدد برأس المال العضلي في ظل الحياة الحافية.

تحليل حالات اللامساواة هذه التي أفرزتها الجائحة وآثارها المدمرة في القاع الاجتماعي تتم معالجتها، كما أسلفنا، في إطار النسق الاجتماعي للصحة والاعتلال لمعرفة مظاهر وأبعاد العجز في المناعة الاجتماعية وأنماط اللامساواة في المجتمع المعين.

1. في تقنيات الجسد

في حالة تشخيص مواجهة المخاطر وأنماط التكييف من منظور النسق الثقافي، والذي سنتناوله بالتفصيل، نحن هنا نتدارس «تقنيات الجسد» في مواجهة الجائحة، وهي تقنيات اجتماعية وبيولوجية

ونفسية في أشكالها وآثارها، ويتم استخدامها كآليات دفاعية عند الأزمات والكوارث، كالجائحة الحالية، لتحقيق التوازن النفسي.

تقنيات الجسد هي أنماط سلوكية مكتسبة نتيجة للعمليات الاجتماعية للتنشئة وللتراتب الاجتماعي في المضامير المختلفة، فلكل مضمار سماته الاجتماعية والسياسية والثقافية والرمزية، بحيث يتشكل ويصبح مختلفًا طبقًا لأشكال رأس المال/ العجز المتوافر، ومدى استقلاليته النسبية عن بقية المضامير، والأهم من ذلك مدى تأثيره في المضمار السياسي/ الاقتصادي ورأس المال الثقافي المهيمن على المستوى البنيوي الكلي. ولعل أول من عمل على توظيف هذا المصطلح هو مارسيل موس[24].

كي نختبر «تقنيات الجسد»، وأنماط التكيف في مواجهة الجائحة على أرض الواقع، نعمل على توظيف فرضية أخرى متسقة مع سابقتها، وهي: في ظل الحالة الاستثنائية للجائحة والتهديد بالإصابة وبالموت ينشأ صراع بين المضمار الاجتماعي والمألوف المستبطن (على المستوى الوسطي/ مستوى الممارسة)، وتنشأ حالة شد وجذب بين المستوى البنيوي ومستوى الفاعل الاجتماعي، مما يؤدي، سيكولوجيًا، ومن منظور التعقّدية الاجتماعية، إلى بروز حالات من التكيف والتنظم الذاتي والآليات الدفاعية للمواجهة.

يؤدي ذلك في نظرنا إلى بروز ميكانيزمات دفاعية معنوية لدى الفرد، وإلى تسليح الجسد Body Weaponization، وإلى إقامة حواجز حوله، وتبني عدة نظم دفاعية ومناعية. أحدها يتمثل بـ «نظام المناعة السلوكي» Behavioral Immune System، حيث تتم إقامته بالموازاة مع نظام المناعة البيولوجي، مما يعمل على التحصن، وذلك من خلال التحوير في طبيعة الممارسة والتعامل مع «اليومي» ضمن الحالة الاستثنائية.

كما يمكن في استراتيجية أخرى أن يتزود الجسد بذخيرة حية تعزز موقعه في مواجهة الجائحة، وذلك عن طريق تبنّي نظام دفاعي آخر، بإمكاننا أن نطلق عليه «نظام المناعة الروحاني» Spiritual Immune System، أو «الماورائي»، حيث تتهيأ النفس الاجتماعية لإقامة متاريسها الدفاعية عن طريق التحصن بالمقدس، والرجوع إليه ضمن نزعة تفرضها تهديدات الجائحة لبقاء الإنسان وتعززها تبعات الحالة الاستثنائية.

نظام المناعة السلوكي، الذي يتم إنشاؤه، يجسد عمليًا مدى هشاشة الإنسان أمام هذا الفاعل غير البشري (فيروس الجائحة)، وهو مبني على فكرة أن نظام المناعة البيولوجي، الموجود لدى كل واحد منا، لا يكفي لتحاشي الإصابة بالوباء، لأننا لا نستطيع أن نتتبع بالعين المجردة تلك الجرثومة. يستكمل الفرد ذلك عن طريق تأسيس نظام مناعة سيكولوجي مواز يمكّنه من استشعار الوباء عن طريق الآليات الحسية (الرؤية)، وبمعنى النظر إلى مصادر في المحيطٍ يعتقد أو (يتوهم) أنها المسبب للوباء، أو تساعد على انتقاله وانتشاره، مما يستدعي استجابة تكيفه وتنظمًا ذاتيًا[25].

(24) Marcel Mauss, "Techniques of the Body," *Economy and Society*, vol. 2, no. 1 (1973), pp. 70–88.

(25) Darim Al–Basam, "The Coronavirus: Sociology of a Pandemic," *Gulf Times*, 21/3/2020, accessed on 21/3/2021, at: https://bit.ly/3w6mHqA

مثل هذا النظام السيكولوجي، هو خط الدفاع الأول لتسليح الجسد ضد الجائحة، وهو بمنزلة آليات استباقية نتيجة لإشارات نابعة من المخيال، والاستجابة لها يتم عادة من خلال استثارة السلوك الانفعالي التجنبي لدى الفرد، مما يؤدي إلى تداعياته على السلوك الاجتماعي.

تتأثر هذه الآليات الدفاعية النفسية، عادة لدى الفرد، بالمعلومات المتضاربة التي تنتعش عادة أثناء انتشار الوباء في المحيط الخارجي. كما تتأثر كنتيجة لحالة الهشاشة الداخلية والاستعداد الذاتي للفرد (الشعور المزمن بالقلق والخوف من المرض)[26].

تؤدي هذه الآلية الدفاعية للجسد، وكما لاحظنا منذ بدء انتشار الجائحة، إلى فرز «جماعة المخاطر»، ومن ثم إلى العنف الرمزي الذي يتجلى بأشكال مختلفة، كسواد حالة من المركزية الإثنية (جماعة نحن) باعتبارنا محصنين ضد الجائحة، وجماعة (هم) باعتبارهم مصدرًا للعدوى، مما يوجب تجنبهم أو إدانتهم. وقد يتمثل ذلك أيضًا بالوصم الاجتماعي المتوسد جسديًا، من خلال التعصب ضد اللون أو العرق. وقد يظهر بشكل تراتب الهرمية الطبقية، أو يستهدف تقسيمات الحضر والريف، وسكنة الأحياء المكتظة الفقيرة، أو يتركز ضد القوميات والأديان الأخرى أو ضد المهاجرين.

لذا، على الباحث السوسيولوجي أن يلاحظ كيف أن نظام المناعة السلوكي قد وجد مكانه ضمن الثقافات الفرعية في المجتمع المدروس، وأن يتساءل عن علاقة ذلك بملكية الرساميل الثقافية والرمزية والتشكيلات الاجتماعية وأنماط الإقصاء واللامساواة في المجتمع.

من جانب آخر، في إطار تحققنا من نظام المناعة الروحاني لدى الأفراد والجماعات، تأتي المحاولة في إطار التفكير النسقي السردي، من خلال اختبار العلاقة العضوية بين الثقافة، والدين، والجسد، والسلطة المجتمعية التي يمتلكها المقدس لتنفيذ كيفية التعامل مع الجائحة. أهمية الدين تنبع من قدرته على خدمة الأفراد والجماعات كـ «مرجع» وإطار دلالة للمعنى العام للحياة وللعالم، للذات وللعلاقة بين الذوات[27].

ولكننا يجب، في معالجتنا موضوع الرجوع إلى المقدس في حالة الجائحة، أن ننتبه إلى التفريق بين «الدين كإيمان» و«الدين كعلامة للهوية وللنفس الاجتماعية»، إذ إن اللجوء إلى الدين كمناعة والاحتماء به من أذى الجائحة واستخدامه في عملية تسليح الجسد كآلية دفاعية يقع في باب «النفعية» وبمعنى حماية الذات من حالة عدم اليقين[28].

سيكولوجيًا، انتشار الأوبئة يبرز إلى السطح ما يدعى بالحيوية الأخلاقية Moral Vitalism، وهي ظاهرة جزء منها نفسي وجزء آخر ثقافي. فالناس يطرحون بشكل حاد وجود القوة الغيبية والأرواح، من أجل

(26) Mark Schaller, "The Behavioral Immune System and the Psychology of Human Sociality," *Philosophical Transactions of the Royal Society B: Biological Sciences*, vol. 366, no. 1583 (December 2011), p. 3419.

(27) Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures*, Robert Darnton (Fore.), 3rd ed. (New York: Basic Books, 2017).

(28) Darim Al–Basam, "Coping with the Pandemic," *Gulf Times*, 20/4/2020, accessed on 28/3/2021, at: https://bit.ly/2PcTN7z

إيجاد معنى للأحداث التي ليست لها تفسيرات بيولوجية أو نفسية واضحة الموقف، من تلك الحيوية الأخلاقية. تجليات تلك الحيوية الأخلاقية تختلف بطبيعة الحال بين ثقافة وأخرى، كما سيتضح في الصفحات القادمة.

الجائحة تصبح، في إطار الحيوية الأخلاقية والرجوع إلى المقدس، بمنزلة حالة ذهنية، وكمرض، سببه اضطراب أو عدم توازن بين قواه الحية، والصراع بين الخير والشر في داخله. وعليه فإن المناعة الروحانية هي في دحر قوى الشر في هذا المرض[29].

معنى هذا أنّ الهوية الدينية يتم تقمصها من أجل توفير حالة من الامتداد اليقيني في التعامل مع الجائحة، أو بتعبير آخر، استثارة حس الانتماء والاحتماء. الجرثومة في هذه الحالة، يتم النظر إليها روحانيًا، كشيطان، وكمصدر تهديد، من أجل إضفاء الشرعية على الذات، كونها تتمتع بالحماية والنقاء والطريق القويم.

بقي أن نشير إلى أنه في حالة التهديد بالموت، كما هو الحال مع الجائحة الحالية، تنتج العديد من السلوكات التكيفية والتنظمات الذاتية على الباحث السوسيولوجي أن يتدارسها في إطار الثقافة التي يتعامل معها، إذ تشعر شرائح اجتماعية بحالة من «التوجس المتوقع»، وهو شعور يتنامى داخل الفرد مما يؤدي إلى حالة من التشتت في الإدراك، وبمعنى الشك بما يخبئه المستقبل في حالة عدم اليقين.

مثل هذا الخوف المستبطن يتبناه العقل البدائي للفرد ليوحي إليه بأن الأسوأ غير المنظور هو القادم، مما يصدع الحس بالأمن الداخلي، ومن ثم فإن المخرج لذلك من أجل إعادة التوازن النفسي هو التماهي بيوثقافيًا مع الدين[30]. ويمكن القول إن الناس في مثل هذه الحالة يؤمنون بأن معتقداتهم الأخلاقية بمنزلة تجسيد لوقائع صحيحة حول العالم. مثل ذلك الإيمان يضفي لدى الفرد معنى المناعة.

إلا أن ذلك التماهي مع الدين يختلف من محيط ثقافي/ ديني إلى آخر، وبين ثقافة وأخرى. ففي حالة الديانات الواحدية، على سبيل المثال، يتم تفويض ملكية الجسد للقوى الإلهية كي تمنحها المناعة، فالله هو الذي يقرر الخير والشر وهو الذي يحمي من كل مكروه.

الأمر مختلف في الديانات الآسيوية/ الجماعية، حيث تصبح ملكية الجسد تابعة للجماعة، وأن الفرد يحمل خيره وشره، فلذلك يدخل مبدأ «الترويض» بدلاً من «التفويض». وتلك القضايا تتصل بالأساس في العلاقة بين الجسد والروح في الديانات المختلفة.

نود أن نضيف إلى ذلك أنه في ظل الثقافات المختلفة تقوم المؤسسات الدينية بدورها، هي الأخرى، في التبشير بنظام المناعة الروحاني، فهي، كما لاحظنا، ترفض إغلاق دور العبادة، باعتبار أن جرثومة الجائحة لا تجرؤ على دخولها، وإن دخلت فستتصدى لها مناعة المقدس. كما تم احتواء الخطاب الديني لتلك المؤسسات على عديد التأويلات، من بينها أن الجائحة أساسها سواد الخطيئة بين الناس،

(29) Ibid.

(30) Ibid.

وتغلب قوى الشر على قوى الخير في الحياة البشرية، ولا بد من العودة إلى الدين فهو المنقذ من الأوبئة.

سوسيولوجيًا، يمكننا القول إن نظام المناعة الروحاني يستحكم بشكل مؤثر في المجتمعات التي تتحدد فيها الرساميل الثقافية في إطار التشبيك الاجتماعي ضمن الفضاءات الخاصة (القبيلة، المجتمع المحلي المنعزل...)، وفي ظل ضعف العلاقة العقدية مع الدولة أو مع رأس المال الثقافي المهيمن. ولكن على الطرف الآخر يمكن أن يجد نظام المناعة الروحاني مكانه بشكل تعزيزي بين صفوف الاتجاهات المحافظة في المجتمعات المتقدمة، وبين الفئات المتعلقة بالماضي والمتمسكة بالنصيّة والأصوليّة في التفكير الديني.

ولكن يمكننا الافتراض، بشكل أوسع، أن نظام المناعة الروحاني بوجه عام، يتم اللجوء إليه لدى الشرائح الاجتماعية عندما تكون الحالة الاستثنائية الطارئة غير متوافقة مع المخيال السوسيولوجي، ومع الطريقة التي ألفوا من خلالها رؤية العالم. وعليه فإن التسلح بالدين، كمناعة، هو بمنزلة إنكار الجائحة، واندفاع نحو اللامبالاة، قد يصل إلى حد عدم الالتزام بإملاءات الحالة الاستثنائية، أو حتى التمرد عليها بالاحتجاج. وقد وجدنا ذلك واضحًا من خلال طبيعة التغذية الراجعة بين المستويات الثلاثة للأنساق الاجتماعية في الثقافات المختلفة، وداخل الثقافة الواحدة في مواجهة الجائحة منذ انتشارها.

2. في حاكمية الجسد

يقودنا مثل هذا التسلسل المنطقي في التحليل إلى نقطة مدخل أخيرة، بالغة الأهمية، تفيد في تركيب المشهد النسقي السردي وبناء السلاسل السببية. تلك هي طبيعة العلاقة الثقافية، التي قد تنشأ بين الفاعل الاجتماعي والسلطة، نتيجة حالة الشد والجذب التي تولدها الحالة الاستثنائية بين المضامير الاجتماعية والمألوف المستبطن في الثقافات المختلفة.

ففي الإطار المقارن، ومن باب إيراد الأمثلة التعريفية، على مستوى الثقافات (ككل)، بإمكاننا أن نلاحظ، سوسيولوجيًا، أنّ تعريف الفرد يختلف من ثقافة إلى أخرى. وعلينا استجلاء ذلك كي نتعرف إلى طبيعة الاختلافات بين الذات الفردية وبين السلطة في عمليات المواجهة.

في الثقافات المستندة إلى الجماعية، شرق آسيا بالذات، تؤكد فلسفاتها أن استقلالية الذات الفردية لا وجود لها، وأن التسليم باستقلالها أو الإيمان بها هو الذي يقود إلى الإخفاق وإلى تفاقم المعاناة في مواجهة الأزمات والكوارث[31].

المعاناة من الكوارث في أفقها الفلسفي، عندهم، هي علاقاتية Relational، وذات تأثير سوسيوثقافي متبادل. معنى ذلك أن «معاناة الفرد هي من معاناة الجماعة»، ولذلك فالجائحة في مخيالهم هي

(31) Jay L. Garfield, "Why There is No Self: A Buddhist View of the West," *IAI News*, 21/2/2018, accessed on 28/3/2021, at: https://bit.ly/3cv9wb6

«معاناة عمومية»، وأن «الجماعة هي الحل»، ولا أحد يخرج عن ذلك وينفرد ليصبح عندئذ جزءًا من المشكلة(32).

نستنتج من هذا أن العملية الفسيولوجية للمرض والاعتلال لا تحتل عندهم إلا وزنًا ضئيلًا. عوضًا عن ذلك نجد أن المعتقدات حول المرض تتشكل، إبستيمولوجيا، في إطار الرؤيا الكلية للعالم، والتي تربط القوى العلاقاتية الثقافية والاجتماعية والطبيعية بشكل عضوي.

ذلك يعني أن كلًا من الأبعاد الروحية والعقلية والطبيعية مترابطة في ما بينها في النظرة إلى الجسد والصحة، وأن التصدع في أي بعدٍ من تلك الأبعاد يمكن أن يسبب المرض، ويمكن أن يؤدي إلى خلل في المواجهة(33). في مثل هذا المألوف المستبطن، ينظر الفرد إلى جسده عن بعد، وبمعنى تصور الجسد كموضوع لمعرفة المواجهة عبر الذوات، وبهذا فإن الجسد المعاش يمتد في إطار الجسد الجماعي من خلال خبرة تعاطفية.

هنالك في المألوف المستبطن كذلك ثقافة «الإثم الاجتماعي»، المشتقة فلسفيًا من معنى «التحكم بالنفس»، أي احتراز الفرد من إبداء سلوك يضر بالجماعة(34).

كل هذا كان واضحًا منذ بدء انتشار الجائحة وفرض قيود الحالة الاستثنائية، إذ أثبتت تلك الثقافات أنها متسقة مع تفسير الوباء وسبل مواجهته، باعتبار ذلك مسؤولية اجتماعية ورغبة في تجنب الفشل في تحقيق الالتزامات الاجتماعية(35).

في المخيال الجماعي لتلك الثقافات، العلاقة بين الحاكم والمحكوم في إدارة الأزمات لها جذورها الفلسفية وخصوصيتها هي الأخرى. الحاكم، أو صانع القرار، في المألوف المستبطن، إنسان وفي الوقت ذاته رمز للقدسية يدان له بالولاء، وأن فضيلة الحاكم قياسها الوضوح، وإذا ما طرأت أزمة، كالجائحة الحالية، فهذا يعني أن «السيادي» هو من يتعرض للوم، وأن الخطأ لا يوجد بين الناس(36).

لقد رأينا ذلك عمليًا من خلال اطّلاعنا على طبيعة إدارة أزمة الجائحة في تلك الثقافات، والتي كانت الأفضل على الإطلاق مقارنة ببقية الثقافات، إذ لاحظنا أن التغذية الراجعة بشأن ضوابط الحالة الاستثنائية

---

(32) Harry C. Triandis, *Individualism and Collectivism* ((New York/ London: Routledge, 1995), p. 23.

(33) Mason Durie, "Maori Perspectives on Health and Illness," in: John Spicer, Andrew Trlin & Jo Ann Walton (eds.), *Social Dimensions of Health and Disease: New Zealand Perspectives* (Palmerston North: Dunmore Press 1994), p. 198.

(34) Sama Kubba, "The Importance of Culture in Societal Responses to COVID 19," *Harvard Political Review*, 14/10/2020, accessed on 28/3/2021, at: https://bit.ly/3syRDxm

(35) Al–Basam, "Coping with the Pandemic."

(36) Jay Garfield, "Beyond Catastrophe," *IAI News*, no. 87, accessed on 28/3/2021, at: https://bit.ly/3lZL1FT

تلازم متفرد للسياسة بعلاقتها بالحياة والسلطة في علاقتها بالحياة يكون قد غاب عن تحليلات ميشال فوكو. ولو كان قد تناوله في حفرياته لأدخل التحوير على العديد من فرضياته المبنية أساسًا لمناقشة المجتمع الليبرالي الذي أحدث القطيعة مع الموروث، وأصبحت «الحداثة» في نظره هي «الحياة» في معناها «العقلاني». في الثقافات الجماعية التي نهضت في وقت قياسي الموروث كان أساس المعمار الحداثي.

وحوكمة الجسد التي يتبعها المستوى الكلي (مستوى الحكم) إلى المستويين الوسطي (مستوى المضامير الاجتماعية) والمستوى القاعدي (مستوى الفاعل الاجتماعي) كانت أكثر تجاوبًا وإقناعًا، وأن هنالك تطابقًا بين محتوى القرار أو الرسائل التواصلية وبين الخصائص الإدراكية والانفعالية والدافعية للمتلقي. هذا يعني تقارب المضامير الاجتماعية في ردود فعلها، وأن السلوك التكيفي لدى الفرد بوجه عام يأخذ مسارًا دائريًا. الرسائل التواصلية التي يبعثها مستوى حاكمية الجسد في هذه الحالة تكون تعزيزية التوجه[37].

ولعل التحليل ذاته ينطبق على التغذية الراجعة بالاتجاه الصاعد، فهي دائرية كذلك. وقد اتضح الأمر جليًا في السلوك المؤسسي للدولة، حيث يلتزم المسؤولون بأعلى مستوياتهم التزامًا صارمًا بتطبيقات الحالة الاستثنائية، تعبيرًا عن معنى المعاناة الجماعية وامتدادهم في الجماعة.

على النقيض، وعند المقارنة بالثقافات ذات المركزية الأوروبية القائمة على الفردانية، نجد أن المعاناة من الوباء هي «ذاتية»، وأن التحكم في الجسد هو «مسؤولية فردية». الحفاظ على الصحة وصيانتها يرتبطان برغبة الفرد، فهو، وليس الجماعة الاجتماعية، مسؤول عن تلك المهمة. يصعب على الفرد في ظل مثل هذه الثقافات، المتمحورة حول الذات، النظر إلى الجسد عن بعد.

يتم رؤية الوباء، إبستيمولوجيًا، باعتباره عملية فسيولوجية، وأمرًا طبيًا وعلميًا منفصلًا تمامًا عن الجانب العلاقاتي في المجتمع، ولا يرتبط بالبنية الاجتماعية والطبيعية. النموذج المهيمن هنا هو «الذات المستقلة» و«الجسد المستقل»، والذي يعني ضمنيًا أنّ الاتكال على الجماعة له قيمة ثقافية متدنية، فالفرد في النهاية هو قياس جميع الأشياء، وأن التميز من الآخرين له قيمته التنافسية بمنطق السوق.

بتعبير آخر، الأفراد ينظرون إلى ذواتهم في ظل مثل هذه الثقافات كقوة قصدية تؤثر في الأحداث Agency، ولذلك فهم مسؤولون عن قراراتهم وأفعالهم. أما العلاقات بالجماعة فيتم النظر إليها باعتبارها اختيارًا حرًا يمكن للفرد الدخول في إطارها والتخلي عنها والخروج منها بسهولة[38].

الحرية الفردية بهذا المعنى تصبح لدى طائفة معينة من الناس، وكما يمليه عليهم التواصل في مضاميرهم الاجتماعية، بمنزلة الأيديولوجيا، ففي إطار الالتزام بقيود الحالة الاستثنائية، ينظرون وفق قناعات مألوفهم المستبطن «العقلاني»، من زاوية «النفعية»، وحسابات التكاليف والعوائد، والركوب بالمجان Free Riding. وبمعنى التحمس للترويج العلمي للوباء وسبل تطويقه كظاهرة فسيولوجية، وتوقع العوائد الإيجابية للانتفاع من التلقيح ضده، دون إعطاء أهمية للعوائد السلبية التي يجب الحماية منها وتجنبها، والالتزام بضوابطها بالتوسد الجسدي الحركي (لبس الكمامات، التباعد الجسدي)، باعتبار أن في ذلك مساسًا بالحرية الفردية[39].

(37) Al–Basam, "Coping with the Pandemic."

(38) Glenn Adams, "The Cultural Grounding of Personal Relationship: Enemyship in North American and West African Worlds," *Journal of Personality and Social Psychology*, vol. 88, no. 6 (June 2005), pp. 948–968.

(39) Daphna Oyserman & Spike W.S. Lee, "Does Culture Influence What and How We Think? Effects of Priming Individualism and Collectivism," *Psychological Bulletin*, vol. 134, no. 2 (March 2008), p. 312.

في مجال العلاقة بين الفاعل الاجتماعي والسلطة في تلك الثقافات وأنماط التواصل بينهما التي يوفرها المستوى الوسطي للنسق الاجتماعي في ظل الحالة الاستثنائية، هنالك، كما كان واضحًا منذ انتشار الجائحة، تفاعلات وأنماط تغذية راجعة مختلفة ما بين بلدان الفردانية الرأسية (النيوليبرالية كالولايات المتحدة وبريطانيا بالذات) وبين بلدان الفردانية الأفقية (نموذج الدولة الليبرالية المقترنة بالرعاية الاجتماعية كالبلدان الإسكندنافية تحديدًا).

يدفعنا هذا في التحليل النسقي السردي إلى أن نطرح السؤال التالي: إلى أي حد يمكن اعتبار الصحة والرفاه البشري (المناعة الاجتماعية) غاية نهائية للسياسة والسلطة في علاقتها بالحياة في الثقافات القائمة على الفردانية؟

تتطلب الإجابة أن ننظر إلى المقطع التاريخي الذي حدثت فيه الجائحة، والذي يسود فيه النموذج النيوليبرالي. وعليه يمكننا أن نتخلى عن الخطاب الفوكوي في تفسير ما يجري، إذ تبلور هذا النمط الرأسمالي بعد وفاته، وبعد التخلي عن النموذج الكينزي الذي تأثرت تحليلات فوكو به.

معنى ذلك أن القيود الصارمة، التي تم فرضها، لا تعني عودة الدولة إلى منطق السيادة والقوة المطلقة للتحكم في الجسد، أو الاستحواذ الكامل على السلطة. عوضًا عن ذلك، يمكن القول إن الذهول أمام الجائحة وانهيار استراتيجيات المواجهة كانا بمنزلة تعرية لهشاشة نموذج الدولة في الحد الأدنى والاحتكام إلى السوق، وتهاوي الدولة النيوليبرالية بشكلها الحالي بسبب النقص الفادح لديها في رصيد «المناعة الاجتماعية»، والتي جاءت كنتيجة للسياسات التي اتبعتها خلال العقود الأربعة الماضية، مما قاد إلى تخلّيها عن النسق الصحي لصالح قوى السوق، والقيام عمليًا بتسليع الجسد[40]. في هذا السياق الحداثة لم تعد الحياة، بل الموت، وفقًا لحسابات العرض والطلب، ووفق «من يملك» و«من لا يملك».

في إطار مثل هذه الحوكمة النيوليبرالية للجسد، جاءت الرسائل التواصلية المختلفة التي يبعثها المستوى الكلي حول الاستراتيجيات الواجب اتباعها لمواجهة الجائحة، فقد دعت الإدارة البريطانية مثلاً إلى تبني سياسة «الجسد القطيع» في بداية انتشار الوباء وبالمنظور «النفعي» الذي يعني: ما هو صالح للناس يمكن قياسه بما هو صالح لغالبية الناس، أو بمعنى حفظ الحياة للجسد كماكينة إنتاج وللجسد «كملكية» للذين يتمتعون بأصول من الرساميل تساعدهم على مواجهة الجائحة، وترك من لا يملك الأصول الطبيعية والمادية للموت.

في السياق ذاته، وإن كان بشكل مختلف، جاءت الرسائل التواصلية التي بعثها المستوى الكلي إلى المستويات الأخرى للنسق الاجتماعي حول حوكمة الجسد والخضوع لأحكام الحالة الاستثنائية لدى الإدارة الأميركية، متضمنة رفض تعطيل النشاط الاقتصادي، وتبنّي الخطاب السياسي الذي ينتج المعنى التالي: لا نستطيع أن نسمح للعلاج الحمائي بأن يضاعف حجم مشكلة الجائحة عوضًا عن حلها. معنى ذلك بدلاً من أن يكون «جسد الإنسان وصحته» غاية نهائية أصبح «جسد السوق» هو تلك الغاية.

(40) Darim Al–Basam, "Is the Invisible Hand Becoming Visible Again?," *Gulf Times*, 4/4/2020, accessed on 28/3/2021, at: https://bit.ly/2O0ySnz

ولعل الأكثر وضوحًا من ذلك هو توظيف «التوسد الجسدي الحركي» توظيفًا سياسيًا من قبل بعض الإدارات النيوليبرالية (الولايات المتحدة والبرازيل مثلًا)، وذلك من خلال رفض قيود الحالة الاستثنائية، والتمرد عليها، وتسييس الطب الحيوي عن طريق تسفيه آراء النخبة العلمية، وتبنّي خطاب شمولي يستجيب للفاعل الاجتماعي وللجماعات الاجتماعية التي تتبنى الحرية الفردية كأيديولوجيا، حيث تفاعل البعض منها مع ذلك الخطاب، وساهم في الاحتجاجات على فرض قيود الجائحة الاستثنائية. وقد كان ذلك واضحًا بين الجماعات اليمينية المحافظة والحركات التي تدعو إلى تفوّق العرق الأبيض.

في الواقع إن مثل هذه الأنماط من التغذية الراجعة بين مستويات النسق الاجتماعي في مواجهة الجائحة أفرزت ظواهر جديدة من الشعبوية، لاحظنا اختلافها عن التحليل السوسيولوجي المألوف لتلك الظاهرة.

أول تلك الاختلافات أنّ الشعبوية، بطبعها، معادية للخبرة العلمية والتفكير العقلاني، ولكنها في هذه المرة انتعشت في اللحظة التي تفاقمت فيها آثار الجائحة، وبالأخص، عندما بدأ الناس يجدون في الجماعة العلمية ملاذًا لهم لإمكانية محاصرة الوباء.

ثاني تلك الاختلافات أنّ الشعبوية تعمل على توظيف الأزمات وعلى استغلالها أو غالبًا ما تصطنع الأزمات، ولكن في حالة الجائحة الحالية، كان الموقف اتهام الدولة العميقة والميديا بالمبالغة في تهويل ظاهرة الوباء وابتداع الأزمات.

وأخيرًا، فإنّ الشعبوية كما عهدناها نزعة محافظة تميل، بحكم تعلّقها بقيم الماضي، إلى الحمائية، ولكنها قدمت نفسها هذه المرة كمضادة للحمائية ومتحدية لقيود الحالة الاستثنائية.

في مقابل «الشعبوية»، كخطاب ثقافي تكيفي، كان هنالك خطاب تكيفي آخر أخذ بمنطق «الواقعية النقدية»، والذي أفرزه سلوك مختلف تمامًا بين مضامير اجتماعية تربط بين الجائحة والإنتاج الاجتماعي للجسد، وهي تمثل شرائح اجتماعية واسعة التأثير بعثت برسائلها التواصلية في الاتجاه الصاعد، مستنكرة عجز الدولة عن تبني استراتيجية فاعلة في حوكمة الحالة الاستثنائية، ومتوجهة بالإدانة إلى نهج الليبرالية الجديدة التي تعرّت أمام النقص الواضح في نظام المناعة الاجتماعية، مطالبة بأن تكون الخدمات الصحية والتعليمية أحقيات اجتماعية متاحة للجميع، وداعية إلى العودة إلى نموذج دولة الرعاية الاجتماعية وإلى تبني الديمقراطية التشاركية.

يمثل جيل الألفية الثالثة، كما لاحظنا، طليعة تلك الشرائح الاجتماعية، وهو جيل سياسي، خبرته المعيشة ورؤيته للعالم تميزه بشكل حاد عن الأجيال السابقة، وله تصور مغاير لجسد وحضور بايو-ثقافي مختلف. مألوفهم المستبطن مشبع بالقيم الكونية، يرفض علاقات القوة الرأسية ومظاهر الإجحاف الاجتماعي، نتيجة لتنشئته من خلال العلاقات الأفقية التي تنمي عنده حس المساواة في الحقوق. جيل يشكك في المنظومات السياسية القائمة وهرميات السلطة. لديه القدرة على التفكير

النقدي الحر والإبداعي ومفتوح على التكيف والتغير. جيل ينتمي إلى حقبة ما بعد التمييز العنصري، ولكن رأيناه مدافعًا شرسًا ضد تلك المظاهر، ولا يستطيع أن يفهم لماذا كل هذا الإصرار على أن يكون للحداثة ومفهومها «اللون الأبيض» وللحياة «اللون الأبيض» والموت لمن هو ليس كذلك.

تلك القوة الناعمة الجديدة، في نظرنا، سيكون لها بالغ التأثير التواصلي في الأنساق الاجتماعية للسنوات والعقود القادمة: في اتجاه المستوى البنيوي/ مستوى القوة الصلبة، وفي اتجاه مستوى الفاعل الاجتماعي/ مستوى المستخدم، ومن ثم إنتاج نمط مغاير للسياسة في علاقتها بالحياة وللسلطة في علاقتها بالحياة في اتجاه الفردانية الأفقية.

مزايا نموذج الفردانية الأفقية في إدارة الجائحة الاستثنائية، وجدناها واضحة في تجارب البلدان الإسكندنافية (السويد بالذات)، والتي كانت بمنزلة تعبير عن «العقلانية السياسية في دولة الرعاية الاجتماعية».

في إطار دينامية القوة في ذلك المجتمع، لم تلجأ الدولة إلى الحجر الصحي أو تعطيل الاقتصاد أو غلق المدارس. كان النقاش: هل نحن أمام «مناعة القطيع» أم «إنسانوية القطيع»؟ كيف يمكن وضع استراتيجية لمواجهة الجائحة وتقرير شكل الحالة الاستثنائية «من أسفل إلى أعلى»؟ وكيف يمكن مأسسة إدارة المخاطر في مثل هذه الحالة وفي إطار الهوية الوطنية الجامعة؟

عمليًا، أصبحت حوكمة الجسد من مسؤولية الأفراد والجماعات الاجتماعية، دون وضع سلطة الدولة ومركزيتها في الضبط الاجتماعي محل تساؤل. وهذا يفتح لنا مجالاً آخر لمناقشته في إطار سوسيولوجيا الجسد، وفي إطار هذا الترابط المتفرد بين السياسة في علاقتها بالحياة Biopolitics، وبين الحياة ذاتها، كسياسة، والتي تحيل إلى كنه الحياة Ethopolitics، وكيف للحياة أن تعاش كإنتاج اجتماعي؟

في إطار العلاقة بين الفاعل الاجتماعي والبنية الاجتماعية نتساءل، كيف يمكن للغايات والنهايات للذوات المستقلة أن تتواصل، من خلال الممارسة، لإنشاء رصيد من الثقافة المؤسسية، أفقيًا، على مستوى التشبيك الاجتماعي، ورأسيًا، من خلال العلاقة مع الدولة؟ كيف يمكن فهم «الحرية الفردية»؟ فهي لا تشكل قيمة، في حد ذاتها، أو أيديولوجيا، بل أرضية لتأسيس القيم. كيف تقترن الحرية كمعطى حقوقي وعقدي بحالة «التحرر الداخلي» الذي يؤسس للنفس الاجتماعية، ويوصل إلى القناعة بأن «تحقيق الذات»، و«الأحقيات في الحياة»، هي مسؤولية تشاركية: اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا؟

كل ذلك بطبيعة الحال يرتبط أساسًا بالمألوف المستبطن: الطبيعة الأخلاقية، المشاعر، المعتقدات والقواعد والأحكام الموجهة لسلوك الأفراد والمؤسسات، فهي من يوفر الوسيط، الذي في إطاره، يمكن أن ترتبط الذات المستقلة المتحكمة في قرارها ببنية حوكمة الدولة. كما تقرر كيف تصبح مسؤولية تجنب المخاطر مسؤولية فردية يعززها فائض قيمة مجتمعية عال ورصيد لنظام المناعة الاجتماعية توفره الدولة للجميع، وسلطة علمية تحدد موجبات تجنب الوباء.

References المراجع

Adams, Glenn. "The Cultural Grounding of Personal Relationship: Enemyship in North American and West African Worlds." *Journal of Personality and Social Psychology*. vol. 88, no. 6 (June 2005).

Bachelard, Gaston. *La formation de l'esprit scientifique.* Paris: Librairie philosophique J. Vrin, 1993.

Benton, Ted. "Biology and Social Sciences: Why the Return of the Repressed Should be Given (Causious) Welcome." *Sociology*. vol. 25, no. 1 (February 1991).

Berger, Peter L. & Thomas Luckmann. *The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge.* London: Penguin Books, 1967 [1966].

Bogg, Jan & Robert Geyer (eds.). *Complexity, Science and Society.* London: Routledge, 2007.

Bourdieu, Pierre. *Practical Reason: On the Theory of Action.* Cambridge: Polity, 1998.

Brekhus, Wayne H. & Gabe Ignatow (eds.). *The Oxford Handbook of Cognitive Sociology.* New York: Oxford University Press, 2019.

Capra, Fritjof & Pier Luigi Luisi. *The System View of Life: A Unifying Vision.* Cambridge: Cambridge University Press, 2014.

French, David et al. (eds.). *Health Psychology.* 2nd ed. Hoboken, NJ: Wiley–Blackwell, 2010.

Garfield, Jay. "Beyond Catastrophe." IAI News. no. 87. at: https://bit.ly/3lZL1FT

Geertz, Clifford. *The Interpretation of Cultures*. Robert Darnton (Fore.). 3rd ed. New York: Basic Books, 2017.

Lizardo, Omar. "Improving Cultural Analysis: Considering Personal Culture in its Declarative and Nondeclarative Modes." *American Sociological Review*. vol. 82, no. 1 (February 2017).

Mauss, Marcel. "Techniques of the Body." *Economy and Society*. vol. 2, no. 1 (1973).

Meloni, Maurizio. "How Biology Became Social, and What it Means for Social Theory." *The Sociological Review*. vol. 62, no. 3 (August 2014).

Oyserman, Daphna & Spike W.S. Lee. "Does Culture Influence What and How We Think? Effects of Priming Individualism and Collectivism." *Psychological Bulletin*. vol. 134, no. 2 (March 2008).

Panter–Brick, Catherine & Carol M. Worthman (eds.). *Hormones, Health and Behavior: A Socio–Ecological and Lifespan Perspectives.* Cambridge: Cambridge University Press, 1999.

Parsons, Talcott. *The Social System.* London: Routledge and Kegan Paul, 1951.

Reay, Diane. "'It's All Becoming a Habitus': Beyond the Habitual Use of Habitus in Educational Research." *British Journal of Sociology of Education*. vol. 25, no. 4 (September 2004).

Schaller, Mark. "The Behavioral Immune System and the Psychology of Human Sociality." *Philosophical Transactions of the Royal Society B: Biological Sciences*. vol. 366, no. 1583 (December 2011).

Scott, John & Gordon Marshall (eds.). A *Dictionary of Sociology*. 3rd ed, revised. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Shilling, Chris. "Sociology and the Body: Classical Traditions and New Agendas." *The Sociological Review*. vol. 55, no. 1–sup (May 2007).

Singer, Wolf. "Understanding the Brain: How Can Our Intuition Fail so Fundamentally When it Comes to Studying the Organ to Which it Owes Its Existence?". *EMBO Reports*. no. 8. sup. 1 (July 2007).

Spicer, John, Andrew Trlin & Jo Ann Walton (eds.). *Social Dimensions of Health and Disease: New Zealand Perspectives.* Palmerston North: Dunmore Press 1994.

Taleb, Nassim Nicholas. *The Black Swan: The Impact of the Highly Improbable.* New York: Penguin Books, 2008 [2007].

Triandis, Harry C. *Individualism and Collectivism.* New York/ London. Routledge, 1995.

Turner, Jonathan H. "Academic Journals and Sociology's Big Divide: A Modest but Radical Proposal." *The American Sociologist*. vol. 47, no. 2–3 (September 2016).

Turner, Jonathan H. Russell K. Schutt & Matcheri S. Keshavan. "Biology and American Sociology, Part II: Developing a Unique Evolutionary Sociology." *The American Sociologist*. vol. 51, no. 4 (December 2020).

Whiten, Andrew et al. "The Extension of Biology Through Culture." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America*. vol. 114, no. 30 (July 2017).

صدر حديثًا



مارفن هاريس

ترجمة: أحمد م. أحمد

التحريم والتقديس
نشوء الثقافات والدول

هذا الكتاب محاولة لتفسير الأنواع اللامتناهية من السلوك الثقافي، التي تبدو محيرة من أول وهلة، وكيف تتبنى الثقافات أشكالها المميزة، على أنها تكيفات مع ظروف بيئية معينة وتغير أنماطها.

يقدم الكتاب دليلًا على أن تطور الزراعة لم يتسبب في زيادة عدد السكان، فيرى أن الزراعة ابتُكرت لمواجهة نقص الغذاء الناتج عن قتل الثدييات المحلية الكبيرة، خاصة في الشرق الأوسط والصين والأميركتين. كما يرى أن الضغط السكاني على الموارد البيئية هو أحد الديناميكيات الأساسية في تطور الحضارة، ويتتبع أصول المحرمات الغذائية والحرب والتضحية البشرية وأكل لحوم البشر؛ فضلًا عن أن الدول الصناعية الحديثة فشلت في تخفيف هذا الضغط، وغالبًا ما تبدد مواردها الهائلة بشكل غير فعال، الأمر الذي سيكون له تداعيات وخيمة على مستقبل كوكب الأرض.

فرانسيس أ. بير* وروبرت هاريمان** |
Francis A. Beer & Robert Hariman

جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) وإبستيمولوجيا الكوارث التجميع والتصميم والاحتراز

Covid-19 and Catastrophic Epistemology Assemblage, Design, Prudence

ملخص: أحدث فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) خللًا في العالم بأسره. وتشكّل المعرفة «المعتمدة» (أي المُتّفق على صحتها) جزءًا من العالم الذي شهد هذا الاضطراب؛ إذ تتحدى هذه الجائحة الحداثة التي لم يعُد في وسعها الاكتفاء بإدارة المخاطر وإنكار مسؤوليتها عن الكوارث الحالية والوشيكة. وتسعى إبستيمولوجيا الكوارث للتعلم من كارثة كانت المعرفة نفسها إحدى ضحاياها. وتُعدّ العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب والعلوم الاجتماعية والإدارة الحكومية جزءًا من نُظم تفكير تدرّجية غير مترابطة، لا تقدّم إلّا إجابات جزئية ومؤقتة عن الأسئلة المطروحة حاليًا. لذلك، تقترح هذه الدراسة نقطة انطلاق مؤقتة نحو إعادة ترتيب العلاقات بينها، تشمل عملية استكمال العلوم العادية (المعتمدة)، من خلال بحث موجّه نحو «التصميم» و«الاحتراز».

كلمات مفتاحية: الجائحة، إبستيمولوجيا، معرفة، تكنولوجيا، مجتمع.

Abstract: COVID–19 has disrupted the world, and the epistemology of normal science is part of the world that has been disrupted. The pandemic challenges modernity no longer to settle for risk management while it denies culpability in current and pending catastrophes. Catastrophic epistemology attempts to learn from a disaster in which knowledge itself is one of the casualties. The STEM sciences, social sciences, humanities, and public administration are part of a system of disjointed incrementalism that provides only partial and provisional answers to the questions that now face us. We offer one very provisional point of departure, which includes supplementing normal science with inquiry oriented toward Design and Prudence.

Keywords: Pandemic, Epistemology, Knowledge, Technology, Society.

* أستاذ فخري في العلوم السياسية، جامعة كولورادو، بودلر، الولايات المتحدة الأمريكية.
Professor Emeritus, Political Science, University of Colorado, Boulder, USA.

** أستاذ في قسم دراسات التواصل، جامعة نورثوسترن، إلينوي، الولايات المتحدة الأمريكية.
Professor, Communication Studies Department, Northwestern University, Illinois, USA.

مقدمة

تحطّم الكوارثُ الأعرافَ، وتعجز القناعات والعادات التي تعرّف العالم العادي المسلّم به عن توفير الحماية أو الوعد باستعادة ذلك العالم نفسه. وتُصبح الأسبابُ مسوّغات، ويفقد الناس العاديون الثقة بالمؤسسات. أما السلطات، فإما أن تنطق بكلمات جوفاء، وإما أن تتحدث في الفراغ. قد يكون هذا الوضع سمةً مميزةً للقرن الحادي والعشرين، وهو ما يوفر فرصة محتملة لإعادة تعريف المعرفة والمجتمع لحساب عالم أفضل.

تبيّن جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) الضرر الواقع في العالم والفرص غير المستغلة بعدُ للتدخل، حيث تحوّل المرض إلى كارثة كشفت عن الكوارث الأبطأ والأعمق في المجتمعات الحديثة المتأخرة، وهي تشمل التفاوت في الثروات، والعنصرية المنظمة، والخلل السياسي، وعدم الاستقرار البيولوجي، والاحترار العالمي، وكوارث كثيرة غيرها، إضافة إلى كارثة إضافية تكمن في عدم التعلّم، ومن ثم الافتقار إلى الجاهزية من أجل مواجهة الأزمات؛ أي التخلّف عن الانخراط في التعلّم الكثيف الذي يُفضي إلى إعادة التنظيم، والاكتفاء - عوضًا عن ذلك - بتكيّفات تكتيكية في إدارة المخاطر.

تميط كارثة ناجمة عن الوباء اللثام عن أزمة إبستيمولوجية بالحجم نفسه. وأطلقنا على المشكلة الثانية هذه اسم «إبستيمولوجيا الكوارث»؛ أي ضرورة التعلّم من كارثة تشكّل المعرفة نفسها إحدى ضحاياها[1]. وتعرض هذه الدراسة لخصائص إبستيمولوجيا الكوارث، وتقترح سُبل تسخيرها من أجل التحفيز على زيادة التمعّن في مسألة تنظيم العلوم. ونُدرِج تحت كلمة «علوم» جميع فروع إنتاج المعرفة، مثل الفنون وفنون التصميم والعلوم الإنسانية، وغيرها، مع تركيز خاص على ما يُسمّى العلوم الطبيعية والاجتماعية. وإحدى نتائج مقترحنا البحثي في هذه الدراسة هي ضرورة إعادة النظر في هذه العلوم والمصطلحات المرتبطة بها (ومنها «الطبيعة»)، وفي الوقت نفسه ضرورة دراسة الروابط اللازمة بينها للتصرف بحكمة في البيئات المعقدة الدينامية التي تُحدّد الحياة الإنسانية في حقبة الأنثروبوسين Anthropocene[2].

أماطت كارثة فيروس كورونا، أيضًا، اللثام عن صعوبات عديدة؛ أوّلها أنها بعد أن أثارت الممارسات الفعلية لإنتاج المعرفة اهتمام الجمهور، كشفت عن فجوات لا يُستهان بها بين النواتج المثالية والفعلية، وإكراهات القياسات الزمنية العلمية والحاجات الاجتماعية الفورية. فعالم مسلّم به، تصل فيه لقاحات الإنفلونزا في الموعد المحدّد في كل خريف، مثلاً، يُخلي مكانه لعالم يعجز عن التعامل مع التهديدات الجديدة إلّا بعد فوات الأوان بالنسبة إلى كثيرين. وهكذا، تفشّت لدى الجمهور نظرة محدودة إلى العلوم، تستند في حكمها إلى ما حدث من تدهور للتوصيف والشرح والتنبؤ والسيطرة. وعوضًا عن نظرة إلى الحداثة باعتبارها توفر حماية وازدهارًا أكبر عن طريق تسخير العلوم والتكنولوجيا، نجد

(1) Francis A. Beer & Robert Hariman, "Learning from the Pandemic: Catastrophic Epistemology," *Social Epistemology Review and Reply Collective*, vol. 9, no. 5 (2020), pp. 19–28.

(2) الأنثروبوسين، هي حقبة مقترحة يعود تاريخها إلى بداية التأثير البشري الكبير في جيولوجيا الأرض والنظم الإيكولوجية، بما في ذلك، على سبيل المثال غير المحدود، تغير المناخ الذي تسبّب به البشر.

أنفسنا نسبح، أو ربما نغرق، في بحر من الخطابات. وبدلاً من تأكيد ضمني لقدرة الإنسان على إتقان التعامل مع انتظام الطبيعة، بات المجتمع أشبه بسفينة مثقوبة تجنح إلى أفق مظلم.

يُميط هذا الحدس اللثام عن معضلة أخرى؛ فأوجه النقص في المعرفة، ملازمة لنظام إنتاجها، ولا يتعلق الأمر بمجرد حوادث يستبعد تكرارها. فالجدران السميكة الشاهقة التي تفصل بين الثقافة والطبيعة هي من الأسباب التي أتاحت تحقيق تقدّم مذهل في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب. وتعتمد المرجعية العلمية في هذا المجال على الاستقلال الذاتي العلمي الذي يُعدّ بالتأكيد من أهم عناصر إدارتها المذهلة للإنجازات، لكن ذلك أدّى في الوقت نفسه إلى اختلالات حتمية في الإعداد والتطبيق، وقد يعرقل إعادة التوجّه نحو مشاريع تصميم علمية أكثر شمولية وإنصافًا واستدامة. ومن جانب آخر، لا ترى العلومُ الإنسانية الطبيعةَ، عادة، إلّا بوصفها خلفية، كما ترى الأصناف غير البشرية بمنزلة ظروف أو قوى خارجية، بدلاً من أن تراها عوامل فاعلة ضمن أنماط متعدّدة الأنواع من المنافسة والتعاون[3].

في الوقت الحالي للكارثة، يبدو أي تقسيم إضافي للعمل مُربكًا بوجه خاص. ففي خضمّ العاصفة، تسعى القوى المؤسسية الفاعلة لاستعادة السلطة وحماية التمويل أو الصمود، في حين يصبح الوضع المرجّح هو تقسيم العمل بين إدارة المخاطر من جهة، والنقد الاجتماعي الذي يستهدفها من جهة أخرى، بين حوكمة (أسلوب حكم) مضبوطة بدقة أعلى، وانكشافاتها على مستوى الإهمال والتكاليف المستترة والوعود التي نكثت بها. وبالفعل، وثّقت دراسة أُجريت مؤخرًا، كيف أنه جرى، على نحو متعسف، إدراج حتى التصوّرات المروّعة عن الكوارث، مثل الاحترار العالمي، في مجال إدارة المخاطر[4]. وإذا كان صحيحًا أن كشف تلك الحقيقة لا يُغيّر كثيرًا في حد ذاته، فإنه أمرٌ مفيد للاستنارة.

باختصار، كشفت كارثة فيروس كورونا، شئنا أم أبينا، بوضوح صارخ، عن هشاشة الحداثة، لكن أحد الدروس المهمة التي يجب استخلاصها من ذلك هو اعتبار تنظيم المعرفة جزءًا من المشكلة. فحينما تعمل الممارسات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية باستمرار على تهجين المورثات في ما بين الأنواع على المستوى العالمي، لا بد من معرفة أنه لا يمكن الفصل بين الثقافة والطبيعة من الناحية العملية. ويتعذّر فصل العلوم عن السياسات عندما تنتج السياسات الحديثة دولاً تُجيز المراقبة الجماعية والتفكير السحري الغيبي في آنٍ واحد. وعلى الرغم من المحاولات السابقة التي أجرتها قوى فاعلة؛ مثل القديس توما الأكويني Thomas Aquinas (1225–1274)، أو الموسوعيين الفرنسيين الطموحين، فإنه لا يوجد حتى الآن نظام معرفي مندمج، فضلاً عن نظام معرفي وسياسي مندمج، أو نظام معرفي إيكولوجي سياسي للتعامل مع الوقائع المعقّدة التي تواجهنا حاليًا. وعوضًا عن ذلك،

(3) Francis A. Beer & Robert Hariman, "Nature Plays Last: Realism, Post–Realism, Post–Pandemic," *E–International Relations*, 7/6/2020, accessed on 1/3/2021, at: https://bit.ly/3021tew

(4) Chris Methmann & Delf Rothe, "Politics for the Day after Tomorrow: The Logic of Apocalypse in Global Climate Politics," *Security Dialogue*, vol. 43, no. 4 (2012), pp. 323–344.

توجد اهتمامات وهويات وإبستيمات (أو وحدات معرفية Epistemes) متعدّدة قصيرة النظر، يتجاهل بعضها، أو يتفاعل، ويتشارك، ويتعاون في ما بينها بشكل متنوّع في مختلف الأوقات والأماكن من دون اندماج. ولا يمكن أن ينحصر الخيار بين تكنوقراطية أوتوقراطية أحادية الثقافة من جهة، وديمقراطية متعدّدة الثقافات من جهة أخرى، فهذه الثنائيات جزء من التداعي الحالي.

نحن لا نزعم امتلاك إجابات عن المسائل التي تطرحها إبستيمولوجيا الكوارث، لكننا نؤيّد التفكير في ذلك بجرأة. ولذلك، نقدم في ما يلي لمحة موجزة عن المآزق الحالية التي برزت في العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب والعلوم الاجتماعية، ونقدّم بضع اقتراحات لإعادة النظر في الشكل البحثي المحتمل، في قرن أصبحت فيه الكارثة الوضع العادي الجديد للحداثة[5].

أولًا: المعرفة

نظرًا إلى الوضع الحالي، يمكن أن نعتبر دور العلوم الصحية في أزمة جائحة فيروس كورونا مبدعًا. أولًا وقبل كل شيء، كان تحرك المهنيين في العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب كبيرًا على كل المستويات، فقد كثّفوا إنتاج المعرفة، وعزّزوا تطبيقها في ظل تلك الظروف تحديدًا؛ أي الظروف التي تزيد التعلّمَ واستخلاص الدروس صعوبةً. ومن هذه الظروف، مثلًا، إغلاق المختبرات، وتحمّل المرافق الطبية أكثر من طاقاتها. وأبدى هؤلاء المهنيون، أيضًا، استبسالًا شخصيًا وتكيّفًا مؤسسيًا وابتكارًا متواصلًا، مع انخراطهم في الوقت نفسه في تعاون عالمي، بمستويات غير مسبوقة. وبالمثل، جرى التحقق من صحة نظريات الأبحاث الأساسية ومناهجها وتقنياتها وممارساتها؛ من التحليل المورثي، إلى تحليل البنى الضخمة، وتصدّت فروع العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب بطريقتها الخاصة للمشكلة الطبية الخطرة والطارئة.

إضافة إلى ذلك، أدركنا أيضًا الفرق بين زمن الأبحاث وزمن الجائحة، ذلك أنّ تطوير لقاح خلال عام إذا كان يُعدّ إنجازًا غير مسبوق، فإنه – مع ذلك – لا يرقى تمامًا إلى حجم الخسائر الطبية والاقتصادية. وبصورة أكثر شمولًا، تبيّن أن العلوم في حد ذاتها خليط من مؤسسات أبحاث ومصادر تمويل وأنظمة ولوائح بيروقراطية وعمليات تجارية وتعقيدات أخرى. وكما اقترحنا في موضع آخر[6]، تبقى علاقة العلوم الصحية بالجائحة بعيدة، نوعًا ما، عن مثال المعرفة العلمية الصارمة المستنتجة بدقة والمحدّدة علميًا والمدعمة بالدلائل. وعلى الرغم من تقدم المعرفة العلمية الصحية عن الفيروس، فإنها لا تزال ناقصة؛ إذ قد تنتج شركات الأدوية الكبرى في نهاية المطاف علاجات ولقاحات، لكن الفيروس يمكن أن يتحوّر. كما بدأت الجائحات التالية تُطلّ برأسها، وبدأت تكثر الأسئلة بشأن الاختبار والمناعة ومخاطر تجدد العدوى والعوامل البيئية (مثل ارتفاع درجات الحرارة العالمية).

(5) Robert Hariman, "Introduction," in: Robert Hariman & Ralph Cintron (eds.), *Culture, Catastrophe, and Rhetoric: The Texture of Political Action* (New York: Berghahn, 2015).

(6) Beer & Hariman, "Learning from the Pandemic."

ثمة قصور جوهري حاليًا في الوظائف العلمية الأساسية للتوصيف، والشرح، والتنبؤ، والسيطرة. وعلى الرغم من أن التوصيف العلمي للمرض يتقدم، فإنه لا يزال غير ملائم إلى حدٍّ بعيد. ويعود بعض هذا الأمر إلى القمع والتعتيم السياسي المتعمّد، في حين يعود بعضه الآخر إلى مشكلة كبيرة تتمثل في البنى. وتتفاوت تقديرات الأمراض والوفيات تفاوتًا كبيرًا بين المناطق والدول والحدود المحلية وضمنها. وعلاوة على ذلك، تسير عملية فهم آثار فيروس كورونا في مختلف الوظائف الجسدية ببطء. ففي البداية، كان يُعتقد أن العدوى حدثٌ رئوي، وأنّ آثارها المباشرة الأكثر تعقيدًا في أجزاء أخرى من الجسم لم تتضح إلّا بمرور الزمن؛ ومن ثم بدأت تظهر آثار جانبية في نظام المناعة ونظام الأوعية الدموية وغيرها من الأنظمة. وكانت المعرفة بديناميات انتشار المرض ناقصة، وازداد مستواها المتواضع اتضاحًا بمرور الوقت.

كان الشرح الصحي العلمي للمرض أيضًا، والتنبؤ به، غير ملائمين البتة. ويعني القصور في التوصيف، المبيّن آنفًا، قصورًا مماثلًا في معرفة الأسباب والآثار. وإذا كانت البنى ناقصة، فمن الصعب الربط بين المتغيرات. لقد قَدّمت مجموعة من النماذج الوبائية، القائمة على فرضيات مختلفة ومصادر بنى منوعة، تنبؤات متفاوتة عن تقدّم المرض، في حين لا تزال العديد من الظواهر، مثل العلاقات بين المصدر والهدف الذي هو مناعة القطيع، غير مفهومة تمامًا. ولا تزال قيود الوقت والموارد تحول دون تلبية هذه النماذج لمتطلّبات اختبارات الموثوقية القوية. وبقيت جوانب كثيرة مجهولة بسبب القرارات الاستراتيجية التي اتخذت بشأن التمويل ووجهات برامج الأبحاث، ولا تزال المسارات البديلة قاصرةً عن تأمين مستويات مرتفعة من الثقة. وقد يتخيل المرء ما كان يمكن أن يفضي إليه تحويل الاستثمارات الضخمة في أبحاث السرطان إلى الأمراض المعدية، فضلًا عن أن فرص القضاء على مرض السرطان لم تتقدم أكثر مما كانت عليه منذ نصف قرن.

علاوة على ذلك، ثمّة ما يدعو إلى الاعتقاد أن العلاقات بين المتغيرات الرئيسة في أي عملية تفسير سببية صارت غير خطية؛ بمعنى أنها غير حتمية النتائج، ومتناقضة أيضًا. فعلى النقيض من معايير إمكان التكرار العادية، حيث يتنبأ الأداء السابق بالنتائج المستقبلية، أظهرت الجائحة الحالية جدّةً على نحو يتخطّى مجرد المدلول البيولوجي الاسمي البسيط للظاهرة. وظهر فيروس كورونا فجأة، واجتاح عمليًا، عن طريق عجائب تكنولوجيا التنقل الحديثة، العالمَ البشري بأسره في غضون أشهر قليلة فقط. وقد يبدو هذا حدثًا متكرّرًا؛ أي إنه يُمثّل صدمة بيولوجية من خارج النظام البشري تتكرّر بصورة طبيعية، غير أن الظاهرة ليست عادية؛ لا في الوقت، ولا في المكان. ولا يمكننا أن نشرح زمن حدوثها أو مكانه أو نتنبأ بهما، أو معرفة إنْ كانت مثل هذه الصدمات ستحدث في المستقبل. وفضلًا عن ذلك، يوجد تطبيع مثل هذه الحالة الشاذة، وهو وضعٌ ذو دلالات متناقضة، ذلك أنه إذا كان الشاذ طبيعيًا، فهل يصبح الطبيعي شاذًّا؟ ماذا يصبح معنى التوصيف والتنبؤ في وضع كهذا؟ تبدو شعارات من قبيل «المجهولات المجهولة» و«توقع غير المتوقع» خادعةً، وفي حين يمكنها أن تشكّل نصيحة جيدة، فإنها تبدو نوعًا ما متجاوزة للحدود المألوفة للعلوم العادية.

أخيرًا، يبدو أن السيطرة الصحية العلمية على فيروس كورونا بعيدة المنال حاليًا. وهي بالتأكيد ليست حقيقة راهنة، ولا حتى طُموحًا يمكن تحقيقه. إنها تبدو تمامًا بعيدة المنال مثلما هي حال توافر لقاح فعّال لجميع سكان الكرة الأرضية، وستتزايد الحالات والوفيات بسبب هذه الجائحة حتى تتوقّف. لكن ماذا عن الجائحة التالية؟ أين ستظهر؟ ومتى؟ ولماذا؟ وكيف؟ إنّ سماءنا مليئة بالبجعات السوداء (مخاطر ذات طبيعة كارثية ووقع طاغٍ) التي تتحدى قابلية التنبؤ الإحصائية، وكما قال شكسبير في سياق آخر «لا تأتي المصائب فرادى كالجواسيس، بل سرايا كالجيش».

لا يزال فيروس كورونا «وحشًا» ضاريًا بوجه خاص؛ إذ تسبّب بأزمتين مزدوجتين؛ وبائية، وإبستيمولوجية. ومع تفشي الجائحة بين سكان العالم، انكشف القصور الحادّ الذي تعانيه طرائق المعرفة القياسية المتأصلة في ما يسمى العلوم الدقيقة. وبقدر ما يحقق التعامل مع المرض، باعتباره ظاهرة بيولوجية كليًّا، مكاسب كثيرة، فإنه يُفضي أيضًا إلى خسائر فادحة. وعلى الرغم من تعذّر التنبؤ بالمرض، فإنه يُعَدُّ نتاجًا مؤكدًا للتمركز الحضري، ولشبكات النقل الكثيفة، ولإنتاج الغذاء الصناعي لاقتصادات الخدمات، ولأيديولوجيات المخاطر المعنوية وصيغها القانونية، ولعوامل أخرى تحدّد الملامح الأخيرة للمجتمعات الحديثة. وإذا كانت قدرة الفيروس التالي على الفتك محدودةً، على غرار فيروس كورونا، فقد يرى المرء هذه المشكلات باعتبارها دروسًا لفترة أكثر استقرارًا بعد تجاوز الأزمة الحالية. لكن من المؤكد أن المنهجية الحالية ستخفق إخفاقًا ذريعًا في حال كون الفيروس التالي أشد فتكًا. وفي هذه الحالة، لن يكون أي قدر من إدارة المخاطر كافيًا.

إن علوم الصحة و«شقيقاتها» من العلوم الصحيحة Hard sciences مهمةٌ، لكنها مجرد مجموعات إبستيمية مرتبطة بالجائحة. ووفقًا لما ذُكر آنفًا، تعرف العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب الكثير وتتكيّف ببراعة، ولكنّ ذلك لا يكون إلّا ضمن حدودها الإبستيمولوجية والمؤسسية فحسب. وتعمل البيولوجيا والتكنولوجيا الحيوية وعلم الأوبئة والطب، وما يشبهها، في نطاق الإجراءات المنظمة لما يجب أن نسمّيه علمًا عاديًّا Normal science، وتنتج الإجراءات التجريبية القياسية نتائج صالحة في نطاق هذه السياقات التي تتسم بالتنظيم المحكم. لكن الشكل وحده غير كافٍ لدفع عجلة الاستجابات الوظيفية المطلوبة في جميع مجالات التنظيم الاجتماعي الأخرى.

تأتي العلوم السلوكية بعد العلوم الصحية. ولا يزال الطريق طويلاً أمام المعرفة العلمية الأوسع عن أصول الجائحات وآثارها، وينطبق ذلك على تفسير السُّبل الفعّالة لجعل السكان يمتثلون لمُكرهات الحماية من الجائحة، من دون خسارة الالتزامات الجوهرية بحقوق الإنسان الفردية، وتقرير المصير السياسي، والرفاه الاجتماعي، والحرية، والمساواة، وقيم أخرى تميز المجتمعات الحديثة. وبطبيعة الحال، نعرف بعض الوقائع الواضحة التي توفر ما يشبه تمرينًا في الهندسة العكسية. وقد شكّل فيروس كورونا تجربة طبيعية، أظهرت بنفسها أسباب نشوئها. ومن ناحية أخرى، تعرّضت العولمة، التي كانت أساسًا في محنة ما بعد الانتخابات الأميركية والبريطانية، لمزيد من الأضرار، كما أبطأت الجائحة حركة البضائع والناس بعد أن علت الجدران ومختلف العوائق الأخرى بينهم. وكشف التفاوت الاجتماعي الاقتصادي عن وجهه القبيح بعد أن بات الأكثر هشاشة من الناس يعيشون في

مناطق أشد اكتظاظًا، أو يعانون ضائقة، أو يعملون في مهن تنطوي على احتكاك أكبر بالناس. لكن ما زالت الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية الكاملة لجائحة فيروس كورونا، إما مجهولة وإمّا لا سبيل إلى معرفتها. ولا يزال التوصيف والشرح الكامل والدقيق للجائحة وجميع آثارها والتنبؤ بها والسيطرة عليها من الأمور التي تتجاوز قدراتنا الحالية كثيرًا، إلى درجة أن ذلك قد أصبح شبهَ مستحيل.

باختصار، يُبيّن الرصد العلمي الاجتماعي للجائحة أن تحليل البنى والابتكارات الأخيرة في تصميم الجداول الإحصائية وعرضها يقدّم صورًا بيانية لافتة للانتباه بشأن توزيع آثار الجائحة في البنى الاجتماعية الراسخة. فمن جهة، يستحق الجهد المبذول في متابعة الجائحة عبر التقارير المحيّنة الثناء. ومن جهة أخرى، تؤكد هذه التقارير، مرة أخرى، ما كان معروفًا من قبلُ. بيد أنه إذا كانت المعرفة ذات فائدة، فإنها تُسجّل، على الرغم من علاقتها الوطيدة بعمليات صوغ السياسات، فجوةً بين البنى الإحصائية الواسعة التي تُقدّمها والواقع الذي تصوّره. ولا تكمن هذه الفجوة في البعد عن تصوير الواقع، بل في الفاعلية السياسية. إنّ المعرفة لا تُمثّل سلطةً إلّا عندما يجري تحييدها ضمن جهاز حوكمة أكبر، وإحدى فوائد إبستيمولوجيا الكوارث أنها تطرح أسئلة عن سبب وصول المعرفة بعد فوات الأوان، وعن سبب استمرارنا في تعلم ما نعرفه مسبقًا، وعن سبب عدم كفاية المعرفة من أجل إحداث التغيير.

ثانيًا: التجميع ومشكلاته

تستحق هذه الأسئلة إجابات موسّعة. سنبدأ بتقديم فرضية واحدة كحدّ أدنى. ويجب القول هنا إن أوجه القصور المعرفية والخطابية والسياسية التي أماط الوباء عنها اللثام، ليست في الحقيقة إلّا منتجات ثانوية لعملية التجميع الوظيفي بالنسبة إلى ما توصلت إليه المعرفة من نتائج، بما في ذلك تمايزاتها ومختلف بُناها التصنيفية الهرمية. ويمكن أن نضيف إلى ذلك المقاربة التدرّجية التي تعمل على نحو أفضل في ما يتعلق بالعمليات المنظّمة نسبيًا، وإن لم يكن ذلك كافيًا لمعالجة الأحداث التي تُشوّش بشدة هذه المقاربة، أو التناقضات البنيوية لهذه الأحداث؛ ما يجعلها أسوأ كثيرًا مما قد تكون عليه[7]. كذلك، تُعدّ مشكلات التجميع العلمي، جزءًا من تشوّهات عمليات التجميع الأكبر للحضارات الحديثة.

يُستخدم هنا مصطلح «التجميع» بوصفه مصطلحًا فنيًا يتفاوت معناه بحسب الفنون والفلسفة والنظرية الاجتماعية. وفي الأساس، يشمل هذا المفهوم أي مجموعة، أو شبكة، أو نظام، أو ترتيب آخر، يجري فيه تعديل كيان كل عنصر من خلال علاقاته التفاعلية بالكيانات الأخرى، من دون أن يعني ذلك فقدانه هويته الفردية. ويشكّل التصميم التجميعي أحد الأمثلة؛ سواء أكان بهدف تزيين غرفة،

(7) Bruno Latour, *Reassembling the Social: An Introduction to Actor–Network–Theory*, Clarendon Lectures in Management Studies (Oxford: Oxford University Press, 2007); Ian Lustick, "Explaining the Variable Utility of Disjointed Incrementalism: Four Propositions," *The American Political Science Review*, vol. 74, no. 2 (1980), pp. 342–353.

أم تنظيم برنامج بحثي. ويوجد التجميع نظامًا بيئيًّا آخر أكبر. والأهم من ذلك هو أن التجميع يمكن أن يشمل الأطراف الفاعلة المعنية، البشرية منها وغير البشرية، والمواد المادية والرمزية. والنتيجة الطبيعية البديهية التي تحصل، اعتمادًا على هذه المقاربة، هي أن التفسير الناتج من التجميع يغادر الافتراضات الثنائية (مثل الطبيعة/ الثقافة، الموضوعات/ الأشياء، العلوم/ السياسة)، التي تحدّ من فهم التعقيد، في اتجاه بلورة ممارسات أكثر إبداعًا وحساسية للبحث وللحياة الجماعية. وبالنسبة إلى هدفنا البحثي الحالي، يركّز مفهوم التجميع الانتباهَ على كيفية قيام نظريات المعرفة (الخطابات، والبُنى التحتية، واللوجستيات، والتقنيات، والمكوّنات، والسياقات الأخرى المرتبطة بها) بإرشاد مشروع بحثي كبير وناجح، وكيف أن مثل هذا المشروع قد يصبح بلا جدوى، لأن عناصر أخرى من النظام العالمي تغيّرت.

ثالثًا: المشكلات العلمية

كما ذُكر آنفًا، تعمل العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب بفاعلية ضمن نطاقاتها المحددة بدقة، في حين ترصد فروع العلوم السلوكية كيفية توزّع فوائد الحداثة بصورة غير متكافئة. وتعتمد إمكانية التنبؤ المُثلى على البنى الاجتماعية المستقرة في الحالتين، وتتأثر التفسيرات النمطية التي تقدمها هذه العلوم بالتمييز الراسخ بينها والتفاعل المحدود بين أصنافها. وفي أغلب الأحيان، يسبق البحث التطبيق، أو قد يكون منفصلًا عنه؛ فالهندسة تُعدّ نشاطًا علميًا منفصلًا عن الممارسة، في حين يتطلّب التطوير الصيدلاني تجاربَ تُجرى على مراحل. وقد طُوّرت كل هذه البروتوكولات - ذات التفاعل المحدود بين أصنافها - لأسباب وجيهة تعكس قيمًا أساسية، إلّا أن الجائحة لم تحترم أيًّا من هذه الأسباب. وتكشف الكارثة كيف أن خطر المصيبة كان يكمن دومًا في عملية تشغيل النظام المعتاد.

تشكل العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب والعلوم الاجتماعية والإنسانيات، فضلًا عن الإدارة الحكومية جزءًا من نظام بُنِيَ على المقاس بتدرّج مفكّك لا يُقدّم إلا إجابات جزئية ومؤقتة عن الأسئلة التي تواجهنا حاليًا. وهكذا، تتمثل التوصية الأولى لإبستيمولوجيا الكوارث في ضرورة إعادة تركيب نظام البحث العالمي بغية دراسة المشكلات العلمية والحضارية التي يرجّح أن ترسم ملامح القرن الحادي والعشرين. ونعني بـ«العالمي» أمرين؛ أولهما العلاقات بين جميع التخصّصات الأكاديمية والأنماط الأخرى للبحث والابتكار المعتمدَين والمركّزَين، أمّا ثانيهما فهو العلاقات العابرة للحدود الوطنية والمؤسسية. ويجب أن تشمل إعادة النظر هذه التفكير بشأن الممارسات الداخلية واختبارها؛ ومنها، على سبيل المثال، كيفية تنظيم المختبرات والمكوّنات المحتملة لتعاون المؤلفين ومسائل الملكية الفكرية لمنتديات النشر وغيرها.

إلّا أن ذلك ينطوي على عدة محاذير، ذلك أن فترة التجريب حتى لو أفضت إلى تشكيل جديد فائق النجاح لممارسات المعرفة، فإنّ التجربة لا بدّ من أن تواجه عدة مشكلات؛ منها مشكلات بنيوية عميقة، ومشكلات لوجستية، ومشكلات أخرى من جميع الأنواع. بعضها مشكلات قديمة ستستمرّ في النظام الجديد، في حين أن بعضها الآخر يصنعه النظام نفسه. وعلى أي حال، لن يكون الواقع

أقل عنادًا، ولا يُرجح أن يوافق في كل أبعاده جميع أنماط الذكاء البشري الصغرى. وبصورة مشابهة للمناقشات المألوفة بشأن تحوّلات النموذج الإرشادي Paradigm shifts، بحسب الباحث الأميركي في فلسفة العلوم وتاريخها توماس كون Thomas Kuhn، سيكون الفرق هو أن الأسئلة الأقدم ستُدرج ضمن حيّز مشكلة جديدة تتصدى بصورة أفضل للاهتمامات والتحديات الجديدة، عاكسة عوامل اجتماعية وتكنولوجية مختلفة. وبصورة أكثر تحديدًا، قد تصبح سمات العالم الرئيسة، الغامضة منها أو تلك التي أسيء التعرف إليها حاليًا، أكثر توافرًا بالنسبة إلى الدراسة والتعايش التكيُّفي.

على نحو مشابه، على عملية إعادة التجميع ألّا تتطلّع إلى رؤية فيها تكامل لكل شيء بشكل شامل ومتناغم، أو أن تُثقل كاهلَها بمثل هذا التطلّع. وعلى النقيض من ذلك، تكمن إحدى نقاط قوة العديد من الأنظمة التكيفية المعقدة في لامركزيتها النسبية، أو في ترابطاتها الضعيفة ووظائفها المتعدّدة، ومرونتها المعيارية وعدم اتساقها، أو في تنوعّها على صعيد مهماتها الشاملة. مثل هذه السمات ممكنة من دون الاضطرار إلى التضحية بالقياسات الكبرى، أو خفض تكاليف التفاعلات الداخلية. لكن يبقى سؤالان، في هذا السياق، هما: هل ثمّة ترتيب أمثل، أو حتى ملائم، لبيئة متغيّرة، وهل ثمّة ترتيب مخصوص لهذه المسألة أفضل مما يمكن تصميمه حاليًا؟

أثبت تصدّي العلوم والتكنولوجيا والهندسة والطب للجائحة أنّ التعاون العالمي ممكن إلى حدٍّ لم يكن متوقعًا من قبل. فقد غيّرت المؤسسات وجهتها على الفور بـ «رشاقة»، وارتفعت فجأة عملية تبادل المعلومات، وقدمت البلدان تجاربها الطبيعية بشأن مكانة مؤسساتها العلمية، أكانت قد أخذتها على محمل الجد في سياساتها، أم لم تأخذها على هذا النحو. وبطريقة مشابهة، بيّن المجتمع المدني كيف أنّ الفنانين والمصممين ومقدّمي الخدمات، وغيرهم من أصحاب المهن، يستطيعون ارتجال الحلول بسرعة وابتكارها للوصول إلى العملاء الخاضعين للحجر الصحي، وإيجاد جمهور جديد متفاعل، وإقامة روابط عن طريق الفضاء السيبراني للحفاظ على الثقافة العامة. وفي أماكن كثيرة، حذت الحياة العامة اليومية الحذو نفسه، وأكدت أبحاث علم اجتماع الكوارث تضامن المجتمع ومهارته في السياق الجديد. وعلى الرغم من ذلك، قد تختفي أغلبية هذه المبادرات المرتجلة عندما تعود الحياة إلى سابق عهدها. وهذا أمرٌ جيد بالنسبة إلى من يحتاج، عن وجه حق، إلى الاستقرار في حياته اليومية. أما الأشخاص الذين كرسوا حياتهم للتعلّم لحساب حداثة مستدامة، فلا يمثل الوضع السابق خيارًا جيدًا بالنسبة إليهم.

رابعًا: المشكلات الحضارية

الخلاصة البديهية من خلال هذه الملاحظات، هي أن إعادة التجميع ينبغي ألّا تنبع من مصدر واحد، وألّا تنطلق من قالب وحيد. ففي هذه الدراسة، تنطلق منهجيّتنا من منظور أساسي، ومن عدة قواعد كنّا قد أوضحناها في بحثنا الأوّلي عن إبستيمولوجيا الكوارث(8). ويتمثل هذا المنظور في أن الكوارث

(8) Beer & Hariman, "Learning from the Pandemic."

تكشف فئة أساسية من المشكلات التي تُدرج تحت عنوان المشكلات الحضارية، وتُعدّ هذه المشكلات تداعيات غير مقصودة للسمات المميزة التي يُعرَف بها المجتمع نفسَه. ففي الحداثة، مثلًا، تشمل هذه السمات استخدام العقل للسيطرة على الطبيعة، إلى جانب قيم التنوير الأخرى، مثل الحرية والتطورات التاريخية التي أنتجت الرأسمالية والدولة الأمة وغيرهما. وفي المقابل، تشمل التطورات الحالية تغير المناخ والجائحات ونضوب الموارد وانقراض الأنواع، والتفاوت في توزيع الثروات، والخلل الوظيفي في الديمقراطية، والتشغيل الآلي Automation، والتبعية للفضاء السيبراني، والقائمة غير حصرية، وجميعها ناجم عن انتشار الحداثة في جميع أنحاء العالم. وفي الحقيقة، لكل هذه المميزات أسلاف من عصر ما قبل الحداثة، لكنها اكتسبت حاليًا طاقة كامنة مميزة للتدمير بسبب تطورها وموقعها ضمن الحداثة. ومن ثم، نستخلص أن المجتمعات الحديثة إذا أخفقت في التصدي للتحديات التي تواجهها فلن تكون النتيجة العودة إلى أوضاع ما قبل الحداثة، بل سيتعلق الأمر بحداثة منحرفة. فعلى سبيل المثال، إذا أخفقت الديمقراطية الحديثة – أي إذا لم تُجِد الأنظمة الديمقراطية الحوكمة، أو لم تنجح في التصدي لمكامن ضعفها والوقوف ندًّا لأنظمة سياسيةٍ أخرى منافسة، أو لم تُعزّز المساءلة العامة في جميع المجالات، أو لم تستطع تفادي الكوارث، فسيكون المستقبل الافتراضي Default mode بمنزلة الحكم الاستبدادي الذي يتمتع بتقنيات المراقبة الحيوية الرقمية، وربما بهندسة تحسين النسل في نهاية المطاف.

من بين التداعيات غير المقصودة المحتملة، تبدو تلك التي تُدرج تحت هذا الصنف، مؤذيةً بوجه خاص، لأنه يُمكنها تدمير النظام الذي أنتجها. ولهذا السبب، تعتبر الأحداث الكارثية نوافذَ جيدة، بوجه خاص، نُطلّ منها على المشكلات الحضارية، ذلك أن الكارثة مصيبة تتداخل عناصرها مع عناصر ردات فعل المجتمع خلال تصديه لها، فحادث السيارة، على سبيل المثال، مجرد حادث لا يحول دون تحرك الشرطة والاستجابة الطبيّة، في حين يمثل فيروس هائل يصيب الحاسوب كارثة، لأنه يعرقل – أو يُعطّل – وسائل التصدّي له/ وهو الحاسوب نفسه. وهكذا تكشف الكوارث وضع البنية التحتية، وتُميط اللثام عن هشاشتها.

ولمّا كانت المشكلات الحضارية تنشأ عن الاشتغال العادي للنظام السائد، فإن النظام نفسه يُخفيها أيضًا. ولا يكون هذا الحجب تامًّا؛ إذ يمكن تحديد مثل هذه المشكلات ومناقشتها وإخضاعها لمساعي إدارة المخاطر (المحاولات التي تقدّم شيئًا من التحسين القريب الأمد بالنسبة إلى العوارض). وهذه المشكلات مخفية بمعنيين على الأقل؛ أولهما أنها تصبح مخفّفة في حالة الإنكار؛ أي إنها تُطبّع وتدخل ضمن الروتين الذي يُقلّل من أي جهد يتطلّب إعادة تنظيم النظام. وقد يُسمّى الأنموذج الأكثر تمثيلًا لحالة الإنكار هذه «مقامرة الحداثة»؛ أي اعتقاد إمكان حل المشكلات الناجمة عن نظام حضاري كثيف التكنولوجيا عن طريق مزيد من الابتكار التكنولوجي[9]، أما ثانيهما فيتمثل في أن حلّها رهين بتحديد أسبابها غير الواضحة في الإبستيمية المعتمدة (الوحدة المعرفية)، أو أنها غير قابلة للإصلاح عن طريق الأنماط الخاصّة بالتنظيم الجماعي والحوكمة السائدين. فمن أجل التفادي المستدام للجائحات، على

(9) Robert Hariman & John Louis Lucaites, *No Caption Needed: Iconic Photographs, Public Culture, and Liberal Democracy* (Chicago: University of Chicago Press, 2007), p. 244.

سبيل المثال، يجري تحديد بعض العوامل غير البشرية للتعامل معها بصفتها قوى فاعلة سياسية، وهذا الأمر منافٍ للبداهة في العلوم والسياسات[10]. لذلك، غالبًا ما ينطوي هذا الصنف من المشكلات على تناقضاتٍ عميقة في المجتمع، أو يوجِد في صلبه توترات متكرّرة.

تُعدّ المشكلات الحضارية مشكلات واسعة أيضًا، ولذلك تكون محفوفة بمستويات مرتفعة من الأضرار والمخاطر. ولا ينهار المجتمع من دون تعرّضه لضرر شامل؛ مثل الألم، والمعاناة، والخيانة، والتخلّي، واليأس، والموت. وربما يكون هناك أكثر من فرسان رؤيا يوحنا الأربعة بشأن نهاية العالم[11]. وحتى الحضارة الملتزمة بـ «التدمير المبدع» والتآكل المتواصل للروابط المجتمعية لحساب الحرية والابتكار، ستكتشف أنها لا تستطيع تجنّب الخسارة والمعاناة بالأسلوب القديم. ومع ذلك، قد لا تكون الحلول أقل خطورة. ولا يجري تحديد المشكلات قبل أن تصبح ضخمة جدًّا بالنسبة إلى الحلول المناسبة، أو الحلول العلمية والسياسية المعتادة. ويتعذّر تغيير أمرٍ واحد فيها، فضلاً عن تغيير أمور كثيرة. وينجم هذا الصنف من المشكلات عن التعقيد الاستثنائي في جميع مستويات التنظيم البيولوجي والاجتماعي.

بما أن المشكلات الحضارية تُستدام من خلال العمل العادي للنظام، فمن المستبعد أن توجد بشأنها حلول عن طريق العمل العادي. ولن تؤدي الأوضاع المواتية لتحقيق النجاح، وفق الشروط العادية، إلى تحقيق تقدم أكبر نحو الحل بسهولة، بل إنها قد تكون عاملاً مُعرقلاً. فعلى سبيل المثال، تُعدّ العلوم «المعتمدة» (أي المتفق على صحتها) في تسيير مختبرات الأبحاث المنتجة المعرفة العلمية، التي تنشر الإصدارات التقنية لتطبّقها المؤسسات الصناعية والمنظمات الحكومية، نظامًا وظيفيًا إلى درجة مذهلة، بسبب التقدّم الحضاري، لكن هذه العلوم لا توفر الموارد، فضلاً عن توفير الموارد اللازمة للتوسع، والموارد الضرورية للتصدّي لأي مشكلة من المشكلات المذكورة آنفًا. وبما أن العلوم تنتج فروعًا ثانوية وبرامج أبحاث محدّدة ومكرّسة لمواجهة التهديدات الأخطر، فإنّ هذه المجالات والبرامج تبقى عاجزةً عن توفير عملية إعادة التوجيه المعرفي والمجتمعي اللازمة.

توفّر إبستيمولوجيا الكوارث عدة مبادئ، تتيح اتخاذ الخطوة التالية. وعمومًا، علينا السعي لتفادي إعادة إنتاج الظروف التي أنتجت الكارثة. وعلينا تحديدًا الاعتراف بأوجه القصور البنيوية التي تكشفها الأزمة، وإعادة تشكيل الظروف المعرفية التي أنتجت الكارثة، واستعادة موارد المعرفة المفقودة، والربط بين طرائق معرفية متعدّدة، وتحديد آفاق مستقبلية بديلة، وفعل شيء مختلف[12]. يمكن الإسهاب في توصيف كل شرط من هذه الشروط، أو انتقاده أو إهماله أو تغييره أو تطويره، وإلّا كيف يمكن أن تنجح المحاولة؟ أما الحكمة الأخيرة، وهي نقطة انطلاقنا هنا، فتتمثل في تخيل شيء مختلف في ما يتعلّق بتنظيم المعرفة.

(10) Beer & Hariman, "Nature Plays Last."

(11) فرسان رؤيا يوحنا الأربعة هم أربعة فرسان ذكروا في الأصحاح السادس لسفر رؤيا يوحنا في الإنجيل، وهم فرسان الصراعات والحرب والمجاعة والموت.

(12) Beer & Hariman, "Learning from the Pandemic."

خامسًا: التصميم والاحتراز

تستدعي مواطن الهشاشة في أنظمة المعرفة الحالية تغيّرًا تكيفيًّا جديًّا في عمليات تجميع العلوم والفنون والمجتمع المدني، وفي ممارساتها أيضًا. ونقترح أن يسترشد هذا التغيير بالتركيز على تصميم المعرفة والاحتراز. ويشمل التصميم مصطلحات متجانسة، مثل «الشكل» و«الفن» و«التكنولوجيا»، وما إلى ذلك، مع تثمين نماذج تنظيم محدّدة، مثل النظام والشبكة. أما «الاحتراز» Prudence، فهو المصطلح الإنكليزي المقابل للمصطلح اللاتيني Prudentia (واليوناني Phronêsis) من دون أن يبلغ مستواه في عظمته. ويعني بالإنكليزية «الحكمة العملية» و«الحصافة». ويوفر كلا المفهومين (التصميم والاحتراز) القطعة المفقودة في المنظومة المعرفية الأخيرة المُحَدثة، وما هو أساسي في التصدي للمشكلات الحضارية بصورة ملائمة. وترتبط هذه المشكلات، كما تُعرض حاليًا، ارتباطًا وثيقًا بالتنظيم الراهن للمعرفة وتطبيقاتها. أما السمات الرئيسة للتعامي عن هذه المشكلات، فهي غياب الروابط ذات الصلة بين فروع التخصّصات وممارسات المعرفة الأخرى، وغياب الروابط المناسبة بين إنتاج المعرفة والمجتمع المدني، على نحو يشمل أنظمته السياسية. وفي حين يتصدى مفهوم التصميم للمشكلة الأولى، يواجه مفهوم الاحتراز المشكلة الثانية.

هذان المفهومان فعّالان حاليًا في مواضع مناسبة ضمن الوحدة المعرفية المعاصرة. ويجب القول إن هناك فنونًا وعلومًا للتصميم؛ منها الهندسة المعمارية، والتخطيط الحضري، وعلوم الحاسوب، وغيرها من التخصّصات. وبالمثل، هناك برامج أبحاث في ما يمكن أن نطلق عليه «علم الاجتماع الاحترازي» Phronetic Social Science[13] الذي يسعى لإدارة الشؤون العامة على نطاق واسع، مع تجنّب المشكلات المميزة للإبستيمولوجيا الحداثية المتقدمة[14]. لكن هذه البرامج تعجز حتى الآن عن النهوض بجميع المهمات العلمية. ولهذا، لا شيء من نظامها الحالي مقترح هنا. بيد أن تلك البرامج توفر، على الرغم من ذلك، فرصًا محدّدة يمكن توسيعها أو إدماجها في باقي النظام المعرفي. ومن ثم، يمكن الحصول - من خلال إدماج التخصّصات الأخرى الجديدة والكثيرة ضمن مفهومي التصميم والاحتراز - على المعلومات الإضافية والصلات اللازمة للتصدي للثغرات الحالية في فهم الكوارث التي تنكشف فصولها، مع إيلاء اهتمام خاص بمسألة دمجها في برامج أبحاث محدّدة. وقد يشمل ذلك، أيضًا، تضمين تمفصلات تلك التخصّصات في برامج أبحاث متخصّصة أخرى، مثل أبحاث الكوارث على سبيل المثال.

ينبغي للتصميم ألا يُبطل أي التزام من الالتزامات الحالية المتعلقة بالأبحاث الإمبريقية، وتقنيات التفسير المقتضب، وما إلى ذلك. لكن يمكن أن يدفع في اتجاه بناء التزامات تتعلق بالتركيب الشكلي

(13) علم الاجتماع الاحترازي هو نهج لدراسة الظواهر الاجتماعية بناءً على التفسير المعاصر للمفهوم اليوناني الكلاسيكي Phronesis، الذي تُرجم بـ «أحكام عملية»، أو «حكمة عملية»، أو «إدراك سليم»، أو «احتراز».

(14) Bent Flyvbjerg, *Making Social Science Matter: Why Social Inquiry Fails and how it can Succeed again* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001); Bent Flyvbjerg, "'Regression to the Tail': How to Mitigate COVID–19, The Climate Crisis and other Catastrophes," *Salon*, 5/7/2020; Robert Hariman (ed.), *Prudence: Classical Virtue, Postmodern Practice* (University Park: Penn State University Press, 2003).

للبرامج وتمييزها، وبأنماط التطوير المقصودة وغير المقصودة، وبالتفاعلات البيئية والذاتية المنشأ، وبمظاهر التعقيد الشاملة، وبأهمية القيم الجمالية والاستدامة على جميع المستويات، وبالتمفصلات الواردة في الثنائيات الحداثية، مثل الطبيعة/ الثقافة، والموضوعي/ الذاتي، والعلم/ الفن. ويتطلّب مزيد التطوير إعادةَ النظر في مشاريع علمية متنوعة بقيت هامشية (نظرية الأنظمة العامة والمورفولوجيا، وغيرها)، وإعادةَ تقييم ممارسات التقديم والعرض الحالية في العلوم، حيث يجب ألَّا يُنظر إلى تلك القدرات اللافتة في استخدام الصورة Imaging والمعلوماتية على أنها ثانوية بالنسبة إلى الأبحاث في حد ذاتها[15]. ولا بدّ أيضًا من مضاعفة بعض أكثر المبادرات تقدّمًا في العلوم البيولوجية وعلوم المادة. وسيكون الدافع الأساسي تشجيع تطوير ممارسات التصميم والذكاء الشكلي الذي تتضمنه، وذلك بهدف إنشاء صلات موضوعية بين التخصّصات المعرفية، من شأنها أن تتيح الوصول إلى المعرفة اللازمة التي من دونها سيتحقق الهدف ببطء شديد، أو بصورة جزئية، أو ربما لا يتحقق البتّة.

على غرار «الشكل»، يجب أن يقترن «التصميم» دائمًا بتأكيد أنه لا يُروّج للتمسّك بالشكليات (تجاهل الفعل السياسي)، أو للشمولية المتعالية Transcendental totality (بصفتها تأكيدًا للسيطرة). ويجب ألّا يفرض تطلّعات إلى الوئام الكوني، أو الاقتصار على مجموعة نخبوية مغلقة، كما هو الشأن في **لعبة الكريات الزجاجية**[16]. وسيكون الرهان على تحسين خصائص التصميم من داخل التصميم ذاته متمثّلًا بتعزيز القدرة على إنتاج أنماط تُستكمل وتتكرّر بصورة ذاتية، وتوزيع القوى ضمن البيئات المتنوعة، وزيادة الكفاءة إلى الحد الأقصى وتوليد خصائص ناشئة، وتعزيز الاتصالات. إن البحث الذي يستهدف التصميم قادر على أن يعترف بتعدّد الأشكال وتوافرها في كل مكان في العالم، مع أخذ القيم الجمالية التي توجّه طريقة التفكير العلائقي على محمل الجد؛ مثل التفكير في أوجه التطابق بين مواضيع بحثية متنوعة، وإعادة تحديد بعض مواقع التخصّصات المعرفية بالنسبة إلى بعضها الآخر. فالبيولوجيا والكيمياء متشابكتان بعمق حاليًا، إلّا أننا قد نفوّت فرصًا بتجاهل علوم المعرفة وتاريخ الفن. وإلى جانب البيروقراطية الفيبرية للعلوم التي حافظت عليها الجهات المموّلة، يمكن إيلاء اهتمام أكبر لمنظومة ممارسات المعرفة والعلاقات المعقدة (المتعمّدة منها، وغير المتعمّدة) التي قد تقود إلى دروب جديدة للاستقصاء والبحث، وربما تؤدي إلى نماذج أفضل لتحقيق الاستدامة الحقيقية وتتيح فهمها.

يعمل الاحتراز أيضًا جنبًا إلى جنب مع أشكال أخرى للمعرفة، وهي بالفعل وظيفته. ونُعرّف الاحتراز بأنه ممارسة التقييم والتحكيم الذي يوازن بين حاجات الفعل التي يصعب قياسها وحاجات جودة

---

(15) Edward R. Tufte, *Beautiful Evidence* (Cheshire: Graphics Press, 2006).

(16) رواية **لعبة الكريات الزجاجية** *The Glass Bead Games* للكاتب الألماني هرمان هسّه، هي رواية يوتوبية مستقبلية، تدور أحداثها في مقاطعة خيالية وسط أوروبا تسمى «كاستاليا» التي تم حجزها بقرار سياسي لحياة العقل، حيث يجري الاحتفاظ بالتكنولوجيا والحياة الاقتصادية إلى أدنى حد ممكن. وكاستاليا موطن لجماعة صارمة من المثقفين، عليهم القيام بمهمة مزدوجة: إدارة المدارس الداخلية، وتعليم لعبة الكريات الزجاجية التي لا تزال طبيعتها الدقيقة غامضة؛ إذ هي غاية في التعقّد، حيث يصعب تخيّلها. وتتطلب عملية إتقان ممارسة اللعبة سنوات من الدراسة الجادة للموسيقى والرياضيات والتاريخ الثقافي. فاللعبة عبارة عن توليفة مجرّدة لجميع الفنون والعلوم. وترمز كاستاليا إلى العالم الكامل المتنوع والمتكامل.

الحياة[17]. والاحتراز مُوجِّه، أساسًا، للقرارات السياسية التي تقوم عادة على معلومات ناقصة، وعلى قيم متنازع بشأنها، وتجري في الأوضاع الطارئة. لكنه يُطبّق أيضًا في كل المجالات، وهذا مألوف بصورة بديهية لأي موظف إداري، بيد أننا لا نقصر النطاق هنا على القرارات العملية التي تعتبر بالضرورة جزءًا من إدارة مختبر أو جامعة أو مدينة. ويُلزم الاحتراز أيضًا الفرد بأهداف المجتمع واستدامته، أكان معارضًا أم متعاونًا، فالحياة الجيدة – بحسب أرسطو – يجب أن تشمل الجميع. وفي هذا المجتمع المتعدّد إبستيمولوجيًا، نشدد – أولًا – على الاحتراز في الخطاب Discourse prudence؛ إذ لا يمكن استخدام أي سبب أحادي الثقافة بنجاح لتسويغ هيمنة الخطاب. وندعو – ثانيًا – إلى الاحتراز المعرفي Epistemic prudence. فعلى الرغم من إنجازات العلوم الحديثة، فإن نواقصها وطائفة واسعة من أساليب المعرفة الأخرى، تشير إلى ضرورة اتباع منهجية احتراز إزاء المعرفة العلمية. ومع كامل الاحترام للعمليات والمنتجات العلمية، ليس ثمة مجال للغرور العلمي أو لمزاعم الهيمنة. ونقترح – ثالثًا – سياسات احترازية. فنحن نتعامل مع مجموعة من المواقف التي لم تكن العلوم العادية مهيّأة للتعامل معها، ويُعتبر رهان باسكال[18] منهجية كلاسيكية في التعامل مع هذه المعضلة. أما المنهجية الأكثر معاصرة[19]، فتكمن في تحويل تحليلات البنى من الانحدار نحو الوسط إلى الانحدار نحو الذيل[20]، وهو نموذج جيّد كأي نموذج تَحوُّلٍ لازم لتفسير إبستيمولوجيا الكوارث.

أخيرًا، ننصح بخطاب محترز يشدّد على الوضوح[21]. وعلى الاستراتيجيات الخطابية أن تسعى لإظهار المشكلة إظهارًا كافيًا لجذب انتباه الناس مبكرًا، بدرجة كافية؛ إذ إن البدء بعملية ربط الفعل المحترز بإحساس قوي بالتصميم – بما يشمله من انتباه إلى مختلف المشكلات، وانتباه إلى فرص تعميم المعلومات عن طريق مناشدات رسمية – سيردم الهوّة السحيقة بين المعرفة والفعل. وبدلًا من فرضيات الانتظام الطبيعي، يجب الاعتراف بالاضطراب الناجم عن الأنثروبوسين، وليس أقلّها الكوارث البيولوجية والاقتصادية وغيرها التي يتعذر التنبؤ بموعد حدوثها. وعوضًا عن التسارع المتواصل في إنتاج المعرفة، لا بد من إعادة التوجّه نحو تكامل أكبر بين الطرائق المتعددة للمعرفة من جهة، والمعرفة

(17) Francis A. Beer & Robert Hariman, "Maximizing Prudence in International Relations," *E–International Relations*, 12/2/2013, accessed on 1/3/2021, at: https://bit.ly/2NPX23Z; Hariman (ed.), *Prudence*: *Classical Virtue*.

(18) «رهان باسكال» هو حجة في الفلسفة مبنية على نظرية الاحتمالات النسبية، وتستخدم لتبنّي الحجة القائلة بضرورة الإيمان بوجود الله على الرغم من عدم إمكان إثبات وجوده أو عدم وجوده عقليًا. وصاغ هذه الحجة الفيلسوف وعالم اللاهوت والرياضيات والفيزيائي الفرنسي في القرن السابع عشر بليز باسكال Blaise Pascal (1623–1662).

(19) Flyvbjerg, "Regression to the Tail."

(20) في علم الإحصاء، يكون الانحدار نحو الوسط هو الظاهرة التي تنشأ عندما تكون نقطة ما بمنزلة عيّنة متطرّفة لمتغيّر عشوائي (خارجية تقريبًا)، تكون النقطة المقبلة أقرب إلى الوسط في القياسات الأخرى. في حين ينطبق الانحدار نحو الذيل على أي توزيع يتمتع بكثافة احتمالية لا تتلاشى في تجاه اللانهاية. يُعدّ تواتر الأطراف الجديدة ومقدار تجاوزها للقياسات السابقة مسألة حاسمة بالنسبة إلى توزيع منحرف الذيل Fat–Tailed Distribution، وفق الرسم البياني، كأنْ يكون له على سبيل المثال انحراف لانهائي (غير موجود) أو متوسط.

(21) Hariman, "Introduction"; David Kaufer & Brian S. Butler, *Rhetoric and the Arts of Design* (New York: Routledge, 1996).

والمجتمع المدني من جهة أخرى، وذلك بهدف بناء حضارة مستدامة. وفي الحقيقة، كثيرًا ما شكّل الزمن أحد هموم الحداثة، لكن ثمة ضرورة لإيلاء تقدير أكبر لأبعاده المختلفة (الروتيني منه والكارثي، الوبائي والمعرفي (الإبستيمولوجي)، الكرونولوجي والمتعلّق بالسلوك البشري Praxeological، التطوّري والثوري)، وكذلك لشدة تعقيد التفاعلات في ما بين هذه الأبعاد.

لا شك في أن الإخفاق في أخذ العبر من إبستيمولوجيا الكوارث يعتبر خيارًا. وتبيّن عملية رصد خمسين عامًا مضت، صعوبة هذه المهمة وحجم تحدي التعلم الجماعي؛ إذ اقتُرح أنه «لتحقيق الضرورات السياسية للطاقة والبيئة، لا بدّ أولاً من أن تعترف بها القوى السياسية الفاعلة ذات الصلة». ولكن هذه القوى استمرت في روتينها، و«من الصعب تخيّل ما هو أقل كثيرًا من كارثة إيكولوجية وشيكة على مستوى العالم قد تسرّع، بصورة ملحوظة، وتيرة التغيير التي تسير حاليًا ببطء شديد»[22]. وفي حين اقترَحت تجربة النصف الأخير من القرن العشرين على الطيار الآلي نظام التوجيه بالقصور الذاتي Inertial guidance system[23] (أي أن تُسيِّر الحداثة ذاتها بشكل آلي)، يبدو أنْ ليس ثمة ما يدعو إلى التفاؤل بالقدرة الجماعية للقوى الفاعلة على إدراك مثل هذه الضرورات السياسية سريعًا. ولا يزال التفاؤل الكارثي (أي الاعتقاد أن الكوارث ستنتج حلولها) رهانًا محفوفًا بالمخاطر والوقت، خصوصًا أنّ وقت التعلّم، والتكيّف، واتخاذ الإجراءات اللازمة، كلّها ليست عوامل إلى جانبنا بالضرورة.

المراجع References

Beer, Francis A. & Robert Hariman. "Learning from the Pandemic: Catastrophic Epistemology." *Social Epistemology Review and Reply Collective*. vol. 9, no. 5 (2020).

Flyvbjerg, Bent. *Making Social Science Matter: Why Social Inquiry Fails and how it can Succeed again*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Hariman, Robert & John Louis Lucaites. *No Caption Needed: Iconic Photographs, Public Culture, and Liberal Democracy.* Chicago: University of Chicago Press, 2007.

Hariman, Robert & Ralph Cintron (eds.). *Culture, Catastrophe, and Rhetoric: The Texture of Political Action.* New York: Berghahn, 2015.

Hariman, Robert (ed.). *Prudence: Classical Virtue, Postmodern Practice*. University Park: Penn State University Press, 2003.

Kaufer, David & Brian S. Butler. *Rhetoric and the Arts of Design*. New York: Routledge, 1996.

Kwee, Swan L. & J.S.R. Mullender (eds.). *Growing Against Ourselves: The Energy–Environment Tangle*. Leyden: A.W. Sijthoff, 1972.

(22) Francis A. Beer, "Energy, Environment, and International Integration," in: Swan L. Kwee & J.S.R. Mullender (eds.), *Growing Against Ourselves: The Energy–Environment Tangle* (Leyden: A.W. Sijthoff, 1972), p. 31.

(23) نظام التوجيه بالقصور الذاتي، هو نظام إلكتروني يراقب باستمرار موضع مركبة وسرعتها وتسارعها، وعادة ما تكون غواصة أو صاروخًا أو طائرة؛ ومن ثمّ، يوفر هذا النظام بنى ملاحية ومعلومات عن التحكّم من دون الحاجة إلى الاتصال بمحطة القاعدة.

Latour, Bruno. *Reassembling the Social: An Introduction to Actor–Network–Theory*. Clarendon Lectures in Management Studies. Oxford: Oxford University Press, 2007.

Lustick, Ian. "Explaining the Variable Utility of Disjointed Incrementalism: Four Propositions." *The American Political Science Review*. vol. 74, no. 2 (1980).

Methmann, Chris & Delf Rothe. "Politics for the Day after Tomorrow: The Logic of Apocalypse in Global Climate Politics." *Security Dialogue*. vol. 43, no. 4 (2012).

Tufte, Edward R. *Beautiful Evidence.* Cheshire: Graphics Press, 2006.



دومينيك فانك | Dominique Vinck*

جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) في المجتمعات الغربية والعلوم الاجتماعية

The Covid-19 Pandemic in Western Societies and Social Sciences

ملخص: يجتاح فيروس كورونا المستجد (المسمى سارس-كوف-2 كوفيد-19) العالم اجتياحًا واسعًا منذ بداية عام 2020، ويلحق تأثير الجائحة جميع القطاعات والنشاطات، بما في ذلك البحث في مجال العلوم الاجتماعية. وتتناول هذه الدراسة بتفاصيل دقيقة الطرائق التي تعاملت بها المؤسسات الحكومية الغربية وعلوم الطبيعة والمجتمع مع هذا الاضطراب الشامل الذي هزّ أركان مجتمعاتها. وتُبرز الدراسة بعمق أنّ التعقيدات اليومية اللامتناهية التي أحدثتها الجائحة في حياة مجتمعات رأسمالية - صناعية وديمقراطية - حضرية، وبيروقراطية، وفردانية، هي وليدة متخيّل الحداثة الذي تبنّته منذ عدّة قرون، وردود فعل هذه المجتمعات الجماعية والفردية والتكنولوجية والأخلاقية والبحثية تجاه حجم التحديات التي واجهتها. وخلال كلّ هذا التوصيف، حرصت الدراسة على إظهار موقع العلوم الاجتماعية في هذه العملية الواسعة والخلفيات الإبستيمولوجية للأسئلة المتعدّدة التي طرحتها على نفسها وعلى علاقتها بالمجتمع وبمراكز القوة فيه.

كلمات مفتاحية: فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، العلوم الاجتماعية، المجتمعات الغربية، إبستيمولوجيا، حداثة.

Abstract: The worldwide effects of the Covid–19 pandemic have been felt in all aspects of life, including social sciences research. This study examines how Western science, society and government agencies dealt with an upheaval shaking the foundations of their societies to the core. The research finds that the endless daily complications caused by the pandemic in industrial–capitalist life (urbanized, democratic–bureaucratic and individualistic), are the product of an illusory "imaginary" of modernity espoused several centuries ago and these societies' reactions to the enormous challenges they confronted. The research highlights the position of the social sciences in this broad process and explores the epistemological background of the questions posed by the social sciences and their relationship with society and its centers of power.

Keywords: Covid–19 Pandemic, Social Sciences, Western Societies, Epistemology, Modernity.

* أستاذ دراسات العلوم والتكنولوجيا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة لوزان، سويسرا.

Professor of Science and Technology Studies, Institute of Social Sciences, University of Lausanne, Switzerland.

أولًا: أشكال تفاعل العلوم الاجتماعية مع الجائحة

ما إن أعلنت منظمة الصحة العالمية وباء فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) جائحةً عالمية، حتى سارعت الحكومات إلى فرض الحجر المنزلي، وعبَّر الباحثون في العلوم الاجتماعية عن شعورهم بأنّهم يعيشون تجربة خاصّة، وأنّ هذا الوباء سيؤثّر في المجتمع بأسره؛ ومن ثمّ تستحق هذه الظاهرة المتابَعة والدراسة عن كثب.

1. مصدر قلق مباشر للطلاب

ما إن جرى الإعلان عن إغلاق الجامعات حتى كانت أوّل ضرورة ملحّة حازت الاهتمام هي ضمان استمرارية التعليم. ومباشرةً، أخذ المدرسون يستثمرون أدوات التعليم عن بُعد استثمارًا كبيرًا. وهكذا بدأت عملية واسعة من التعليم الفردي والجماعي، بمساندة من تكنولوجيا المعلومات والخدمات التعليمية، في إنتاج الوسائط السمعية والبصرية على الإنترنت، وتحريرها ونشرها. وباشرت الإدارات والجمعيات الجامعية في تنظيم نفسها بهدف توفير المصادر اللازمة، مثل دليل جمعية علم الاجتماع الأميركية[1]. وقد أثار هذا التعليم القسري الجديد لدى المدرسين أسئلةً حول الآثار التي يُسبّبها التعليم عن بعد، ولا سيما الاعتماد الشديد على الأدوات الجديدة والتوترات الناجمة عنها، إضافةً إلى التمييز المرتبط بالتفاوت في التجهيزات وبيئة عمل الطلاب. وهكذا أصبح تأثير الجائحة في التعليم موضوعًا «تلقائيًّا» للبحث، وجرى تداول نتائج الاستبيانات التي أُجْرِيت على الطلاب من دون المرور بالنشر الأكاديمي، وبدأ عمل توليفي مُوحّد يقوم على مقارنة واستعراض التحليلات لهذه المواد والتقارير غير الخاضعة للنشر التجاري.

بالتزامن مع ذلك، بدأت قائمة القراءات التي يُوصَى بها في مجال الأنثروبولوجيا[2] وعلم الاجتماع[3] توفّر مادّة للتفكير حول الجائحة، والرعاية المقدّمة في الحالات غير المعروفة على نحو جيّد[4]، وكذا الأمر بالنسبة إلى دراسات الكوير Queer «أحرار الجنس»[5]، والبحوث النسوية التي تركز على السوداوات[6] وأشكال التفاوت[7]. وبدأت فهارس الإنترنت تضمّ مجموعة متنوعة من المصادر حول الموضوع (الكتب، والمقالات، والندوات، والمدونات الصوتية، والبث الإذاعي، والأفلام، والأعمال

(1) "COVID–19 Resources for Sociologists," American Sociological Association, 15/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3aHV925

(2) Nina Brown et al. (eds.), "Teaching COVID–19: An Anthropology Syllabus Project," *Google Docs*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3ujOumz

(3) Siri Colom (ed.), "Teaching Coronavirus: Sociological Syllabus Project," *Google Docs*, accessed on 22/2/2021, at: http://bit.ly/3bwM9Mi

(4) "Care in Uncertain Times Syllabus," Duke University Press, 25/3/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dzKMiB

(5) "Queering the Pandemic Syllabus," *Google Docs*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3byxDnA

(6) Nana Afua Yeboaa Brantuo, "Black Feminist Perspectives on COVID–19: A Reading List," Black Women Radicals, 28/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2ZAWXDN

(7) "COVID–19 Resources," Harvard University, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3kc9tmx

الفنية، والموسيقى، والمحفوظات، وقواعد البيانات، وما إلى ذلك)[8]، أو دراسات استراتيجية استقصائية تحدّد كيفية إدارة البحوث الإثنوغرافية في حالة الجائحة[9].

2. دعوات لتقديم الشهادات وتجميع البيانات

عمل الباحثون، في هذا الوضع الذي شملت فيه الجائحة بآثارها جميع أفراد المجتمع، على دراسة الظاهرة حتى في الظروف التي أصبح فيها الوصول إلى الميدان محدودًا. فصمّموا أنظمة لتوثيق الحدث وأنشؤوها، إدراكًا منهم لضرورة تجميع البيانات المتعلقة به، واضعين الشهادات على المنصات التشاركية[10]، وداعين الطلاب إلى إجراء دراسات إثنوغرافية لما يحدث في العائلات والشارع والمؤسسات والعمل.

بالنسبة إلى البحوث الأولية التي أُجْريت على الظاهرة من النادر أنْ يجري التفكير في المشاريع والإعداد لها بالطريقة المناسبة، أي من خلال صياغة الإشكالية، وتصميم البحوث ووضعها في سياقها المعرفي؛ فهي غالبًا ما تتّجه بسرعة إلى تجميع كلّ أنواع البيانات والمعطيات وأرشفتها لأنّ التغيّرات سريعة، والهدف هو توثيق التجارب المتنوعة التي يعيشها المجتمع للرجوع إليها لاحقًا.

هكذا أُطْلقت دعوات إلى الطلاب والسكان كي يُدلوا بشهاداتهم لبناء ذاكرة جماعية عن الجائحة، تتعلّق بالتجربة التي مرّوا بها في الحجر المنزلي وعند رفعه، والتباعد المكاني، وارتداء الكمامة، والعزل الصحي، والعمل عن بعد، والعلاقات مع الأقارب من كبار السن، ومع الجيران، وما إلى ذلك. وأُعطوا نصائح وتوجيهات بشأن كيفية تحرير هذه الشهادات عن تجاربهم، كما كان في إمكانهم الإدلاء بها شفويًّا.

3. تنسيق التحليلات الأولى

أنشَأت فِرقُ البحث مدونات تتعلق بالجائحة[11]، حيث يتشارك المستخدمون القصص والملاحظات الإثنوغرافية ورسومات الأطفال وصورهم، وتترافق في هذه المدونات مشاركات المستخدمين العاديين مع التحليلات الأولية التي يجريها الباحثون. وقد شكّل تعدّد الآراء حول ما يحدث فرصةً لاختبار التفكير الجمعي في طرائق صناعة المجتمع، وفرصةً لتغيير مستقبل العالم، أو عكس ذلك الرغبة في العودة إلى الوضع السابق.

(8) "#Coronavirussyllabus: A Crowdsourced Cross–disciplinary Resource," *Google Docs*, 12/3/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/37Axv5H

(9) حول التعامل مع ظاهرة جائحة فيروس بأدوات أنثروبولوجية، ينظر:

Mike Wesch, "Adapting ANTH101 Challenges for Covid–19," *ANTH 101*, 21/3/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2ZBFaMP

(10) على سبيل المثال، ينظر: *Vitrines en confinement*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2MgJn5s.

(11) على سبيل المثال:

CO–VIES20, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2NRHTyI; "Comment vivez–vous la pandémie de Coronavirus? Quelles expériences, émotions, réflexions vous accompagnent pendant cette période?" *Corona–memory*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2MiLiXe

ونشرت مدوّنات أخرى تحليلات تُسلّط الضوء على الأزمة[12]، أو مفكّرة بحث مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية[13]، باستخدام الأدوات المفاهيمية للعلوم الاجتماعية. وتتشارك هذه المدوّنات والدراسات المعارف وتدعم البحوث، وتعود إلى الماضي لتحلّل الحاضر وتفكّكه؛ من أجل التفكير في فترة ما بعد جائحة فيروس كورونا، كما تطرح مشاريع يستطيع المواطنون المشاركة فيها. من جهة أخرى، يُجري باحثون مداخلات مختلفة في وسائل الإعلام ليقدّموا تحليلاتهم الأولية المتعلقة بالجائحة.

4. حشد طاقات الباحثين

بدأت العلوم الاجتماعية، بعد شهرين من الحالات الأولى التي أعلنتها الصين (31 كانون الأول/ ديسمبر 2019)، وقبل أنْ تعلن منظمة الصحة العالمية وباء كوفيد-19 جائحةً، في حشد جهودها[14]. وفي 6 آذار/ مارس 2020، جمع منتدى دوليٌّ علماء في الأنثروبولوجيا والتاريخ لمناقشة الأطر التحليلية المناسبة للتعامل مع الجائحة[15]. وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا في حالة وباء إيبولا قادرين على الوصول ميدانيًا إلى المجتمعات المُصابة، فإنّهم لم يكونوا قادرين على ذلك في حالة جائحة كورونا؛ لأسباب سياسية وعملية. ورغم ذلك، أتاح المنتدى تسليط الضوء على الوضع السائد، والرجوع خطوة إلى الوراء لفحص التجارب الوبائية السابقة، وتوقّع آثار الجائحة في المجتمع، مع مراعاة تعقيدات الواقع الاجتماعي.

وفي هذا السياق، استنفرت الحكومة في الأرجنتين العلوم الاجتماعية، إدراكًا منها للتعقيدات الناجمة عن فرض العزلة الاجتماعية[16]. وطلبت من المؤسسات البحثية إجراء استطلاع وطني على مستوى البلاد حول التأثير الاجتماعي للحجر المنزلي في الأحياء الشعبية. فأجرى عددٌ من الباحثين كانوا على صلة بهذه الأحياء، بإشراف لجنة مختصّة في العلوم الاجتماعية، اتصالات مع 1500 من قادة المجتمعات المحلية، والمسؤولين الدينيين، والسكان المحليين والمنظمات الشعبية؛ بهدف تحديد المشكلات ذات العلاقة بالجائحة. وكانت الحصيلة كمًّا هائلًا من البيانات التي حلّلها 500 باحث قدّموا من خلالها للحكومة صورة شاملة عن الحالة وتقييمًا عامًّا لها، سُلِّمت في تقرير إلى السلطات

(12) على سبيل المثال: *Viral*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2MdgUgR.

(13) Christophe Prochasson, "Carnet de l'EHESS," EHESS, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3kd7Zss

(14) تبدأ منظمة الصحة العالمية اعتبارًا من 10 كانون الثاني/ يناير 2020 بتقديم المشورة بشأن إجراءات فحوصات لهذا الوباء وتقديم العلاج له في نشرة إخبارية فنية موجهة إلى الأوساط العلمية ووسائل الإعلام. وفي 14 كانون الثاني/ يناير 2020، تتحدث عن خطر وبائي واسع النطاق، ثم تستدعي لجنة طوارئ لكنها تفتقر إلى البيانات اللازمة. تجري اللجنة زيارة إلى الصين تعلن في ختامها حالة الطوارئ الدولية للصحة العامة. وفي 3 شباط/ فبراير 2020، تنشر منظمة الصحة العالمية خطة لمساعدة الدول ذات الأنظمة الصحية الضعيفة، ثم تدعو المجتمع العلمي إلى منتدى حول البحث والابتكار بخصوص فيروس كورونا، وفي 11 آذار/ مارس 2020، تصنف منظمة الصحة العالمية وباء هذا الفيروس على أنه جائحة.

(15) Christos Lynteris, "COVID–19 Forum: Introduction," *Somtosphere*, 6/3/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/37E5Lgm

(16) Soledad Balerdi, Paula Cuestas & Julia Hang, "Les sciences sociales face au confinement. Enquête, diagnostic et contributions en Argentine," *CO–VIES20*, 6/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2Nju9x7

العامّة في 29 آذار/ مارس. وقد سلّطت هذه الأبحاث الضوء على الوضع الهشّ الذي كان يعانيه السكان (نقص في المواد الغذائية والأدوية ومواد التنظيف المتعلقة بالصحة العامة)، والذين أثّرت العزلة الاجتماعية في حياتهم القائمة على أعمال غير مهيكلة، وغير مستقرة. كما بيّن التقرير أنّ ذلك كان يجري في الوقت الذي أدّى فيه الحجر المنزلي إلى زيادة في التوترات والمشكلات العائلية والعنف الأسري، مبيّنًا أنّ التعليم عن بعد لا يضمن الاستمرارية التربوية للشباب الذين لا يملكون الأجهزة والأدوات اللازمة لذلك. وعلى الرغم من ذلك، أظهرت الدراسة تقيّد السكان بالحجر المنزلي، وجرى الأمر بدعم من مواقع جمعيات ومنظمات الأحياء السكنية ونشاطات الجامعات القريبة. وقد أُنشِئت شبكات من الدعم والمساعدة على مستوى الأحياء؛ ما خلق سياقًا حيويًّا من التفاعل الاجتماعي فاق ما كان سائدًا في المنزل، فساعد على تخفيف التفاوت الاجتماعي.

5. برامج بحث وندوات ومنشورات

من جهة أخرى، لم يتأخّر الباحثون في تصميم مشاريع بحثية وعقد ندوات[17] وإصدار منشورات جماعية؛ إذ شكلت الجائحة وإدارتها تجربة ضخمة بمقاييس طبيعية غير مسبوقة على مستوى العالم، إلى درجة أنّ أحدًا لم يجرؤ من قبل على تخيّل إمكانية اختبار فرضيات، وتطبيق نظريّات، على ظاهرة بمثل هذه المقاييس. وقد وضعت هذه الأزمة على المحكّ معارفنا السابقة عن المجتمع، وعن قدرته على مواجهة هذا التحدّي الكبير[18]. ويتّصف نسق الاضطراب الذي أصاب نُظُم المجتمع، السياسية منها والاقتصادية، في جميع أنحاء العالم، بالسرعة والعمق؛ وهو اضطرابٌ ربّما لا يمكن إصلاحه، وهو يتحدّى قدرة المجتمع على التغيّر والصمود من أجل إعادة إنتاج ذاته، وذلك رغم سياسات الوقاية المطبقة. ومع ذلك، أثار هذا الاضطراب خيال الباحثين الذين رأوا فيه فرصةً لإنتاج المعرفة كما لم يستطيعوا إنتاجها سابقًا، فبدأ كلّ شيء في التحرّك وبرزت على السطح العديد من الظواهر التي كانت غائبة من قبل.

تُعدّ الوضعية مثيرة ومحفزة؛ فهي تساعد في فهم المجتمع فهمًا أفضل. وإنّ ما كان مطلوبًا، فضلاً عن التحليلات الساخنة والآنية التي تعيد تدوير المفاهيم الجاهزة والبيانات التي تمّ جمعها على عَجَل، هو مقارنة الأساليب والمقاربات، وإعادة صياغة القضايا، وإطلاق دعوات للنشر بالنسبة إلى الزملاء العاملين في الميدان وعلى أرض الواقع، واقتراح مفاهيم جديدة، وتصميم برامج مبتكرة للبحث، وربّما إعادة النظر في النماذج الإرشادية المعرفية القديمة Paradigms. في هذا السياق، وُجِّهت دعواتٌ لتشكيل مجموعات بحثية لتحليل التغيّرات الجارية وتأثيراتها في أنماط الحياة والمنظمات

(17) حول الجنساني وتخصيص الموارد من منظور الإعاقة والتفاوتات العرقية، صحة وسلامة مجموعات «إل جي بي تي كيو» LGBTQ، أو «إل جي بي تي» LGBT (المثليات والمثليون والمتحولون جنسيًا)، يُنظر على سبيل المثال:
"COVID-19 Virtual Events," Columbia University Irving Medical Center, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dAXnlO

(18) David Stark, "Testing and Being Tested in Pandemic Times," *Sociologica*, vol. 14, no. 1 (2020), pp. 67–94.

والمؤسسات (الدعوة إلى التعافي المستدام، على سبيل المثال)[19]. وكانت هذه الدعوات موجهةً في بعض الأحيان إلى الجهات الفاعلة في الميدان والمعنية بإدارة الأزمات وتأثيراتها في المجتمع (الشركات والمنظمات غير الحكومية والمؤسسات الثقافية ... إلخ)[20]. وفي هذا الإطار، أُنشئت العديد من القوائم لرصد مشاريع البحث والتدخّل[21]. وبدايةً من أيلول/ سبتمبر، قُدِّمت أموالٌ وتلقّت وكالات التمويل العديد من الاقتراحات في هذا الشأن، لكنْ لم يندفع جميع الباحثين في هذا الاتجاه تجنّبًا لآثار ما اعتبروه شكلاً من أشكال «الموضة» البحثية. ومع ذلك، سرعان ما ظهرت المنشورات الأولى في الأنثروبولوجيا[22]، وعلم الاجتماع[23]، والعلوم السياسية[24]، من خلال حشد المعرفة المتراكمة، واستكمالها ببيانات من الاستطلاعات الأولى، ومن أعمال رصد وسائل الإعلام. وبالتوازي مع ذلك، عُقِدت ندواتٌ متعدّدة التخصصات في أغلب الأحيان، وقد اعتُبِر بعضها في البداية مساحة للحوار مع الجهات الفاعلة المسؤولة عن إدارة الأزمات.

6. الانخراط في النقاش العام

دفعت الاضطراباتُ العلومَ الاجتماعية إلى تغيير الأدوار. يتحوّل بعض ممثّليها، أحيانًا، إلى «سماسرة ثقافيين» يفكّكون رموز الأعراف والقيم والممارسات الاجتماعية؛ من أجل فهم مقاومة التغيير، وتحديد وسائل التخفيف منها. ومن ثمّ، يقدّمون المساعدة في فهم ما يجري، وتصميم استجابات «مناسبة» للتفاعل مع الجائحة والآثار الناجمة عن إدارتها[25]. وهكذا، فإن صانعي السياسة العامة يستنفرون طاقات العلوم الاجتماعية لخدمة البرامج السياسية والتفاوض بشأنها.

لقد انخرطت هذه العلوم في النقاش العام وفي الوسائل الإعلامية دراسةً وتحليلاً للمضمون[26]، مشاركةً في ذلك علومًا أخرى وفعاليات اقتصادية أو ثقافية. وإدراكًا منها للرهانات المطروحة، من حيث استعادة و/ أو تغيير أنماط الحياة الإنسانية، سلّطت العلوم الاجتماعية الضوء على الآثار المجتمعية

(19) "Call for Proposals: WUN Addressing Research Needs Triggered by the Covid–19 Pandemic," *WUN*, 2/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2NjY8VJ

(20) استجاب أكثر من 600 شخص للدعوة التي أطلقها مركز دراسة الإنسان في غرونوبل (فرنسا).
"CODE–VIRUS," Pacte, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dIreIO

(21) على سبيل المثال، نذكر متتبع مشروع العلوم الاجتماعية (كوفيد–19) الذي ينشر 350 مشروعًا.
Nate Matias & Alex Leavitt, "COVID–19 International Academic Social Science Research Project Tracker," *Google Docs*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3ujcje9

(22) *Social Anthropology*, vol. 28, no. 2 (2020), pp. 211–555.

(23) Fiorenza Gamba et al. (dir.), *COVID–19: Le regard des sciences sociales* (Genève: Seismo, 2020).

(24) "Democracy in the Time of COVID–19," *Democratic Theory*, vol. 7, no. 2 (2020).

(25) Raad Fadaak, Myles Leslie & Nicole Pinto, "A'New Normal' for the Social Sciences: Improving Pandemic Preparedness and Response," *LSE*, 21/9/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dEx3aj

(26) Elsa Bansard & Anne–Coralie Bonnaire, "'Les SHS face au Covid–19' – Quatre mois de débat public: Une proposition d'analyse de contenu," MSH–Paris–Saclay Ruptures des pratiques et dynamique du débat – Les SHS face à la crise Covid–19, Colloque, 12–13 octobre 2020.

للأزمة، والتشكُّلات المجتمعية الجديدة الجارية. وعملت على تقييم عمق الاضطرابات واللايقين اللذين ترتّبا على ذلك، وعلى استكشاف وتقييم الآفاق المستقبلية الممكنة للحياة.

ثانيًا: دراسة الواقع المعيش وتأثيرات الجائحة

سنستعرض الموضوعات التي استحوذت على انتباه الباحثين. لقد تأثرت جميع مجالات النشاطات بالجائحة، ولذلك فإنّ جميع التخصصات معنية بها: علم اجتماع الصحة، والاتصالات، والأسرة، والعمل، والهجرة، والنشاطات الثقافية والرياضية، والعلوم والتكنولوجيا، والسياسة والمنظمات وغيرها.

1. مكامن الضعف

يهيمن موضوع واحد على الأعمال الجارية: دراسة عواقب الحجر المنزلي، أو ما سمّي خطأً «التباعد الاجتماعي»، على المجموعات السكانية المختلفة (الطلاب في الحجر المنزلي، وكبار السن في مؤسسات رعاية المسنين، والإرهاق، أو الضغط النفسي العالي، بالنسبة إلى الوالدين اللذين يتعين عليهما التعايش مع الأطفال أثناء تنفيذ عملهما، وكذلك المرضى الأكثر هشاشة، وما إلى ذلك)، إضافةً إلى التفاوت الاجتماعي والجهوي والمهني والجندري. وتتفاقم أوجه التفاوت هذه في مواجهة الوباء؛ إذ تساعد الكثافة السكانية على انتشار الفيروس في المدن مقابل الأرياف، وفي الأحياء الشعبية مقابل الأحياء السكنية الراقية[27]، في حين يكون الحجر المنزلي أسهل في المناطق السكنية التي تشتمل على حدائق ممّا هو في المدن حيث تكون المساكن ضيقةً ومن دون شرفات. كما بدأت تطفو على السطح التفاوتات الاجتماعية الكامنة، من دون أنْ يلاحظها أحد، وذلك على مستوى أجهزة الاتصالات التي أصبحت ضرورية للعمل والتعليم والتعلم عن بعد. وإن لم تُصب الجائحة في البدء سوى نخبة عالمية متنقلة من الأشخاص، ما يُسمّى بفيروس الأغنياء الذي ينتقل بالطائرة من مكان إلى آخر في سائر أنحاء العالم، حتى وصل إلى محطات التزلج الفاخرة، فإنّها انتشرت عبر التجمعات الشعبية، الرياضية والدينية، حتى إنّها أصابت التجمعات السكانية التي لا تكفيها مواردها الاقتصادية ورصيدها من العلاقات الاجتماعية في مواجهة أيّ تغيّر مفاجئ. وهكذا كشف الفيروس عن اختلافات بين المصابين، وكشف النخبة الأولى منها التي تعرّضت للانتقاد والازدراء لتعريضها الأشخاص الآخرين الضعفاء للخطر[28].

ظهرت، بعد فرض الحجر المنزلي وبدء التعليم عن بُعد، أوجه التفاوت بين الطلاب على نحوٍ واضح، من حيث الأدوات وظروف العمل في المنزل. وقد فرض موضوع التفاوتات نفسَه على الباحثين، فتعدّدت الأعمال التي تناولته:

(27) Creighton Connolly, Roger Keil & S. Harris Ali, "Extended Urbanisation and the Spatialities of Infectious Disease: Demographic Change, Infrastructure and Governance," *Urban Studies*, vol. 58, no. 2 (2020), pp. 245–263.

(28) Sandro Cattacin, "Stigmatisations inversées, renversées et rétablies," in: Gamba et al. (dir.), pp. 149–158.

أ. تأثير الحجر المنزلي في الأشخاص من ناحية ظروف سكنهم[29] وعملهم، ومنهم على سبيل المثال العاملون في مجال الخدمات المنزلية والمطاعم، ومن ناحية ظروف تنقّلهم.

ب. هشاشة الأُسَر:

- العيش في مساكن محصورة ومغلقة في ما يشبه الجحيم؛ من توترات، وعنف، وهيمنة جندرية وجيلية.

- الموارد العاطفية: عاطفة، وتواصل اجتماعي، ودعم متبادل.

- الديناميكيات: انخراط الطلاب أو كبار السن المعزولين أو المحجورين في المنازل في علاقات من الترابط والاعتماد العاطفي والاقتصادي المتبادل[30].

- الأزواج: التواصل، والعلاقة الحميمة، والرومانسية، وحتى المراقبة المتبادلة، والأبوة، والأمومة، والخصوبة، والرعاية في فترة الحمل، وكسر الروتين، وتعلّم أدوار جديدة (خاصة المعلم)، والعلاقة بالبيئة، وإدارة موارد الأسرة (المكان، والتجهيزات، والدخل)، تنظيم العلاقات.

ج. هشاشة الأطفال: الاعتماد على نظام التعليم المدرسي عن بُعد والقدرة على الاستيعاب، بناءً على موارد غير متساوية داخل الفضاءات المنزلية أكثر منها داخل الصفوف الدراسية. ويتّصف هذا النظام بسهولة التبادل الثنائي مع المعلّم مقابل التفاعل المتعدّد الأطراف في القسم والتعلّم الجماعي[31]. يُضاف إلى ذلك التبعية لجهود الوالدَين في المجال، والتوتّر الذي يحصل في الأُسَر نتيجة التنافس على الوصول إلى التجهيزات المطلوبة في العملية التعليمية.

د. هشاشة مجموعات مخصوصة: كبار السن، والمعوقون[32]، والضعفاء عقليًا أو المساجين[33]، ومسائل الرعاية المُقدّمة لهم[34].

هـ. قدرات الأشخاص على المقاومة والتكيّف المرن مع هذه المواقف، والتأثيرات التي تلحق حياتهم وسلامتهم، وحالة التبعية التي يعيشونها باعتمادهم على المساعدات العامّة، ونشاط الجمعيات والشبكات الاجتماعية على الصعيدين المحلي والوطني، لا سيّما في حالة المهاجرين.

(29) Conor Dougherty, "12 People in a 3–Bedroom House, Then the Virus Entered the Equation," *The New York Times*, 2/8/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://nyti.ms/3ulWi7q

(30) Eric D. Widmer et al., "Dynamiques familiales et Covid–19: Réactions à la période de confinement," in: Gamba et al. (dir.), pp. 159–178.

(31) Daniel Stoecklin, "Les enfants face aux conséquences du covid–19," in: Gamba et al. (dir.), pp. 193–214.

(32) Emilie Rosenstein, "Handicap, confinement et l'expérience de la vulnérabilité," in: Gamba et al. (dir.), pp. 215–226.

(33) Marco Nardone, "Le Covid–19 en prison," in: Gamba et al. (dir.), pp. 227–246.

(34) Colleen M. Flood et al. (eds.), *Vulnerable: The Law, Policy and Ethics of Covid–19* (Ottawa: University of Ottawa Press, 2020).

في هذا السياق، جرت إعادة تحديث الأسئلة والمفاهيم المتعلقة بالسؤال: ماذا يعني «تكوين أسرة»؟ باعتماد تقنيات الاتصال للتعبير عن الحضور وللتواصل مع الآخرين، أو مشاركتهم الأحداث الحميمية (الحفلات)، أو تقديم الدعم وتلقيه (تحضير واجب منزليّ مع الأجداد عن بعد، أو المشاركة في إدارة الأزمة أو توفير جليس للأطفال)، وتبادل المعلومات. وقد ظهر أنّ هذه التقنيات تُوفّر الدعم لهذه العلاقات بقدر ما كان الأشخاص يُتقنون استخدامها منذ فترة طويلة، كما هو حال المهاجرين الذين اعتادوا التعامل مع هشاشة أنظمة الاتصال التي لديهم وأظهروا مرونةً في التكيف مع الوضع الجديد. وفي المقابل، كشف الحَجْر المنزلي عن أنّ الأشخاص الذين لم يطوّروا أسلوب تعاملهم مع أنظمة الاتصالات الحديثة وجدوا صعوبات في التواصل عبرها.

2. تفاوت وتمييز وعدالة

في خضم هذه البحوث، أظهرت العلوم الاجتماعية حساسيةً تجاه قضايا العدالة والإنصاف[35]. ففي الولايات المتحدة الأميركية، تَركّز الاهتمام على مسألة العنصرية والتمييز[36]، وكشفت الأزمة أنّ الصحة ومعدّلات الأعمار يعتمدان على لون الجلد؛ ما غذّى في بداية الجائحة خطاب الكراهية تجاه الناطقين بالصينية الذين كانت بلادهم الأصلية المكان الذي انتشرت منه الجائحة.

أمّا في سويسرا، وهي دولة غنيّة بالموارد، فقد أدّت إدارة الوباء إلى إلقاء كثير من الناس في وضعيّات غير مستقرّة وغير آمنة؛ واكتشف العالم أرتال المنتظرين أمام محالّ توزيع المواد الغذائية[37]. فعكفت العلوم الاجتماعية على دراسة الطريقة التي تعاملت بها المنظمات غير الحكومية والمؤسسات مع هذه الوضعيات (تقديم وجبات الطعام وأكياس المؤونة التي لا تترك لهم اختيار موادّها، بل إنها مهينة لهم)، إضافة إلى ظهور أنظمة أخرى لتقديم المعونة الغذائية (قسائم شراء تُستبدل في المتاجر لمكافحة الفقر)، أو المساعدة المالية للعاملين لحسابهم الخاص والطلاب والمشتغلين في الجنس.

وقد سلّطت التحقيقات الاستقصائية الضوء على أوضاع الأشخاص ذوي الإقامات غير النظامية، الذين يتردّدون في التسوّل واستجداء الناس خوفًا من اكتشافهم وترحيلهم، في حين سبّب ذلك انقطاع أعمالهم في مجال البناء والمطاعم وحضانة الأطفال والخدمة المنزلية، والطرائق التي تكيّفت بها الشركات والمؤسسات العامة مع موضوع التشغيل في وقت الجائحة. وهكذا شهدت العلوم الاجتماعية عودة

(35) Lisa Bowleg, "We're Not All in This Together: On COVID–19, Intersectionality, and Structural Inequality," *American Journal of Public Health* (2020), p. 917.

(36) Philip Alston, "Covid–19 has Revealed a Pre–existing Pandemic of Poverty that Benefits the Rich," *The Guardian*, 11/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2MbK3ZF; Steven Greenhouse, "The Coronavirus Has Intensified Systemic Economic Racism Against Black Americans," *The New Yorker*, 30/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3pLMG26

(37) "Hundreds Queue for Food Parcels in Wealthy Geneva," *The Guardian*, 9/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3kbcfsg; "Food Line in Geneva Stretches To More than 1,500 People," *The New York Times*, 9/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://nyti.ms/3kbxXMF; "Food Poverty UK," *Goldsmiths*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3aFHhoY; Laurence Ossipow et al., "Avoir faim en Suisse: Les dispositifs alimentaires à Genève et à Fribourg au temps de la Covid–19," *CO–VIES20*, 15/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3qJEuAT

إلى مشهد الدولة والجمعيات، وهي تُعيد إطلاق برامج مكافحة الفقر القديمة، مضفيةً طابعًا مؤسسيًّا أكثر إنصافًا بشأن توزيع الموارد.

3. إعادة ابتكار الطقوس

أثار الاضطراب الناجم عن الجائحة، كما أوضحنا، اهتمام العلوم الاجتماعية؛ ذلك أنّ الإجراءات التي اتخذتها الحكومات أثّرت في حياة الناس. فعكفت العلوم الاجتماعية على دراسة الطريقة التي أصبح يعيش بها الناس هذه الأزمة، والممارسات والتصرّفات الجديدة المتغيّرة التي تولّدت من ذلك. ومن ثمّ، تبلورت أسئلة أنثروبولوجية تتعلّق بالقيمة العالية التي تُعنى بالصحة والاهتمام بها على حساب الحياة، والاستقلالية، وأساليب العيش في وجود فيروس أو جائحة مزمنة[38].

لقد تأكد أنّ العزلة تشكّل حالة عيش مُحبِطة ومُنفِّرة[39]، حاول المجتمع تأكيد نفسه ضدّها من خلال إعادة إنتاج الروابط الاجتماعية، والممارسات والأحداث العامة، خصوصًا مباريات كرة القدم، وفعل ذلك أحيانًا عن طريق إنكار الخطر ورفض الأوامر والتعليمات. وقد انبثقت من ذلك ممارسات جديدة أثناء الحَجْر المنزلي، ولا سيّما استحداث المشاركة عن بعد في حفلات تناول المشروبات Apéro (كورونا بيرو Coronapero، وسكايب بيرو Skypero، وزووم كافيه Zoomcafé)، والحفلات الموسيقية التي يجري فيها عزل الموسيقيين، ومزامنتهم عن بُعد، وتقديمهم على شكل صور مُصغرة متعدّدة على الشاشة نفسها. كما ظهرت ممارسات وطقوس أخرى مثل التصفيق على الشرفات لطواقم المرضين. لقد مثّلت هذه الطقوس والممارسات المبتكرة مواضيع اهتمام جديدة بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية؛ لأنّها تشير إلى تغيير في ظروف العيش. وهذا الأمر دفع الباحثين إلى طرح تساؤلات على أنفسهم متعلقة بكيفية ابتكار المجتمعات نُظمًا اجتماعية جديدة، وبقدرتهم على إعادة إنتاج الممارسات الاجتماعية القديمة بوسائل التواصل عن بُعد، أو بالاستكشافات العابرة، أو حتى العودة إلى ما كانت عليه الحياة قبل الجائحة.

وتحظى طقوس أخرى باهتمام العلوم الاجتماعية؛ مثل حفلات التخرج، وتسليم الشهادات، والإحالة إلى التقاعد. وتأثرت مراسم الجنازات وطقوسها تأثرًا كبيرًا، وحُظِرت مراسم دفن الموتى في الوقت الذي ارتفع فيه عدد المتوفين الذين لم يتمكن أقرباؤهم من مرافقتهم إلى مثواهم الأخير؛ ما ترك أثرًا بالغًا ورمزيًا في نفوس الأقارب والأصدقاء. وللردّ على هذه التحديات، استدعت السلطات العامة العلوم الاجتماعية لتفكيك هذه الظواهر وتحليلها[40]. وهو ما أعطى عالمة الاجتماع غايل كلافنديه Gaëlle Clavandier فرصةَ الحديث عن «الموت الجماعي»، قياسًا على ما يحدث في حالات الهجمات،

(38) Natassia Brenman, "Pandemic Vitality: On Living and Being Alive in Lockdown," *Social Anthropology*, vol. 28, no. 2 (2020), pp. 229–230.

(39) Jolanda Jetten et al., *Together Apart: The Psychology of Covid–19* (London: SAGE Publishing, 2020).

(40) "Crise du funéraire en situation de Covid–19: Mort collective et rituels funéraires bouleversés," Office parlementaire d'évaluation des choix scientifiques et technologiques (OPECST), 7/7/2020, accessed on 29/3/2021, at: https://bit.ly/31sBihV

أو الإبادة الجماعية، أو الكوارث. كما تُذكّرنا حصيلة الوفيات التي تعلنها نشرات الأخبار المتلفزة، ومشاهد تجميع الجثث في الكنائس لإجراء المراسم الرسمية، والدفن في مقابر جماعية، بالأوبئة القديمة التي أصابت العالم. أما بالنسبة إلى العاملين في قطاع دفن الموتى والجنازات، فقد كشفت عالمة الاجتماع باسكال ترومبيت Pascale Trompette عن الضغوط التي يعانونها، والتي تفاقمت من جرّاء عدم استفادتهم من المساعدة الممنوحة لمقدّمي الرعاية الصحية (الحصول على معدّات الحماية الشخصية، وإذن السفر، ورعاية الأطفال)، وذلك لعدم ظهورهم في إطار القطاع الطبي، وهذا رغم أنهم يقفون إلى جانب المجموعات التي أصابتها مصيبة، ويدعمونها ويبعثون معنًى جديدًا للحياة في نفوس الباقين منها على قيد الحياة؛ إذ إنّ عدم القدرة على رؤية جثة المتوفى وإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه يثير المخاوف لدى الناس من استبدال جثث الموتى، أو حتى إنكار موتهم.

4. التباعد

من بين التدابير الاحترازية التي اتخذتها الحكومات، لحماية مجتمعاتنا من هذه الجائحة، استحواذ التدبير الذي سمّي خط «التباعد الاجتماعي»، و«الحجر المنزلي»، على انتباه العلوم الاجتماعية. وقد غيرت حتمية «التباعد الاجتماعي» أساليب التفاعل المجتمعي، وأثارت أسئلةً عمّا تعنيه فكرة «أنْ تشكّل مجتمعًا»، ومن ذلك علاقات الثقة/ عدم الثقة بالآخرين، والمشاعر، وخصوصًا مشاعر انعدام الأمان. لقد ذكّرنا تباعد الأشخاص الاجتماعي أو المكاني بالحدّ الذي يجعلنا كائنات اجتماعية، تنسج روابط اجتماعية، على الرغم من تباعد المسافة، كما أظهر ذلك الاستخدام المكثف للوسائط الرقمية.

غير أنّ هذه الإجراءات الاحترازية الصحية خلقت شعورًا لدى الأفراد بالقطيعة مع المجتمع، حينما جرى حرمانهم من الاتصال الجسدي، أو حينما جرى اقتصار الاتصال الجسدي على ملامسة المِرْفق بدلًا من المصافحة باليد؛ وهذا ما أظهر أهمية التلامس في النظام الاجتماعي. كما كشفت تعليمات تجنب ملامسة الآخرين عن تفاوتات اجتماعية أخرى، شملت الأشخاص المكلّفين بتقديم الرعاية الصحية للآخرين، أو المضطرّين إلى التعامل مع المنتجات والمواد التجارية؛ إذ وجدوا أنفسهم مهدّدين بالإصابة بالفيروسات التي ينقلها من يتعاملون معهم في المحال التجارية. وقد أعادت هذه الأزمة إلى المشهد الاجتماعي أشخاصًا كانوا غير مرئيين، وكشفت عن أوجه تشابه بين مهن كانت قبل الأزمة غير قابلة للمقارنة، من بينها العاملون في المجال الطبي والعاملون في تجارة التجزئة. وقد أثار العرفان الرمزي بالجميل تجاه أعمالهم، من خلال التصفيق لهم أو تحسين رواتبهم، اهتمام العلوم الاجتماعية التي قيّمت مدى هذا التغيّر، ودلالاته، وأسبابه، وإمكانية الرجوع عنه.

كما تساءل الباحثون عن كيفية التعامل مع القواعد الاحترازية وتنفيذها: إلى أيّ مسافة يجب أنْ يقف الشاب بعيدًا عن الشخص المُسنّ، ويوازن بين الاهتمام بحمايته مع الحرص على تجنّب إعطائه انطباعًا متمثلًا في اعتباره مُسنًّا وضعيفًا؟ كيف يقوم أصدقاء بنزهة مشتركة ومسافة تفصل بينهم، في حين أنّه من المفترض أن يكونوا قريبين من بعضهم؟ كيف يتحدّث الناس مع بعضهم عن المسافة التي تفصل بينهم وهم يقفون في صفوف الانتظار؟ كيف يعرف الناس ما إذا كان في إمكانهم الاقتراب من بعضهم ضمن

تلك الصفوف، والثقة ببعضهم، وما إلى ذلك؟ يتعلق الأمر إذًا بتحليلٍ بناءً على تعديلات صغيرة، لكنها ذات مغزى، والطريقة التي يؤثر بها التباعد المكاني في التباعد الاجتماعي، أو الطريقة التي يعيد بها الناس إنشاء التقارب الاجتماعي، على الرغم من التباعد المكاني. يكشف الاضطراب الناجم عن التباعد المكاني عن آليّات كانت الحياة السابقة المنظمة روتينيًّا قد أنستنا إياها، ويدفع إلى التساؤل عمّا كان يشكّله الوضع القديم، فضلًا عن إعادة إنشاء المسافة الصحيحة، مع الحرص على تقليل الاختلافات وتخفيف سوء الفهم.

مع انتشار الجائحة، تسلّل الشعور بعدم الثقة إلى العلاقات الاجتماعية، بسبب احتمال وجود كائن ثالث غير مرئيّ، ألا وهو الفيروس الذي أصاب نظام العلاقات. وفقد النظام الروتيني القديم وضوحه، في حين أنّ النظام الجديد، الذي فرض تعليمات القواعد الاحترازية الجديدة، لا يقدّم جوابًا مقنعًا عن أسباب ذلك كي تصبح تلك القواعد طبيعيةً وتُنسى. لذلك، من الضروري دراسة أشكال الدعم التقليدية التي خلقت في السابق هدوءًا نسبيًا في العلاقات، وقدرةً على التنبؤ بالسلوكات وردود الأفعال؛ وهي أشكال دعم يجب أن يعيد الجميع، من الآن فصاعدًا، استكشافها ومفاوضتها واختبارها، لتحديد أفضل مسافة فيزيائيّة ينبغي تركها تجاه الآخرين في الشارع، وفي العمل، وضمن العائلة، وبين الأصدقاء.

يُعدّ الفيروس، بالنسبة إلى مجلّة **دراسات العلوم الاجتماعية** Social Sciences Studies، هذا الكائن غير المعروف جيّدًا، والذي تحوم حوله الشكوك، عاملًا يُحوّل البشر إلى مخاطر غير محدّدة؛ ما ولّد مخاوف موضعية خلال اللقاءات بين الأشخاص[41]. وهو مختلف اختلافًا كبيرًا عن الأوبئة الأخرى، مثل «زيكا» الذي ينتقل عن طريق البعوض، أو «الإيدز» عن طريق الشركاء الجنسيين. فالجائحة الراهنة، لا تُختَزل في مجرّد انتشار فيروسي، ولا في ذعر من القصص التي يتناقلها الناس بشأنها في ما بينهم؛ إذ المميّز فيها أنّ اللقاءات بين الناس تجري في وجود كائنات تظهر بأشكال مختلفة، وتتنقل على نحو مدمّر في بعض الأوقات من مكان إلى آخر، وهي في أوقات أخرى غير مُدمِّرة، وتتميز كذلك بالانقطاعات والتحولات. وينبع الخوف أحيانًا من الأعراض التي يجب أخذها على محمل الجدّ، وأحيانًا من العوامل المعدية، ولكن يأتي الخوف أحيانًا أخرى من احتمال أنْ يكون الشخص نفسه ناقلًا للمرض من دون أن تظهر عليه أعراض، أو أن يعرف أنّه يشكّل خطرًا على الآخرين. كما يصدر الارتياب من المعرفة بحجم الجائحة (انخفاض أو ارتفاع مستوى الاختبارات، والحالات غير المصحوبة بأعراض)، وبنواقل العدوى، وبالعواقب على الصحة والاقتصاد، وبحجم تعامل السلطات، مع ضرورات ملحّة متعدّدة؛ من ضمنها توفير الحلول. وقد زاد هذا الارتياب، حينما تدخلت الدول وفرضت إجراءات احترازية (الحجر المنزلي، والتباعد، وارتداء الكمامة)، فجعلت ذلك التهديد ظاهرًا وملحوظًا، وعززت الوعي به، وعدّلت السلوكيات على ذلك الأساس. ومن ثمّ، طرحت المخاوف التي أثارتها الجائحة تساؤلات عن المصير المأمول للبشرية وللكوكب، وعن الممارسات الجديدة التي يصعب معرفة ما إذا كانت ستستمر أم لا.

(41) Wesley Shrum et al., "Who's Afraid of Ebola? Epidemic Fires and Locative Fears in the Information Age," *Social Studies of Science*, vol. 50, no. 5 (2020), pp. 707–727.

5. الحجر المنزلي

استرعى الحجر المنزلي، وإغلاق الحدود أيضًا، اهتمام العلوم الاجتماعية؛ لأنّهما أثّرا في العلاقات بين الأشخاص. فقد خيّم صمت اجتماعي، واختفت الروابط الاجتماعية الثانوية والمصادر غير المتوقعة للمعلومات، من دون أن تُعوّضَها وسائل الإعلام الرقمية؛ ما أثر في الحياة الحضرية. وقد وقع الفضاء العام، أي مجال تبادل المجاملات والنقاش والحوار، ضحيةً لهذه الجائحة[42]، وأصبح حجر الشخص لنفسه بمنزله شعار المرحلة، لأنّ الخطر يحوم في الخارج؛ الأمر الذي كانت له عواقب وخيمة على الديمقراطية، وخصوصًا بشأن المشاركة في النقاش العام المباشر والتظاهر والمطالبة، وعلى الأشخاص المشردين أو المحشورين في منازلهم الضيقة، في حين امتلك آخرون منازل واسعة لها شرفات، وحولها حدائق، وسكنًا ثانيًا في الريف.

في المقابل، كسب فضاء الشبكات الرقمية في نشاطات مختلفة (الاستهلاك والترفيه والاحتجاج والتضامن والحفلات على الإنترنت)، من خلال تعديل حدود الخصوصية الشخصية؛ إذ أصبحت الشرفة فضاءً شبه عامّ، وعبر الأدوات الرقمية، تسلّل البعض إلى منازل الآخرين، وخصوصًا المعلمين والطلاب، والعكس صحيح، واكتشفوا أجواء مساكنهم. وهكذا وجّهت هذه التحولات العلوم الاجتماعية إلى إعادة تعريف الحدود، وإعادة رسم روابط التواصل الاجتماعي.

لكنّ التحدي الذي برز في ثنايا هذه التحولات هو فهم سبب امتثال الأفراد لإجراءات العزل. وكان إميل دوركهايم قد بيّن أنّه كي يتقيد الأفراد بتعليمات ما، بصفة طوعيّة، يجب أنْ تحظى تلك التعليمات بدعم اجتماعي. وبالفعل، أثار الخضوع الطوعي بدافع التضامن والحماية المتبادلة غضب الملتزمين به تجاه الأشخاص الذين لا يتقيّدون بالحجر المنزلي، أو الذين يتنزهون بكلّ هدوء، أو يتجمعون، متحدّين التعليمات العامة. ومن ثمّ، أتاح هذا الاضطراب في اتباع قواعد السلوك، التي تمّ إرساؤها للعلوم الاجتماعية، اختبار نظرياتها السوسيولوجية بشأن العلاقات بين الأفراد والمؤسسات في الحياة الواقعية. وكان دوركهايم قد رأى أنّ كلّ تغيير سريع جدًّا قد يؤدّي إلى الفوضى؛ أي إلى غياب المعايير المشتركة التي توفّر التماسك الاجتماعي.

6. الكمامة

أثار ارتداء الكمامة كثيرًا من الجدل حول فائدتها وفاعليتها، وطرح النقص في كميتها، في ربيع 2020، تساؤلات كثيرة. فقد اضطرّ عاملون في مجال الرعاية الصحية، يفتقرون إلى الحماية المطلوبة، إلى استخدام كمامات غير صالحة ورديئة وسريعة التلف، وسرعان ما أصبحت هذه الكمامات نفسها مصدرًا للعدوى؛ ما أدّى إلى اتخاذ تدابير جديدة تخصّ أساليب استعمالها وحفظها وتعقيمها.

أظهر تحقيقٌ استقصائي[43] أنّ مخزونات من أقنعة متقادمة ومنتهية الصلاحية، يرجع تاريخها إلى وباء الإنفلونزا A/H1N1، أعادت أطراف مختلفة طرحها للاستخدام عبر تبرعات من شركات وعائلات

(42) Bernard Debarbieux, "Distance sociale et confinement au temps du Covid–19," in: Gamba et al. (dir.), pp. 111–124.

(43) Cedric Calvignac, "Prolonger ‘l’espérance de vie’ du masque, ou comment les soignants ont pallié la pénurie," *Sciences et Avenir*, 30/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3blWWZC

ومرضى. كما أظهرت التحقيقات الاستقصائية السوسيولوجية أنّ حصول العاملين في الرعاية الصحية على الكمامات يعتمد على قوّة شبكة علاقاتهم. من ناحية أخرى، جرى تحويل معدّات وأدوات مشابهة، الكمامات المستخدمة في مجال البناء والنظّارات الواقية وغيرها، واستخدامها استخدامًا آخر في مجال الرعاية الصحية. يُضاف إليها الوسائل والتدابير التي لجأ إليها عاملون في الرعاية الصحية، وتعبئة مدارس الهندسة، ومتطوعون يجرون اختبارات وتقييمات، وصناعيون عدّلوا أساليب إنتاجهم لخدمة المرحلة الراهنة، وخياطات متضامنات، ومرضى ومقدّمو الرعاية الذين تحوّلوا إلى خيّاطين أثناء أوقات راحتهم. لقد انخرط هؤلاء الأشخاص في أعمال الهندسة العكسية؛ أي تفكيك الكمامات لمعرفة مبادئ تصنيعها وتصميم المنتجات المماثلة لها، أو مشاهدة النماذج والدروس التعليمية المنشورة على وسائل التواصل الاجتماعي حول كيفيّة التقيّد بالمعايير الرسمية للكمامات وتطبيقها، في حين شرح بعض مقدمي الرعاية لمرضاهم كيفية صناعتها واستخدامها. وكانت نتائج البحوث مدهشةً؛ إذ إنّها كشفت عن أنّ الحماية في البلدان «المتقدمة» ضعيفة، إلى حدّ أنّ العاملين في مجال الرعاية الصحية يضطرّون إلى خياطة كماماتهم بأنفسهم، أو يلجؤون إلى جهود عائلاتهم للقيام بذلك. وقد عبّروا عن سخطهم من عجز الدولة عن توفير الحماية المادية الأساسية اللازمة لهم؛ ما عرّض حياتهم للخطر.

لجأت السلطات في البداية إلى إقناع السكان بارتداء الكمامات في الشارع، ثم إلزامهم بذلك وإجبارهم عليه؛ ما اعتُبِر تدخّلًا في العلاقات الاجتماعية. وقد حذّر علماء الاجتماع من التغييرات الناجمة عن توحيد الوجوه(44)، أو وسمها بعلامة توحي بمسؤولية من يحملها تجاه الآخرين(45). وفي هذا السياق، أصبحت الكمامة أداة تعبيريّة تعكس اهتمام الشخص بنفسه وبالآخرين، وتُعبّر عن امتثاله للأوامر الهادفة إلى عدم انتشار الفيروس. وقد ثبت أنّ الكمامة تؤثّر في هويّة الشخص، لكنّها لا تحجبها؛ ما وجّه البحث نحو تحليل كيفية اختيار الكمامة وأساليب ارتدائها المتعددة، وطرائق التعبير بالعينين، وتجعدات الجبهة، وحركة الجسد، والصوت، والاهتمام المتزايد لدى مستعمليها بهذه العناصر. ورأى البعض في الكمامة أداةً بيوسياسية للسيطرة، وفي الوقت ذاته وسيلةً لتأكيد الذات واستعادة الرابط الاجتماعي الذي قد تكون شوهته(46)؛ ومن ثمّ أطلق باحثون اجتماعيون دعوات للأشخاص للإدلاء بشهاداتهم لفهم كيفية تغيير الكمامة العلاقات الاجتماعية(47). وهنا تبلورت عدّة مواضيع بحثية؛ منها عدم الثقة بالحكام الذين يغيرون خطابهم وفقًا لشحّ/ توافر الكمامات، وإيلاء الأهمية للأشياء الثانوية، وتغيير السلوك والظهور في صورة شخصية أخرى، وسهولة التباعد المكاني والمسؤولية

(44) David Le Breton, "Coronavirus:'Le port du masque défigure le lien social," *Le Monde*, 11/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2NuNHOT

(45) Jean–Sébastien Philippart, "Le masque défigure–t–il réellement nos rapports à autrui?" *Libération*, 29/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dBpnpq

(46) Franck Cochoy, "L'envers du masque," *ESPRIT* (Octobre 2020), accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2ZFLUt4

(47) "'Où en êtes–vous de l'utilisation des masques?' Ces sociologues ont besoin de votre témoignage," *Nice–matin*, 3/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3kbaw66

المدنية الصحية، والتقسيمات الاجتماعية، وسعة الحيلة أو طريقة تدبّر الأمور[48]. في وضعيات أخرى، أصبحت الكمامة التي تلقى الاستحسان بنسب مختلفة، تبعًا للظروف موضوعًا للسخرية، قبل أن تكون المعيار، عنصرًا ناقلًا للقلق يجعل الوباء مرئيًا ومكشوفًا للعيان، ودليلًا على الخضوع للنظام العام، وعائقًا أمام ضعيفي السمع؛ فلا يستطيعون قراءة الشفاه، وإكسسوار أزياء أو فكرة هدية جديدة للأعياد، وناقلًا للإساءة المموّهة عندما يشعر الشخص بأنّه الوحيد الذي لا يضع كمامةً، وناقلًا جديدًا للتلوث في الشوارع والبيئة ... إلخ. وهكذا صارت الكمامة، تلك الأداة الصحية، وسيطَ علاقات بين الأشخاص.

7. اضطراب الممارسات

قام الباحثون بتوثيق الطريقة التي يُعاد بها تشكيل النشاطات المختلفة، ولا سيما تلك التي ينتهجها العاملون في مجال الرعاية الصحية في المستشفيات، أو دور رعاية المسنين: الأخصائيون الاجتماعيون، ورؤساء الشركات، والمقيمون في هذه المؤسسات وعائلات المرضى أو المسنين، والأطباء العامُّون، وذلك في مجال فرز المرضى واختيارهم، وتنظيم غرف الانتظار، واللجوء إلى التطبيب عن بعد الذي يلاقي في الوقت نفسه انتقادات. كما بحثوا في مسائل التخلّي عن الرعاية الصحية، وفي ظواهر بناء مهارات اجتماعية جديدة أو نشاطات جديدة، بما في ذلك مساعدة المتطوّعين للأشخاص الضعفاء والمحجورين في المنزل، وكذلك أشكال ضبط النفس، والإيثار، والثقة/ عدم الثقة، والنزعة إلى التعاون والمشاركة المجتمعية والاستهلاك، وسلوكيات كرم الضيافة/ الممارسات التمييزية تجاه المنفيين[49].

أما في ما يتعلق بالنشاط البدني أو إدارة الصحة الشخصية أو الوزن، فقد ارتبطت الأوامر الحكومية بالتزام المنزل بتعليمات البقاء في صحة جيدة. وأنتجت مؤسسات كثيرة مقاطع فيديو تعرض فيها تمارين رياضية لدعم النشاط البدني في المنزل[50]. لقد غطّت المئات من المقالات الصحفية ومدونات الفيديو هذه الممارسات، فتحوّلت إلى مواضيع بحوث في العلوم الاجتماعية؛ وهكذا عكفت عالمة الأنثروبولوجيا كارولين نيزار Caroline Nizard على دراسة التفاوت الاجتماعي والجندري، والتغيّرات التي طرأت على السكان والعادات، وإعادة ترتيب الشقة السكنية، بهدف ممارسة اليوغا والتأمّل[51]. وقام مدربو اليوغا بتغيير طريقة التدريب عن بُعد باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي أو تطبيقات اجتماعات عبر الإنترنت، وارتفع عدد مقاطع الفيديو على الإنترنت الخاصة بـ «اليوغا والحجر المنزلي» من 27000، في آذار/ مارس إلى 190700، في أيار/ مايو 2020، فضلًا عن الروابط الخاصة التي تعزز العلاقة الشخصية بين المُدرب والمتدربين، فما عاد يستطيع المُدرب لَمْس المتدرب،

(48) "'Le masque symbolise des modes de vie chamboulés', un sociologue décrypte," *Nice–matin*, 1/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3shxsDA

(49) Yulia E. Chuvileva, Andrea Rissing & Hilary B. King, "From Wet Markets to Wal–Marts: Tracing Alimentary Xenophobia in the time of COVID–19," *Social Anthropology*, vol. 28, no. 2 (2020), pp. 241–243.

(50) على سبيل المثال: *Sports Universitaires Lausanne*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3shBKuN.

(51) Aman Dalal, "If You Can't Go Outside, Go Inside," *CO–VIES20*, 15/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/37BqUYI

أو الوصول إليه، لتعديل وضعيته كما كان يفعل من قبل؛ بالنظر إلى أنّ اليوغا تتطلّب كثيرًا من الدقة في وصف الإيماءات والأحاسيس.

كانت رياضة الجري قبل الجائحة من الرياضات المفضلة التي يمارسها الناس؛ لفوائدها الصحية وتأثيرها الضعيف في البيئة. فقد كان ممارسو مثل هذه الرياضة يجوبون الحدائق في لامبالاة عامّة، ومن دون إزعاج للآخرين. لكن مع تعليمات التباعد الجسدي المفروض، أصبح الناس ينظرون إلى ممارسي هذه الرياضة على أنهم أشخاص يهدّدون الصحة العامة، وأنانيون لا يتمتعون بروح المسؤولية والمواطنة، ويلاقون القليل من الاحترام من الآخرين الذين يخافون أنْ ينقل إليهم هؤلاء العدوى؛ ومن ثمّ أصبح استمتاعهم بممارسة رياضتهم المفضلة في الهواء الطلق غير الملوث بالسيارات عملاً شائنًا[52]. وهكذا تغيّر مفهوم ممارستهم لهذه الرياضة ونظرة المجتمع إليهم، واتهموا بالاستمتاع والاستفادة استفادة غير عادلة من الحالة السائدة، في حين أنّ الآخرين ملتزمون بالحجر في منازلهم. ومع رفع الحجر المنزلي، عادت السيّارات والتلوّث الصادر عنها يغزوان المدينة. وعلى نحوٍ مدهش، بدا أنّ ممارسي الجري وراكبي الدراجات الذين حُرموا مرّةً أخرى من الفضاء المكاني لممارسة رياضتهم يشكّلون تهديدًا أكبر. وبسبب النظر إليهم نظرات مشبوهة، أعادوا تجديد سلوكياتهم أثناء ممارستهم لها؛ من قبيل توقع عبور المشاة، وتغيير المسار، وارتداء كمامة لا تعرقل تنفّسهم. من كلّ ذلك تولّدت مهمة للبحث؛ هي فهم كيفية بناء المفاهيم والممارسات والعلاقات وتحوّلها، سواء أكانت بصورة دائمة أم مؤقتة.

لم تكن النشاطات الثقافية خارج تأثير الجائحة؛ فقد تم إغلاق قاعات الحفلات الموسيقية والمسارح والسينما والمهرجانات والمتاحف، وفي هذه الظروف بدأت العروض الفنية والخبرات الثقافية تعيد بناء نفسها تحضيرًا لمجتمع ما بعد الوباء[53]. كما اضطرّت الفِرق الموسيقية والكورال إلى تعديل تقاليد الغناء الجماعي بإدخال الكمامات والتباعد المكاني إلى هذه الفرق؛ ما غيّر النظام الصوتي بالنسبة إلى المغنين الذين فقدوا كثيرًا من التناغم الموسيقي المطلوب لتعديل أصواتهم. كذلك، فرض التباعد المكاني على قاعات الحفلات الموسيقية خفْض قدرتها الاستيعابية للحضور. أمّا العروض الموسيقية، فقد انتقلت من الإعجاب الجماعي، حيث يتنقل الجمهور ويتحدّث خلال العرض، إلى الاستماع بانتباه، والتأمل الصامت والشخصي الذي لا يتداخل مع العمل الموسيقي، ثمّ إنّ التعبير عن المشاعر يكبت في اللحظات المخصّصة للتصفيق. صارت الحفلات الموسيقية تُقدَّم فرديًّا عبر الإنترنت في أوقات محدّدة، وتجذب عددًا أكبر من المستمعين، مقارنةً بقاعات الحفلات الموسيقية، في حين تجمع العروض الجماعية، على شاشة تلفزيونية واحدة، موسيقيين محجورين في منازلهم؛ ما غيّر في التجربة الجمالية، وفي أساليب تعبير الجمهور عن انفعالاته (استخدام الرسائل والرموز

(52) Fabien Ohl, "Surveiller et courir: Les significations de la course à pied en temps de covid–19," *CO–VIES20*, 25/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2Nssd5o

(53) "Creating Cultural Experiences for a Post–pandemic Society," *DHCenter*, 19/5/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3duRs1A

التعبيرية التي تمر على الشاشة[54]، ذلك الجمهور الذي استعاد حقّه في عدم الانتظار حتى نهاية الحفل للتصفيق أو التعليق عليه، بل إنه يحضر الحفلة الموسيقية وهو يرتدي «بيجاما»، مستلقيًا على السرير.

ثالثًا: دراسة إدارة الجائحة

لفتت الطريقة التي تتعامل بها السلطات مع الأزمة انتباه باحثين آخرين عكفوا على دراسة النقاط التالية: العلاقات بين الأمم، وبين القطاعات الصحية والاقتصاد، وبين الفاعلين الاقتصاديين، وكذلك العلاقات في مجالات صنع القرار والاتصال والتثقيف الصحي.

1. إدارة الأزمة

جرى في بعض الأحيان تقييم كيفية تمثّل الوباء وإدارته على أنّه فشلٌ في السياسة العلمية، وذلك على الرغم من أنّ صانعي القرار قد أحاطوا أنفسهم بعلماء الأوبئة والأمراض المعدية، ومنحوهم وزنًا مهمًّا في صنع القرار. والواقع أنّ كفاءات هؤلاء العلماء لا تغطي مشكلات الصحة العامة، ومشكلات مجتمع أُصيب باضطراب عميق، ولم يناقش أحدٌ فرضياتهم وأساليب حساباتهم[55]، والحال أنّ خبراتهم تنحصر في عدد من المجالات فقط.

في بعض البلدان، تمكّن عدد أكبر من الخبراء من التحدث والإدلاء بآرائهم في الأزمة، والانعكاسات المترتبة على الاقتصاد والمجتمع، مشدّدين على المصلحة السياسية للتعبئة العلمية[56]. لذلك اتجهت بعض البحوث إلى تحليل وزن الجهات الاقتصادية الفاعلة والخبراء ووسائل الإعلام وأهميتها في صنع القرار السياسي. وقد استحوذت علاقات السلطة هذه على اهتمام العلوم الاجتماعية، التي درست طريقة اختيار الخبراء والأهمية التي تُعطى لهم، وتعليق العمل بالإجراءات الديمقراطية، وإبدالها بإجراءات أخرى غير ديمقراطية قد لا يمكن الرجوع عنها مستقبلاً، كما بحثت في طرائق ترجمة مشكلات علمية إلى مشكلات مجتمعية والعكس بالعكس، وكذلك عمليات التعلّم في مجال صنع القرار العام[57]. وأثّرت وسائل الإعلام ذاتها في هذه الديناميكيات، أحيانًا عن طريق نقل التصريحات الرسمية، أو من خلال استدعاء خبراء آخرين، تبعًا لتحالفاتهم الاقتصادية والسياسية والعلمية، أو نجاحهم الإعلامي. بل إنّها جعلت من بعض الأشخاص، أحيانًا، خبراء خارقين. كما أثارت النقاش في المشهد العام بشأن

(54) Miriam Odoni, "‘Trois coeurs bleus. et nous nous reconnaîtrons’. La musique classique au temps de la Covid-19," *CO–VIES20*, 15/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/37Dz1Uz

(55) Wolfgang Merkel, "Who Governs in Deep Crises? The Case of Germany," *Democratic Theory*, vol. 7, no. 2 (2020), pp. 1–11.

(56) حول تجاهل معطيات الصحة العامة الأخرى، ينظر:

Paul Sugy, "Vouloir arrêter une épidémie avec le confinement, c’est comme vouloir arrêter la mer avec ses bras," *Figaro Vox*, 6/11/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dx1z65

(57) Rachel Niehuus & Jason Stearns, "COVID–19: What can the United States Learn from the Democratic Republic of the Congo?" *Medical Anthropology Quarterly*, 6/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3pDCd93

الجائحة؛ ما ساهم في بناء المعرفة المشتركة، أو على العكس من ذلك، في إثارة الجدل والخلاف إلى حد إرباك وتضليل الناس الذين يتشبث بعضهم بنظريات المؤامرة، حتى إنّهم يتخيلون اللجوء إلى السحر الأسود ضمن هيئات صنع القرار.

كما عكفت أعمالٌ أخرى على دراسة استراتيجيات التواصل، والتواصل الحكومي (بين حالة الإنكار والموقف الوقائي والمُطَمْئِن)، وطريقة التحدث عن الأزمة (من عُيِّنَ مسؤولاً عن الجائحة، أو أخذ القرارات الملزمة، أو تخفيف القيود المفروضة)، وعمليات دفع الخبراء للظهور في المشهد الإعلامي، واللجوء إلى الشخصيات الشعبية لتمرير الرسائل المراد تمريرها، والتغطية الإعلامية، وعملية الإحصاء اليومية لحالات الإصابة بالعدوى، والحالات المنقولة إلى المستشفى والوفيات، مع إصدار أحكام نسبية بخصوص مشكلات الصحة العامة الأخرى التي لا علاقة لها بجائحة كورونا، أو من دون ذلك. لقد قام الباحثون بتحليل الرسائل على منصات التواصل الاجتماعي - بما في ذلك تغريدات الرئيس دونالد ترامب ومنظمة الصحة العالمية - والتعامل مع المعلومات المضلّلة والمخاطر على الحريات الديمقراطية، فجمعوا ملايين التغريدات وحلّلوا اختيار الكلمات (الحديث عن الحرب) وتأثيرات التسميات: «الفيروس الصيني» لـ (كوفيد-19)، و«المسافة الاجتماعية» عوضًا عن المسافة المادية أو التنظيمية، و«الحجر المنزلي»، و«الاحتواء»، و«الإغلاق» ... إلخ. واهتم آخرون بنشر المعلومات والأخبار الكاذبة والرسائل المثيرة للجدل، والعمل المشترك لإثبات الحقيقة في «ويكيبيديا»، وذلك عن طريق خوارزميات الإكمال التلقائي. وحلّل باحثون محتوى وسائل الإعلام التقليدية، في حين بحث آخرون عن المعلومات لدى الجمهور، واستهلاكه الإعلامي، وتمثله لوسائل الإعلام، في ضوء حالات التضليل، وردود فعله على الأخبار الكاذبة ونظريات المؤامرة، كما درسوا ظروف تلقي خطابات ممثلي الدولة والهيئات العلمية وقبولها، تبعًا لاختلاف الجمهور، إضافةً إلى الوثائق التي يحتفظ بها الناس من هذه الفترة الغريبة للاستشهاد بها في مستقبل البحوث.

2. التصوّر والتمثيل والتخيّلات والمواقف

تعتمد إدارة الجائحة على تصوّر المخاطر وتعليمات النظافة، والمعارف والتخيّلات والمواقف، والتزام السكان ودعمهم. وقد أظهرت الدراسات التي أجريت على خمس جائحات في القرن الحادي والعشرين (متلازمة الجهاز التنفسي الحادة، وإنفلونزا A/H1N1، ومتلازمة الشرق الأوسط التنفسية، ومرض فيروس إيبولا، وفيروس كورونا) أن الروابط بين المعارف وتصوّر المخاطر وإدراكها وتغيير السلوك تزداد تعقيدًا مع انتشار المفاهيم الخاطئة[58]. كذلك، تصبح المعرفة مثيرةً للشكّ والجدل بقدر ما يختلف تصوّرها وإدراكها، تبعًا للثقافات.

تعتمد الثقة الممنوحة إلى السلطات العامة والعلمية على القدرة على تقييم المعلومات ومصادرها، وتحسين إدراكها الشخصي وتنميته، وعلى حجمها الزائد ومضمونها المتغيّر والمتناقض. وهذه الثقة

(58) Umair Majid et al., "Knowledge, (Mis–)conceptions, Risk Perception, and Behavior Change during Pandemics: A Scoping Review of 149 Studies," *Public Understanding of Science*, vol. 29, no. 8 (2020), pp. 777–799.

لا تتوافر إلّا إذا كانت المعلومات من مصادر موثوقة تنقلها بطريقة مترابطة وتعكس تطوّر المعارف والأسئلة التي لم يتمّ حلّها بعد. ولمعالجة هذه النقطة، ركّزت الأبحاث على المفاهيم الخاطئة بشأن العدوى، وطرائق انتقالها (الاتصال بين الأشخاص، والهواء، والأشياء، والمواد الغذائية، والحيوانات، والسحر، والفضلات، وانتشارها على امتداد مسافات طويلة أو على الأمد البعيد)، كما ركّزت على الأعراض والوفيات وأنواع الإنفلونزا، والمنشأ والأسباب الحقيقية والمتخيلة، وكذلك على العلاجات الطبية التي صدّقت عليها الهيئات المسؤولة أو لم تصدّق، ومنها الروحية أو الجسدية؛ مثل السباحة في المياه المالحة، ودخان التبغ، وما إلى ذلك.

طرحت أبحاث أخرى أسئلة عن هذه الجائحة التي لم تخطر على بال أحد، على نحو يهزّ الحياة ويعطّلها ويسبّب الإرباك والحيرة: كيف وصل الكائن البشري بغطرسته إلى هنا؟[59]. وقد حلّلت الأبحاث تخيّلات الناس وأوهامهم عن فيروس كورونا وتصوراتهم المتعلقة به، وكيف أنه سيتطوّر في المستقبل، وقد عرّفها عالم الأنثروبولوجيا أرنو هالوي كما يلي[60]:

أ. مُتخيَّل نهاية العالم: العوامل المسببة للأمراض غير المرئية، التي تقفز من جنس حيواني إلى آخر (من الحيوان الحاضن، الخفاش، إلى المريض صفر)، وتهدد جنسنا البشري بالانقراض أو حضارتنا بالاندثار. تغذّي هذا المتخيل ذكريات الإنفلونزا الإسبانية (50 مليون حالة وفاة).

ب. المُتخيّل البيئي: يتعلّق باستغلال رأس المال للموارد الطبيعية، وما يترتب عليه من انتقال الأمراض الحيوانية المصدر والفيروسات المتحوّرة إلى البشر الذي يرتبط مصيره بطبيعة يستغلها وينتقم منها. هنا اكتشف البشر هشاشة مجتمعهم والسرعة التي يمكن أن ينهار بها.

ج. مُتخيّل الحرب: تغذيه خطابات السلطة العامة الداعية إلى التعبئة الشاملة، وإلى الحجر المنزلي وتقييد الحريات الفردية، وحظر التجول كما كان الحال خلال الحرب العالمية الثانية، وكل هذا ضدّ عدوّ غير مرئي من الصعب الإمساك به، لكنّه يتجوّل بين البشر؛ ما فرض تعقّب العلاقات بين المواطنين عن طريق تقنيات جرى تصميمها وتصنيعها في الصين، أو في إسرائيل، بهدف تعقب ما تعتبره إرهابًا.

د. مُتخيّل الصيد: استحضره الفحص الواسع النطاق بهدف تتبع انتشار الوباء، وبرامج البحث الدولية التي جمعت بين علماء البيئة ومراقبي الطيور البرية والأطباء البيطريين والأطباء البشريين، وعلماء الأحياء، وعلماء المعلومات الحيوية، وعلماء الاجتماع، وقد كان جميع ذلك من أجل تعقّب الفيروسات وطفراتها التي تتسبب في الأوبئة جديدة.

(59) Julie Hermesse et al., *Masquer le monde: Pensées d'anthropologues sur la pandémie* (Louvain– la– Neuve: Academia, 2020).

(60) Arnaud Halloy, "Les imaginaires du coronavirus," *CO–VIES20*, 15/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3uwhcRk

هـ. المُتخيّل الرعوي: استحضر بشأن الدول التي تؤدي دور الراعي الصالح، الحريصة على حماية السكان من خلال إغلاق حدودها. لكن الذئب موجود في حظيرة الأغنام، وأصبح المطلوب بمنزلة ذبح جماعي، كما هو الحال بالنسبة إلى جنون البقر أو إنفلونزا الطيور، وقد وافقت السلطات السياسية في البرازيل وعلماء الأوبئة في السويد على التضحية بجزء من السكان لإنقاذ البلاد واقتصادها.

و. المُتخيّل الوبائي: يختزل تعقيد التفاعلات بين البشر والحيوانات والفيروسات في بؤر محتملة لانتقال العدوى. وهكذا، وفقًا لهذا المتخيل، ينطلق الشر الذي قد يؤدي إلى نهاية العالم، وينبغي لنا أنْ نحمي أنفسنا منه بترسانة الرعاية الصحية.

رابعًا: طرائق العمل المتدهورة وصمود المنظّمات

يصيب الوباء السلوكيات والتفاعلات الفردية بالاضطراب والخلل، ويصيب كذلك المنظّمات التي ترزح تحت الضغط والمهدّدة بالانهيار. بالنسبة إلى علماء اجتماع المنظّمات، يتيح هذا الاضطراب دراسة طرائق استجاباتها. لقد أصبح الروتين الفعّال فجأةً غير ملائم، فقامت الجهات الفاعلة بعملية جرد لمنظماتها؛ ومن ثم وضعت لها أساليب عمل اضطرارية[61]. وبدأ البعض منها يستعد مسبقًا للحفاظ على جوهر المهمة، من خلال خطط طوارئ لاستمرارية العمل (المستشفيات والكهرباء والنقل)، وابتكر آخرون ممارسات جديدة (إجراء فحوصات للناس على الطرقات في سياراتهم، وبث مقاطع فيديو إلى عائلات الأشخاص الذي يعالجون في المستشفيات ... إلخ)، أو شرعوا في الحثّ على العمل عن بُعد، والتعليم عن بُعد، والتطبيب عن بُعد، والخدمات المصرفية عن بُعد، والتجارة الإلكترونية ... إلخ؛ ما أدّى إلى جعل المستخدمين يجرون تقييمات نقدية بشأنها. وهكذا كشف التحوّل إلى نمط التشغيل الاضطراري عن جوانب منسيّة في سير العمل، وعن أوجه الخلل الموجودة فيه سابقًا، لكنّها لم تكن تُلاحظ. وعزّز هذا بدوره حرية التعبير، وفتح الباب للتغيير وابتكار طرائق جديدة للقيام بمهمات يمكن الاستمرار فيها بعد انتهاء الأزمة. لكن المواقف تختلف بحسب نوع التنظيم؛ فلا تتفاعل البيروقراطيات، بتنظيمها العقلاني للعمل وخططها وقواعدها وإجراءاتها بالطريقة نفسها التي تتفاعل بها المنظمات التي تنشأ بسرعة وبصفة ديناميكية في سياقات محدّدة؛ إذ إنّها معتادة تنظيم نفسها حول خطط.

كما أصابت كوارث أخرى المنظّمات وعطّلتها: حروب، وكوارث صناعية وطبيعية (تسونامي، وزلازل، وموجات حر شديدة، وحرائق)، وهذه الكوارث كلّها ساهمت في استخلاص الدروس والعِبَر التي تساعد على توقّع سيناريوهات لأحداث يمكنها وضع تنظيم المجتمع وعلاقاته العالمية موضوع سؤال (تدفق الأشخاص والسلع والمعلومات والمعاملات المالية). ولقد دفع هذا الأمر العلومَ الاجتماعية إلى حشد طاقاتها من أجل دراسة هذه القضايا.

(61) Mathilde Bourrier, "Le mode dégradé à marche," in: Gamba et al. (dir.), pp. 83–98.

تضع المنظّمات الصحية إطارًا للمراقبة على مستوى العالم، عن طريق شبكات المراسلين الإقليميين، والمختبرات المرجعية، وأنظمة التحقق، ونشر التنبيهات والمعلومات، فضلاً عن التعاون الدولي. وتتضمّن جداول أعمال هذه المنظّمات الاستعداد لمواجهة الأوبئة التي يُعتبر انتشارها على درجة عالية من الاحتمال، بدايةً من ظهور فيروس سارس عام 2003؛ ما أدّى إلى زيادة الوعي الدولي بمثل هذه المخاطر. وقد جرت العودة إلى برامج مكافحة الإنفلونزا التي استخدُمت في الخمسينيات، وتم تحويلها إلى خطط عمل دائم لكلّ مؤسسة عامة أو خاصة ذات صلة بالبنية التحتية الأساسية (المياه، والكهرباء، والقمامة، والصحة، والغذاء، والآن البنية التحتية الرقمية). ولم تكن هذه الخطط، في الحقيقة، دائمًا على درجة كبيرة من التنسيق، وقد أدّى غياب الأوبئة إلى تراجع درجة اليقظة التي كانت تقوم عليها، فبدأت تعبئة الموارد أمرًا مبالغًا فيه من وجهة نظرها، واتهمت ثقافة الحذر والحيطة سياسة تعبئة أقصى ما يمكنه من موارد بأنه تبديدٌ للمال؛ ما أدّى إلى ظهور استراتيجيات الضغط على المصاريف. وفي سياق هذا التذبذب بين فكرتَي الهدر والضغط على المصاريف، ظهر نقص الكمامات والمعدّات والموارد البشرية والمعرفة المناسبة الضرورية لمكافحة الجائحة. يُضاف إلى هذه الكارثة استراتيجيات السلطات الإعلامية التي تُخفي نقص استعدادها في مجابهة الجائحة من أجل حفظ ماء الوجه، وذلك بنشر فكرة الخلافات ونظريات المؤامرة، وبحثها دائمًا عن كبش فداء، وعدم القدرة على الجمع بين معارف من اختصاصات مختلفة. والحقيقة أنّه في حالات طوارئ كهذه، يجري عادةً تفعيل الإجراءات الاعتيادية، أو الخطط القديمة بلا تعديل، ومن دون أخذ وقت كافٍ للتداول والتحاور في ما قد يؤدّي إلى تعديلها وجعلها ملائمة ومناسبة.

مع ذلك، أظهرت دراسات أُجريت على الكوارث الكبرى أنّ عددًا من المنظمات أبدت مرونة وقدرة على التكيّف؛ لأنّها اهتمّت بالأحداث، وتجنّبت التراخي والتهاون، وعزّزت التعلم من التعقيدات[62]، وأعطت المتعهدين قيمةً كبيرة، واهتمت بالأشياء والمعلومات التي ينقلونها، ونمّت التنوع والاستكشاف في مواجهة المواقف غير المتوقعة.

1. استمرارية التدريس

انتقل التعليم من مفهومه التقليدي إلى التعليم عن بُعد، وقد تطلّب ذلك جهودًا ضخمة من المعلّمين والأُسَر. فاستجاب المعلمون استجابة سريعة لهذا الموقف الجديد، من خلال العمل على إتقان استخدام أدوات مختلفة، وإعادة النظر في ممارساتهم وسلوكياتهم وأعمالهم، والاعتماد على جهود أولياء التلاميذ، والتكيّف معهم ومع تجهيزاتهم، والتفكير في التحديات التي قد يواجهونها. ومع ذلك، ظهرت تفاوتات كبيرة وحالات توقف عن الدراسة؛ ما جعل التدهور التدريجي لنظام التعليم يصبح أمرًا ملموسًا وظاهرًا للعيان (التخلي عن النموذج، والمُثل الديمقراطية، وتقليل الاختلاط الاجتماعي، والاستعانة بمصادر خارجية لمعالجة صعوبات التعلّم بالنسبة إلى الطلاب)، وأدّى هذا الأمر إلى تفاقم

(62) Dominique Vinck, "Learning Thanks to Innovation Failure," in: Benoît Godin & Dominique Vinck (eds.), *Critical Studies of Innovation*: *Alternative Approaches to the Pro–Innovation Bias* (Cheltenham: Edward Elgar, 2017), pp. 221–239.

آثار الجائحة والحجر المنزلي[63]. أمّا بالنسبة إلى عائلات الطبقة العاملة، فكان الانقطاع عن التعلم مأساويًا في بعض الأحيان؛ إذ اجتاحت المدرسة والتعليم حياتها اليومية، وواجه الأولياء صعوبة في فهم تعليمات المعلمين.

في الجامعة، ولَّدَ التعليم عن بعد شعورًا بافتقاد الصف الدراسي عند الطلاب، أمّا الامتحانات وقواعد المراقبة الهادفة إلى الحدّ من الغش فقد اكتسبت أهمّيةً غير عادية. وترافق كلّ ذلك مع مسألة الكشف عن الوسط الذي يعيش فيه الطلاب وخضوعهم لنظرة الآخرين المعيارية.

2. التتبع

لإدارة الوباء، أنشأ علماء الأوبئة والحكومات نظام تتبع الاتصال لكسر سلاسل انتقال الفيروس. وهذا العمل تطلب جهدًا كبيرًا من العاملين الذين يتواصلون مع المصابين لإعادة تجميع عناوينهم ومعلومات اتصالاتهم وتحذير الأشخاص المعنيين. كما ظهرت العديد من مشاريع التكنولوجيا الرقمية، مستفيدةً من الانتشار الواسع لاستخدام الهواتف الذكية. وتختلف طبيعة التتبع وكيفيات تنفيذه وفقًا للتقنيات والبلدان، وهي بذلك أقلّ، أو أكثر، تدخلاً في الخصوصية، وموثوقة وآمنة وشفافة. وبما أنّ مصدر عدد من هذه التكنولوجيات كان مجال مكافحة الإرهاب، فإنّ معظمها أثار قضايا الثقة، وحماية البيانات، وقابلية الانعكاسية التي طُرحت للنقاش في بعض الأحيان على العلن. والواقع أنّ هذه التطبيقات تتحدّى ديمقراطية التطوّر التقني؛ لأنّها تحمل مشاريع سياسية وتُحيل إلى إشكالية مراقبة السكان. وليس لهذه التطبيقات فاعلية، إلّا إذا استخدمت على نطاق واسع؛ فهي تتطلّب دعمًا والتزامًا شعبيًا وشكلاً من أشكال المواطنة التعاونية والامتثال للتكنولوجيا الرقمية والخضوع لها. كما أنّ الأوامر الصادرة لتحميل التطبيق تكون مصحوبة بمكالمات وروايات تشدّد على التضامن، وتُحمِّل الناس المسؤولية كاملةً، بينما تُستخدم عادةً هذه الأنظمة التقنية في المراقبة بسرية عن بُعد لمنع وقوع الجرائم. وقد واجهت عمليات النشر التكنولوجي هذه بعض التحفظات فكانت نتائجها متواضعةً، في حين انتشرت المجموعة الضخمة من البيانات والمعطيات الخاصة بالأشخاص التي تستخدمها انتشارًا واسعًا، وتمّ تعميمها على المنصات الخاصة التي تستفيد منها لتوجيه السلوك عبر خوارزميات التوصية، والتنميط، والاستهداف.

لقد أدّى تحليل هذه النظم والأجهزة الذي قامت به العلوم الاجتماعية إلى تحديد المخاطر التي تتعرض لها الحريات الفردية، وأشكال التمييز التي تنجم عنها، والعمى الاجتماعي الذي يصيب هذه النظم والأجهزة؛ ما يمنعها من مراعاة بيئة الأشخاص خارج البنية المادية والشبكات الاجتماعية التي تُحيل إليها[64]. فهي تختزل مفهوم المستخدم المتماهي مع مُصمّمي هذه النُّظم والأجهزة في أعضاء الطبقة الوسطى، المجهزين تجهيزًا جيدًا، والذين لا يقتربون كثيرًا من الناس، والذين يمكنهم العمل

(63) Stéphane Bonnéry & Étienne Douat (dir.), *L'éducation aux temps du coronavirus* (Paris: La Dispute, 2020).

(64) Laurence Kaufmann & Manon Jendly, "Corona, vous avez dit Corona? Il y a une appli pour ça! Pour une repolitisation des dispositifs," *CO–VIES20*, 6/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3dBdbEU

عن بُعد ويتصرفون بروح «التضامن». أما بالنسبة إلى الأشخاص الذين يتعيّن عليهم استخدام وسائل النقل العام المزدحمة للوصول إلى عملهم، فإنّ التطبيق المصمّم قد يُصدر إشعارات وفائضًا معرفيًّا وضغطًا، من خلال تنبيههم ودعوتهم إلى إجراء اختبار الفيروس، أو عزل أنفسهم، من دون اعتبارٍ لحاجاتهم ووظائفهم.

وهكذا، فإنّ هذه النظم والأجهزة التي يفترض كلّ منها أنّ الأفراد أخلاقيون أو إيثاريون ومسؤولون، أو أنانيون ومجرمون، بغضّ النظر عن المواقف التي يجدون أنفسهم فيها، تضع هؤلاء الأشخاص في مواقف غير محتملة؛ إذ يصبح سلوكهم غير أخلاقي إذا لم يتبعوا التعليمات. إنّها تُفَرِدن الناس كما لو لم يكن هناك مجتمع، وتنيط بعهدتهم مهمة القطع مع قنوات التواصل، ومع بيئة حياتهم العادية، وتنتظر منهم في الوقت ذاته أن يكونوا ودودين. يعبر مصمّمو هذه التطبيقات عن خيال التقنيين ويُحمِّلون الأفراد مسؤولية عواقب الجائحة. وبفعلهم هذا، يغطّون على نقص الموارد المادية والبشرية الكافية في أنظمة الرعاية الصحية نتيجةً لسنوات من السياسات العامة الليبرالية، الجديدة والقصيرة الأمد، التي تهدف إلى تقليل التكاليف، بدلًا من رفع قدرة المجتمع على المواجهة والتكيف. إنها تغطي على المسؤوليات السياسية، في حين أن النقاش التقني القانوني الذي يدور بشأنها يصرف الانتباه عن سياسات الحماية الاجتماعية والصحية وأعمال الشركات الكبيرة. وتبعًا لذلك، حاولت هذه السياسات دفع العلوم الاجتماعية إلى اختزال نشاطها في دراسة مدى قبول نظم التتبع، وهو ما يثير كثيرًا من الأسئلة الإبستيمولوجية.

خامسًا: السياسات العامة والتضامن والديمقراطية والنظام العالمي

في حين تختبر الأزمة الصحية السياسات العامة والمؤسسات الديمقراطية والتضامن، تدرس العلوم الاجتماعية ما تكشفه الجائحة عن حالة الأنظمة الصحية، وقدرتها على استباق الأحداث، والعلاقة بين قوانين الطوارئ الصحية والمبادئ الديمقراطية، ومدى انخراط المعنيين بمجال الصحة والسكان في عملهم، وأشكال التضامن والتعاون الدوليين، فضلًا عن التنسيق بين الأنظمة الصحية الوطنية والمنظمات الدولية والجهات الفاعلة الخاصة بما في ذلك المؤسسات، كما تدرس القضايا السيادية.

في مجال البحث والابتكار، حشد الوباء باحثين من جميع التخصصات، وقامت الدراسات العلمية والتقنية بتحليل إجراءات تسريع البحث وإعادة توجيهه، والآثار المترتبة على البحث التعاوني خصوصًا. وقد تناولت هذه التعبئة البحث والتطوير الصناعي للمجموعات الدولية[65]. ومن ضمن ذلك الصناعات الدوائية، ومشاريع اللقاحات[66]، والشركات التي تعيد تخصيص أجهزتها وتوظيف معارفها لتلبية الاحتياجات العاجلة (الكمامات، والمعقم الكحولي المائي، وأجهزة التنفس

(65) Scott E. Page, "The Coronavirus and Innovation," *Items*, 23/7/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3aFhIEs

(66) Heidi Yoston Lawrence, *Vaccine Rhetorics* (Columbus: Ohio State University Press, 2020).

الاصطناعية)، كما شمل ذلك الباحثين الذين يسرِّعون عملية نقل التكنولوجيا، وطلاب الهندسة في الشمال، وفي الجنوب، الذين انخرطوا في ماراثون هاكاثون Hackathon للبرمجة والاختراع (مثل فتح الأبواب آليًّا من دون استخدام اليدين، وأجهزة التنفس المنخفضة التكلفة، وخوارزميات معالجة البيانات)، وغير ذلك من الجماعات العلمية. كما أُقيمت منشآت صناعية لإنتاج اللقاحات وخطوط لوجستية لنقلها وتوزيعها، وازداد ازديادًا كبيرًا استخدام أدوات الاتصال لعقد مؤتمرات الفيديو والبث المباشر.

وتحوم الشبهات حول طريقة إدارة الأزمة؛ من جهة أنّها تهدّد حركة التنقل، وتمنع المظاهرات الجماعية، وتعطّل الديمقراطية من خلال تهديد الحريات الخاصّة والعامّة. لذلك، ركّز باحثون على دراسة التحديات التي تثيرها إدارة الطوارئ، وعلى آثار ما بعد الجائحة: مركزية القرارات وعودة ظهور الأنظمة الاستبدادية، وإدارة الطوارئ البديلة، وزيادة الأخطاء والمظالم، وشروط التضامن الدائم، وحدود الدولة القومية[67].

ويدرس باحثون آخرون تأثيرات الأزمة في التضامن والتعاضد والتعبئة، وتأثيراتها في الاستجابات المجتمعية. ففي الجزائر على سبيل المثال، تحرّكت الجماهير وشاركت في الحراك منذ عام 2019 لإعادة بناء الروابط الاجتماعية، وحين توقفت المظاهرات بسبب الجائحة، بدا أنّ نسيج العلاقات استمر وشكّل ركيزة مجتمع جديد في الوقت الذي بدت فيه الهيئات الحاكمة غائبةً[68]. لقد تجاوزت الديناميكية التعاضد، أو المساعدة المتبادلة، في مستواهما البسيط وغذّت الخيال السياسي الخلاق. فقد أنتج طلابٌ المعقّماتِ وزوّدوا المستشفيات بها، وقام آخرون بتعقيم الشوارع، وقدّموا المساعدة إلى الفئات المحتاجة، وبيّنوا للمتقاعدين في أوقات استلام رواتبهم ضرورة التباعد المكاني، ووزّعوا الكمامات على شرطة المرور، ووزّعوا منشورات تحثّ على التقيّد بالقواعد الصحية الواجب اتباعها؛ للحدّ من انتشار الفيروس. بينما لاحظ باحثون آخرون في مناطق مختلفة من العالم كيف انبثقت من الجائحة ديناميكيات جديدة لإعادة تركيب المجتمع من منظور هوياتي، واستغل الحراك الجائحة لإعطاء زخم لحياة ديمقراطية وعملية يمكن أنْ تقاوم القمع.

لقد أصبحت العلاقات الدولية أيضًا موضوعًا آخر للدراسة من منظور إدارة الجائحة. فإدارة الجائحة تهدّد الاقتصاد العالمي والسياسات الوطنية والدولية، وقد يتغيّر النظام العالمي على امتداد فترة طويلة بسببها. لذلك، قام اختصاصيون في العلاقات الدولية في مجالات الصحة العامة والاقتصاد والأمن والتكنولوجيا والديمقراطية والحوكمة برسم رؤى لما يمكن أن يكون عليه النظام العالمي الجديد[69]. وظهر أنّ مبدأ تعددية الأطراف الذي يفقد من سرعته لصالح مبدأ ثنائية الأطراف، وكذلك سلطة

(67) Afsoun Afsahi et al., "Democracy in the Time of COVID–19," *Democratic Theory*, vol. 7, no. 2 (2020), pp. v–xix.

(68) Marion Belhadj, "'Le peuple porte le peuple: Echaab yrfad echaab," *CO–VIES20*, 22/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3ugWvZz

(69) Hal Brands & Francis J. Gavin (eds.), *Covid–19 and World Order: The Future of Conflict, Competition, and Cooperation* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2020).

الحروب التجارية وتفعيل وسائل المعاملة بالمثل، وواقع المجموعات الاقتصادية الكبيرة المتعددة الجنسيات، كلّها ظواهر تشكّل تحذيرًا كبيرًا للسياسات الدولية.

1. تحولات المجتمع

يتعلق السؤال الذي يُطرح الآن بالتأثيرات الإجمالية للأزمة الصحية، والتغيرات الهيكلية الجارية، ومستقبل ما بعد الجائحة الذي هو في طور التشكّل.

لقد أصبح التعافي بعد مرحلة جائحة فيروس كورونا موضوع بحث[70]. هل ستعتاد مجتمعاتنا التعايش مع مخاطر الجوائح المحتمل جدًّا وقوعها في المستقبل، ومع مخاطر بيئية ومنظوماتية متعلقة بالتكنولوجيات المتشابكة؟ يتسم مجتمع المخاطرة باستحالة إدارة المشكلات محليًّا، وبانتشار المخاطر انتشارًا سريعًا (تسلسل الأخطاء والأعطال)؛ ما يعني ضرورة التفكير في الحداثة بطريقة مختلفة[71]. فبعد الإنفلونزا الإسبانية، أُطلقت أنظمةٌ عالمية للمراقبة الوبائية إضافةً إلى برامج التطعيم؛ وبذلك جرى قياس المخاطر المحدّدة والإبلاغ عنها، من دون التسبّب في إثارة الذعر والهلع. لكنّ جائحة فيروس كورونا أظهرت محدودية التعاون الدولي، وعدم وجود سياسة صحية عالمية، في حين تواجه سياسات التنمية المستدامة صعوبةً في تحقيق أهدافها. وهنا وجب أن تتعايش المجتمعات مع المخاطر، من دون القضاء على أيّ علاقة ثقة أو رابطة اجتماعية أو إنسانية، ومن دون انتظار الدول أو العلوم حلاًّ لهذه المشكلات. لقد بدأت أشكال التفكير الانعكاسي حول الممارسات وأشكال التنظيم السارية تتطور فرديًا وجماعيًا، ومع تباطؤ الاقتصاد وتفاقم التفاوت الاجتماعي، فإن العلوم الاجتماعية اليوم مدعوّة إلى إعادة التفكير في نظرياتها للمساهمة في خلق عوالم جديدة[72].

2. مكانة العلم في المجتمع

رغم أنّ الخبراء هُمّشوا في مسألة التغيّر المناخي وأُسنِد إليهم دور ثانوي في إدارتها، فإنّ الحكومات أسندت إليهم، بعد ذلك، دورًا كبيرًا في اتخاذ القرارات خلال جائحة فيروس كورونا. لكنّ هذا الأمر جرى من دون أن تناقش أمام الرأي العام اختصاصاتهم والمجالات التي استدعوا إليها للاستفادة من خبراتهم، كما ذكرنا من قبل. بيد أنّ الشأن لم يكن هو ذاته بالنسبة إلى باحثين آخرين؛ إذ لم يَجرِ الاستماع إلى آرائهم بالقدر نفسه، وخاصة الباحثين في العلوم الاجتماعية والصحة العامة.

وفي هذا السياق، فإنّ الفضل يعود إلى جائحة كورونا في إبراز أهمية بعض العلوم، وفي تحفيز المجتمع إلى الاهتمام بالبحوث الجارية بشأن شتّى الميادين، والجدالات العلمية، وظروف إنتاج المعرفة وتقييمها. لقد شكّلت هذه الجائحة لحظة ثقافة علميّة فارقة؛ فالثقة بالعلوم لم تقوَّض، على الرغم من التغطية الإعلامية التي أدّت إلى الخصومات ودفعت المتابعين إلى اللجوء إلى النظريات

(70) في هذا السياق، دعت شبكة الجامعات العالمية إلى تقديم مشاريع التعافي المستدام.

(71) Ulrich Beck, *Risk Society: Towards a New Modernity* (London: Sage, 1992).

(72) Alondra Nelson, "Society after Pandemic," *Items*, 23/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/3bxp1xv

المبسطة أو المتحدية. وفي هذه الظروف، بدت المعارف الجديدة ضعيفةً وجزئيةً، وتعاملت السياسات مع الأزمة على أساس هذه المعارف. وهكذا بان مرّةً أخرى أنّ دعم المؤسسات البحثية شرط ضروري من شروط تحقيق الجودة والقدرة على اتخاذ القرار في حالة الأزمات والطوارئ.

3. جغرافية البحث

لقد أظهرت الجائحة كيف حُشد الباحثون، وكيف أُنشئت آليات تعاون دولي في المجال. وفي حزيران/ يونيو 2020، تجاوزت الولايات المتحدة الصين التي تُعتبر بؤرة الوباء، والمصدر الرئيس للمعلومات، بشأن فيروس كورونا المستجد[73]. وفي هذا السياق، أتاحت دور النشر الكبرى المتخصصة في الطبّ الحيوي، على نحو استثنائي، إمكانية الوصول إلى منشورات هؤلاء الباحثين. وازدادت أهمية التنافس العلمي والوصول إلى آخر النتائج، لأنّ تطوير اللقاحات والعلاجات كان على المحكّ؛ ما أدّى إلى إثارة الشكوك في حالات من الاحتيال والأخطاء، وسَحْب بعض المقالات[74]. وأدّى الضغط أيضًا إلى تسريع تقييم المنشورات، فأصبحت تجري أحيانًا خلال 24 ساعة، بدلًا من عدّة أسابيع. ومن جانبهم، شرع علماء جغرافيا العلوم في تحليل مصدر المنشورات: أيعكس توزّعُها جغرافية الجائحة أم مراكز ومخابر علوم الفيروسات؟ وقام علماء اجتماع العلوم بتقصي التطور الجاري في هذه البحوث[75]. فبعد الذروة التي بلغتها جائحة سارس في عام 2004، توقفت الأبحاث عن تطوير اللقاحات. أما في حالة جائحة فيروس كورونا، فقد استعاد النشر نشاطه بنسبة 30 مقالًا يوميًا بين كانون الأول/ ديسمبر 2019 ونيسان/ أبريل 2020. وفي البداية، هيمنت اختصاصات الطب العام، وعلم الفيروسات، والأمراض المعدية، وعلم المناعة، وعلم الأحياء الدقيقة، والتصوير الطبي، والأمراض الاستوائية، ثم جاء دور طب الأطفال وعلوم الأحياء والعناية المركزة، في حين تراجع طب المناطق المدارية. وفي أيار/ مايو، برز اختصاص التخدير والأمراض الجلدية، بينما تجاوز الارتفاع الذي طرأ على اختصاصات الأشعة الطبية والتصوير، وعلى الصحة العامة، الارتفاع الذي شهده علم الفيروسات في حدّ ذاته. كما ظهرت مجلات جديدة تقييمها العلمي مفتوح للعامّة؛ ما أمّن نجاحها في أوقات الأزمات. وهكذا، كشفت العلوم الاجتماعية عن تطوّر العلاقات بين مجالات البحث والبلدان والمجلات وشبكات التعاون المختلفة، مُظهرةً – على سبيل المثال – أنّ الحكومة عكفت على تشجيع النشر في المجلات الوطنية في حين كان الثقل النسبي للصين في البحث يتهاوى.

4. مكانة العلوم الاجتماعية

على الرغم من حشد العلوم الاجتماعية سريعًا كل طاقاتها لإنتاج المعرفة حول ما كان يجري في العالم، فإنّها قلّما ظهرت في وسائل الإعلام وهيئات صنع القرار. وفي هذا الوقت، تعامل علماء

(73) Marion Maisonobe, "Où se font les recherches sur le Covid–19," *GéoScimo*, 15/6/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/37DYf5f

(74) *Retraction Watch*, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2NmDUdY

(75) "Chronique d'Yves Gingras: La science au temps du coronavirus," *Radio–Canada*, 12/4/2020, accessed on 22/2/2021, at: https://bit.ly/2Mbxo96

الأوبئة وعلماء الفيروسات خلال هذه الجائحة مع السلوك البشري والعاطفة واللاعقلانية والمسافة الاجتماعية والجوانب الثقافية. وإضافة إلى ذلك، استحوذت علوم الحياة على التمويل الاستثنائي الممنوح من دون أن تقدّم الحلول التكنولوجية الناجعة لأزمة مجتمع يهتزّ بأسره. وقد ظهر أنّ اقتراح حلول تكنولوجية لكلّ شيء، والتصرف من دون فهمٍ وتبصّر، قد يُفضيان إلى خلق مشكلات أكثر ممّا يحلّان مشكلات من قبيل التعديات الدائمة على الحريات الأساسية، وتوسيع مجال المراقبة وجعلها أمرًا طبيعيًا، والتداعيات الاقتصادية، واللجوء إلى حالة الطوارئ الصحية من دون اللجوء إلى حالة الطوارئ المناخية.

ومع ذلك، أظهرت المقاربات المختلفة، والتعاون، والتنسيق المتعدّد التخصّصات، أهميتها في هذه المرحلة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التقارب بين علماء الأوبئة وعلماء الاجتماع قديم؛ لأنّ المتغيّرات التي وراء نماذج انتشار الأوبئة، ولا سيّما عدد التكاثر الأساسي آر صفر (R_0)، تعتمد على الخصائص الاجتماعية[76]. ففي شمال إيطاليا، يفسَّر انتشار الوباء السريع بارتفاع نسبته بين الأسر المتعدّدة الأجيال، ومن الضروري في هذه الحالة أن تؤخذ في الاعتبار التفاوتات الكبيرة في ظروف الحياة؛ إذ يؤثّر الفيروس في الأشخاص على نحوٍ مختلف، بحسب حالتهم أو لون بشرتهم أو مستوى تعليمهم، بما في ذلك قدرتهم على البقاء في المنزل أو الانخراط في العمل عن بُعد. كما تساعد العلوم الاجتماعية على فهم تنقل البشر، والتنقل من أجل العمل (الرحلات المكوكية جيئةً وذهابًا، ورحلات الأعمال)، والسفر من بلد إلى آخر (انتقالات موسمية لقضاء الإجازة أو العودة إلى الوطن، أو لإقامة طويلة الأمد). في المقابل، تستفيد العلوم الاجتماعية من أساليب علماء الأوبئة في أبحاثها (البيانات الضخمة المُجمّعة من تطبيقات تحديد الموقع الجغرافي، والحصول على البيانات الفورية، والنشر والتحديث السريع للنتائج)، من دون التخلي عن إجراء الاستقصاءات الكبيرة لعينات سكانية تمثيلية ذات مدلول.

المراجع References

Afsahi, Afsoun et al. "Democracy in the Time of COVID–19." *Democratic Theory*. vol. 7, no. 2 (2020).

Bansard, Elsa et Anne–Coralie Bonnaire. "‘Les SHS face au Covid–19’ – Quatre mois de débat public: Une proposition d’analyse de contenu." MSH–Paris–Saclay Ruptures des pratiques et dynamique du débat – Les SHS face à la crise Covid–19. Colloque, 12–13 octobre 2020.

Beck, Ulrich. *Risk Society: Towards a New Modernity*. London: Sage, 1992.

Bonnéry, Stéphane & Étienne Douat (dir.). *L’éducation aux temps du coronavirus*. Paris: La Dispute, 2020.

Bowleg, Lisa. "We’re Not All in This Together: On COVID–19, Intersectionality, and Structural Inequality." *American Journal of Public Health* (2020).

(76) Philippe Wanner, "Épidémiologie et sciences sociales," in: Gamba et al. (dir.), pp. 282–292.

Brands, Hal & Francis J. Gavin (eds.). *Covid–19 and World Order: The Future of Conflict, Competition, and Cooperation*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2020.

Brenman, Natassia. "Pandemic Vitality: On Living and Being Alive in Lockdown." *Social Anthropology*. vol. 28, no. 2 (2020).

Chuvileva, Yulia E., Andrea Rissing & Hilary B. King. "From Wet Markets to Wal–Marts: Tracing Alimentary Xenophobia in the time of COVID–19." *Social Anthropology*. vol. 28, no. 2 (2020).

Connolly, Creighton, Roger Keil & S. Harris Ali. "Extended Urbanisation and the Spatialities of Infectious Disease: Demographic Change, Infrastructure and Governance." *Urban Studies*. vol. 58, no. 2 (2020).

"Crise du funéraire en situation de Covid–19: Mort collective et rituels funéraires bouleversés." Office parlementaire d'évaluation des choix scientifiques et technologiques (OPECST). 7/7/2020. at: https://bit.ly/31sBihV.

Flood, Colleen M. et al. (eds.). *Vulnerable: The Law, Policy and Ethics of Covid–19*. Ottawa: University of Ottawa Press, 2020.

Gamba, Fiorenza et al. (dir.). *COVID–19: Le regard des sciences sociales*. Genève: Seismo, 2020.

Godin, Benoît & Dominique Vinck (eds.). *Critical Studies of Innovation: Alternative Approaches to the Pro–Innovation Bias*. Cheltenham: Edward Elgar, 2017.

Hermesse, Julie et al. *Masquer le monde: Pensées d'anthropologues sur la pandémie*. Louvain–la–Neuve: Academia, 2020.

Jetten, Jolanda et al. *Together Apart: The Psychology of Covid–19*. London: SAGE Publishing, 2020.

Lawrence, Heidi Yoston. *Vaccine Rhetorics*. Columbus: Ohio State University Press, 2020.

Majid, Umair et al. "Knowledge, (Mis–)conceptions, Risk Perception, and Behavior Change during Pandemics: A Scoping Review of 149 Studies." *Public Understanding of Science*. vol. 29, no. 8 (2020).

Merkel, Wolfgang. "Who Governs in Deep Crises? The Case of Germany." *Democratic Theory*. vol. 7, no. 2 (2020).

Shrum, Wesley et al. "Who's Afraid of Ebola? Epidemic Fires and Locative Fears in the Information Age." *Social Studies of Science*. vol. 50, no. 5 (2020).

Stark, David. "Testing and Being Tested in Pandemic Times." *Sociologica*. vol. 14, no. 1 (2020).



بنعيسى زغبوش | Benaissa Zarhbouch*

الإنسان وجائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) نحو أفق إشكالي جديد في سياق تداخل موضوعات الأبحاث وتقنياتها المنهجية

Humankind and the Covid–19 Pandemic A Challenging Prospect of Intersecting Research Topics and Methodologies

ملخص: تناقش هذه الدراسة بنية التفكير التي طبعت البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهي ثنائية البيولوجي - العصبي/ الثقافة، أو الفطرة/ الاكتساب. لقد أصبحت هذه الثنائية موضع مساءلة إبستيمولوجية بعد أن تدخّل عامل ثالث بقوة من أصول طبيعية، ليحدث بيئة اجتماعية جديدة تجاوزت التأثير في الفرد في حدّ ذاته إلى علاقاته وسياقات وجوده؛ ما يدفع إلى تغيير المعادلة المعرفية ذاتها: إنه فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19). هل يمتد هذا التأثير إلى البنية المعرفية والسلوكية والوجدانية للإنسان؟ ليس هدفنا تقديم أجوبة محددة، بل إثارة النقاش حول هذا الوضع العلمي الجديد الذي تحوّل فيه الفيروس إلى بعدٍ ثالث في المعادلة: عصبي - بيولوجي/ ثقافة/ فيروس.

كلمات مفتاحية: الجائحة، الشخصية، المنهج، البيولوجي، الثقافي.

Abstract: This study examines structures of thinking in social sciences and humanities research, such as the binaries of the biological and/or neurological and the acquired – cultural and/or innate varieties. Such duality became the subject of epistemological inquiry with the consideration of a third factor of natural origin that intervened to create a new social environment, one with an impact going beyond the individual to extend throughout all the relations and contexts of an individual's existence: Covid–19. Does this influence of viruses extend to the cognitive, behavioural and emotive layers of the human being? Our objective is not to provide definitive answers, but to open the discussion of this new predicament for sciences transformed by new neurological – biological and cultural–viral dimensions.

Keywords: Pandemic, Personality, Methodology, Biology, Culture.

* أستاذ علم النفس، تخصص في الذاكرة ونمو المفاهيم، في قسم العلوم الاجتماعية، جامعة قطر.

Professor of Psychology and researcher in memory and concept development, Department of Social Sciences, Qatar University.

مقدمة

منطلق تحليلنا إبستيمولوجيًا سيكون قريبًا من المعنى العام الذي يتبناه التصور الأنكلوسكسوني، والذي يفيد نظرية المعرفة عامة وليس العلمية منها فقط، رغم أننا بحكم تموضعنا السيكولوجي سنكون أقرب إلى الإبستيمولوجيا التكوينية البياجوية (نسبة إلى جون بياجي)، بمعناها الذي يشمل نظرية المعرفة العلمية المؤسسة على تحليل العلم نفسه[1]. ونركز على السؤالين الثاني والثالث اللذين بلورهما جون لويس لوموان[2] في تعليقه على كتاب بياجي[3]، والمنْصبَّين على أساليب البحث وبناء المعارف. ولن نتوجه وجهة تناقش السؤال الثالث الذي يهدف إلى تقييم قيمة المعرفة وصلاحيتها[4]. وسننطلق أيضًا من قولة أرسطو التي مفادها أن من ينظر إلى الأشياء انطلاقًا من بداية نموها، ومن أصلها، يحصل على النظرة الأوضح إلى هذه الأشياء.

انطلق وباء فيروس كورونا المستجد (كوفيد–19) من مدينة ووهان Wuhan الصينية (نقطة صغيرة جدًا من سطح الكوكب) في كانون الأول/ ديسمبر 2019، وامتد انتشاره بسرعة إلى الكوكب كله. فنتجت من ذلك تغيرات جذرية في فترة زمنية قصيرة لا مثيل لها في التاريخ، شملت كل مناحي الحياة، إلى درجة يمكن القول معها إن العالم بات أسير هذا الفيروس[5]؛ بسبب إجراءات الحجر الصحي والفحص والمراقبة المستمرة وقيود السفر[6]. وباتت أحداث جائحة كورونا وموضوعها مادة خصبة ومسترسلة في معظم القنوات الإذاعية والتلفزية، ووسائل التواصل الاجتماعي[7]. إن الحجر الصحي، وارتفاع معدلات الإصابة والوفيات وغيرها، جعلت، مثلاً، وزارة الصحة الصينية تؤكد أن الصينيين سوف يعيشون كثيرًا من الضغوط النفسية جراء هذا الوباء، وسوف يختبرون بقوة مشاعر القلق والتوتر والاكتئاب ومشكلات نفسية مختلفة[8]. لقد طبع هذا الأمر كل المجتمعات بطابعه؛ إذ ساد شعور الإنسان بأنه تحت تهديد الفيروس، وتحت مراقبة السلطات، وأفضى إلى تحولات ملحوظة لم تكن

---

(1) Jean Piaget, *Introduction à l'épistémologie génétique* (Paris: PUF, 1950).

(2) Jean–Louis Le Moigne, *Les Epistémologies constructivistes* (Paris: PUF, 1995).

(3) Jean Piaget, *Logique et connaissance scientifique* (Paris: Gallimard, 1967).

(4) الأسئلة الثلاثة كالتالي: ما المعرفة وما أساليب البحث فيها (السؤال المعرفة)؟ كيف تتكوّن المعرفة وما صلاحيتها (سؤال المنهج)؟ كيف تقيّم المعرفة وما صلاحيتها (سؤال العلمية)؟

(5) Aparna Viswanath & Puneet Monga, "Working Through the COVID–19 Outbreak: Rapid Review and Recommendations for MSK and Allied Heath Personnel," *Journal of Clinical Orthopaedics and Trauma*, vol. 11, no. 3 (May–June 2020), pp. 500–503.

(6) Debanjan Banerjee, "The COVID–19 Outbreak: Crucial Role the Psychiatrists Can Play," *Asian Journal of Psychiatry*, vol. 50 (April 2020).

(7) آمال إبراهيم الفقي ومحمد كمال أبو الفتوح، «المشكلات النفسية المترتبة على جائحة فيروس كورونا المستجد Covied–19: بحث وصفي استكشافي لدى عينة من طلاب وطالبات الجامعة بمصر»، **المجلة التربوية لكلية التربية بسوهاج**، العدد 74 (حزيران/ يونيو 2020)، ص 1047–1089.

(8) Shuai Liu et al., "Online Mental Health Services in China During the COVID–19 Outbreak," *The Lancet Psychiatry*, vol. 7, no. 4 (April 2020), pp. 17–18.

بهذه الحدة من قبل على شخصية الفرد، وعلى العلاقات الاجتماعية. فكيف أثّر ذلك في إشكالية البحث العلمي ومساره، وفي تقنياته التجريبية ونتائجه؟

يستمد منطلقنا التحليلي مرجعيته من كون الفيروس أضحى يؤثر في الجهاز العصبي الذي يؤثر بدوره في المعرفيات (تشوهات الأفكار وتدهور القدرات المعرفية)، وفي الوجدان (القلق، والاكتئاب وغيرهما)، وفي السلوكات (النوم مثلًا). كما يؤثر في سياق الفرد الذي يؤثر بدوره في جهازه العصبي، ليؤثر بدوره في شخصية الفرد في شموليتها. نسجّل أيضًا كيف تؤثر جائحة كورونا في العلاقات الاجتماعية نفسها، إلى درجة انعكس معها تصور الإنسان، من كائن اجتماعي إلى كائن «تباعدي».

إن موضع الفيروس ضمن هذه الإشكالية يتمثل في كونه عاملًا خارجيًا، لكنه من طبيعة الإنسان نفسها. ومن ثم، لا يمكن تصنيفه لا بالعامل الخارجي (الاجتماعي) ولا بالعامل الداخلي (العصبي - البيولوجي). بناء عليه، فإن تشابه العاملين العصبي - البيولوجي والاجتماعي مع الفيروس يكون بالجوهر (كائن عضوي ... إلخ) ويختلف بالعرض (كائن غير حي، لا يتوالد على نحوٍ مستقل). وبذلك، نفترض، مبدئيًا، أننا بصدد تغير إشكالي في البحث، قد يكون أحاديًا (الفيروس)، وقد يكون ثلاثيًا (الجهاز العصبي-البيولوجي/ الثقافة/ الفيروس)، وقد يكون البعد الثالث في المعادلة هو مستوى المتغير المستقل الموجه لفرضيات البحث. إنه الفيروس باعتباره عاملًا خارجيًا من حيث الإصابة، ولكنه داخلي من حيث الوجود، وليس له وجود خارج كائن حي. فالفيروس ليس كائنًا حيًا؛ لأنه يفتقد عنصرين من مقومات الحياة: أولًا، لا يتكون من خلايا لأنه عبارة عن حمض نووي DNA وحمض نووي ريبوزي RNA مغلفين بالبروتين؛ ثانيًا، لا يستطيع الفيروس التكاثر خارج خلايا الكائن الحي.

صحيح أن الإنسانية عرفت جائحات عبر تاريخها، وأن وجود الإنسان ارتبط بوجود الفيروسات، لكن رصد تأثيرات الجائحة الحالية، علميًا، يُعدّ فريدًا من نوعه، ولم يسبق له مثيل على مستوى هذا الزخم؛ نتيجة لحضوره موضوعًا للبحث، ونتيجة لتطور تقنيات البحث فيه وتقاطعها. فحتى إنتاج اللقاح لم يكن بمثل هذه السرعة عبر التاريخ. إنه معبر نوعي لفهم الإنسان. ومن ثم، يمكن القول بوجود إرهاصات تغيير تصورات إشكالية العلم نفسه وإمكانات تفسيراته وأساليبه وتقنياته. وما توجُّه معظم تخصصات البحث العلمي وجهة دراسة الفيروس، إلا دليلٌ أوليٌ على هذا التبلور الجديد لنمط جديد من البحث، في منهجه ومسلكه وتقنياته، وحتى في كمّ الأبحاث التي أجريت حوله في كثير من التخصصات.

أيكون الفيروس قادرًا على فعل كل هذا، أم أن تطور التقنيات التجريبية والتمويلات الكبرى هو الذي كشف عن تأثيراته، وكانت فرصة لتطور العلم وتقنياته، وإبراز مكانة البحث العلمي الاجتماعية؟

نناقش هذه النقطة باستحضار التغيّرات التي يحدثها لدى الإنسان والتغيّرات التي أحدثها أيضًا على مستوى البحث العلمي إجمالًا: منهجًا وتفسيرًا، وحتى تغييرًا للبعد الإشكالي نفسه، وننطلق فيه من

بعده الكمي. في جرد للأبحاث حول مرض (كوفيد-19)، أجرته بروك وآخرون(9)، تبين أن هناك 3166 دراسة حول الأثر النفسي للحجر الصحي، و903 دراسات كمية تبرز أعراض الضيق والاضطراب النفسي، كما رصدت 74 مقالة عن الصحة العقلية، و27 مقالة عن تأثيرات الحجر الصحي. وفي جرد قمنا به بتاريخ 15 كانون الأول/ ديسمبر 2020، على موقع Algerian Scientific Journal Platform(10) وجدنا 125 مقالًا بالعربية تستعمل عبارة «كوفيد-19»، و196 مقالًا بالفرنسية أو الإنكليزية تستعمل عبارة "Covid-19".

ومن خلال البحث في قواعد المعطيات الإلكترونية في موقع جامعة قطر، بتاريخ 15 كانون الأول/ ديسمبر 2020، وجدنا باللغة العربية 164 مقالًا باستعمال تركيب «كوفيد-19+علم النفس»، ومقالًا واحدًا من خلال تركيب «كوفيد-19+علوم الأعصاب»، ومقالًا واحدًا من خلال تركيب «كوفيد-19+منهج». أما المقالات باللغة الإنكليزية، فوجدنا 519 مقالًا من خلال تركيب "covid-19+psychology"، و7791 مقالًا من خلال تركيب "covid-19+neurology"، و394 مقالًا من خلال تركيب "covid-19+disturbances"، و1856 مقالًا من خلال تركيب "covid-19+disorders"، و5277 مقالًا من خلال تركيب "covid-19+methods". إن مبرّر ارتفاع العدد الأخير مرده إلى كون كلمة «منهج» متضمنة في المقالات عامة، يفرضها سياق البحث الميداني. لكننا نسجل بقوة هذا الكم الهائل من الإنتاجات العلمية حول هذا الموضوع في وقت وجيز، وإن كانت مقاربة علوم الأعصاب لـ (كوفيد-19) هي الأكثر حضورًا.

وهكذا، وارتباطًا بغنى الأبحاث حول فيروس كورونا المستجد، أضحى له أهمية ثلاثية الأبعاد:

1. أهمية علمية بالنظر إلى كثرة الدراسات التي كان محورها هذا الفيروس في فترة زمنية قصيرة علميًا، وغناها المعرفي واختلاف تخصصاتها وتداخل العلوم فيها، لم يشهد التاريخ مثيلًا لها، دفع العلوم العصبية إلى واجهة البحث العلمي.

2. أهمية لها بعد إشكالي؛ إذ أصبح يؤثر في تشكيل شخصية الفرد - سواء كان مصابًا أم لا - في ذاته وفي علاقاته مع الآخرين، إضافة إلى تأثيره في البعدين العصبي - البيولوجي والثقافي نفسيهما.

3. أهمية منهجية، ترصد تعدد أساليب البحث وتداخل تقنياته، وتحوّل طرق إجراء الدراسات الميدانية والتجريبية لتصبح عن بعد، وشبه غياب الدراسات الميدانية التطبيقية بشكلها «التقليدي» المباشر.

بناء عليه، ستكون مقاربتنا إبستيمولوجية، تزاوج بين رصد المناهج ومناقشة النتائج على المستوى النظري، والطرح الإشكالي نفسه. وسنناقش الموضوع وفق مسارين: التقنيات المنهجية المستعملة، والنتائج التي

(9) Samantha Brooks et al., "The Psychological Impact of Quarantine and How to Reduce it: Rapid Review of the Evidence," *The Lancet*, vol. 395, no. 10227 (March 2020), pp. 912–920.

(10) *ASJP*, accessed on 15/12/2020, at: https://bit.ly/38rd1N2

تمخضت عن تطبيق هذه التقنيات. وسنرصد نتائجه التي تأرجحت بين ما هو عصبي ونفسي واجتماعي. وبذلك، سيكون تناولنا الموضوع شموليًا ما أمكن. وسيكون علم النفس مرتكزًا أساسًا في هذا المقال، وفي الآن نفسه، سنستعين ببعض التخصصات الأخرى، خصوصًا علوم الأعصاب.

إن مسوغات التركيز على علم النفس كامنة في أنه يهتم بالإنسان في بعديه البيولوجي والثقافي، عكس علوم الأعصاب، مثلاً، التي تركز على التفسير البيولوجي (الجهاز العصبي) لتفسير السلوك، لكنهما يتقاطعان في كثير من مواضيع البحث، خصوصًا مع تبلور البراديغم المعرفي[11]. كذلك سننطلق من توضيح إشكالية ثنائية العصبي - البيولوجي/ الثقافي، كي نتمكن من رصد التغيرات التي طرأت على الحقل العلمي برمته وتوضيح إمكانية تبلور إشكالي جديد، ترتسم ملامحه حاليًا، ما دام هذان القطبان قد أضحيا غير قادرين وحدهما على تفسير تشكل شخصية الفرد وحدوث التغيير فيها. ومن ثم، سنسائل إبستيمولوجيا تطور البحث ذاته، هل سيكون ضمن إشكالية ثلاثية يكون الفيروس أحد أبعادها؟

نود الإشارة إلى أننا لن نناقش إشكالية الشخصية «السوية» و«غير السوية»؛ لأنها تخرج عن المجال المخصص لهذه الدراسة. ولكننا نؤكد أن الفيروس يؤثر فعلاً في شخصية الفرد، فقد يصبح الشخص «السوي» مكتئبًا أو قلقًا أو مصابًا بعجز معرفي أو باضطراب عصبي؛ فالفيروس يؤثر حتى في تشكّل الجهاز العصبي للجنين الذي ستتشكل من خلاله شخصيته مستقبلاً، وكلها عوامل تؤدي إلى تحولات مهمة في شخصية الإنسان.

أولًا: ثنائية الإشكالية بين العصبي - البيولوجي والثقافي

يقرّ معظم السيكولوجيين بكون القدرات الذهنية الأساسية لدى الإنسان ليس مصدرها التعلم[12]؛ إنها استعداد فطري (بمعنى طبيعي)، تمنحه الثقافة شكلاً معينًا وفق سياق معين. فقد لاحظ مثلاً جان بيير شانجو Jean-Pierre Changeux، من منطلق عصبي - بيولوجي، صعوبة الاعتقاد بأن بنية الدماغ، بكل تعقيداتها، يمكن أن تكون محددة فقط بالجينات[13]. إنه الأمر الذي يستلزم استحضار البعد الثقافي، من منطلق سيكولوجي[14]، لفهم تشكل الجهاز العصبي لدى الإنسان. إنه تكامل العلوم المعرفية لفهم الإنسان في شموليته. فمثلاً، كشفت دراسة[15] أن السياق يغير السيرورات الإدراكية

(11) يُنظر: بنعيسى زغبوش، «التجريب بين علم النفس وعلوم الأعصاب: اشتراك في البراديغم، واختلاف في التقنيات، وتكامل في النتائج»، **عمران**، العدد 29 (صيف 2019)، ص 7-31.

(12) Gérard Bléandonu, *À quoi rêvent nos enfants?* (Paris: Odile Jacob: 2002); Alison Gopnik, Andrew N. Meltzoff & Patricia K. Kuhl, *The Scientist in the Crib: Minds, Brains, and How Children Learn* (New York: William Morrow & Co, 1999).

(13) ينظر: Hugo Lagercrantz, "La fabrication du cerveau," *Sciences Humaines*, no. 219 (Octobre 2010), pp. 54–59.

(14) ينظر:

Nathan A. Fox, "How Can Research on the Brain Inform and Expand our Thinking about Human Development?" *Human Development*, vol. 49, no. 5 (November 2006), pp. 257–259.

(15) Shinobu Kitayama et al., "Perceiving an Object and its Context in Different Cultures: A Cultural Look at New Look," *Psychological Science*, vol. 14, no. 3 (May 2003), pp. 201–206.

والمعرفية، وأن الآسيويين والغربيين يدركون العالم ويفكرون فيه بأشكال مختلفة[16]. وبذلك، يحدَّد الإنسان كائنًا بيولوجيًا، يتشكل من خلال مشاركته في الثقافة[17]، ما دامت الكفاءات كونية وموجودة مسبقًا، تختلف أشكال تحيينها وفق سياقات الأفراد الإيكولوجية والثقافية[18]. ومن ثم، تبلور التوجه السائد، الذي يفيد أنه لم يعد ممكنًا التفكير في أن تشكّل الدماغ يعتبر برنامجًا فطريًا فقط، ولا منظومة ثقافية فقط[19]. إنه توجه تم تدعيمه من خلال إقران الدراسات السيكولوجية المعرفية مع التصوير الدماغي وعلم الوراثة، للكشف عن كيفية الانتقال من الجينات إلى الذكاء، عبر الدماغ والتجربة[20]، ليصبح حتى المتعصبون للتفسير الجيني يقبلون بأن للبيئة بعض التأثير[21]. فاتجه البحث وجهة تحديد مساهمة الجينات (المورّثات)[22]، ليصبح التوجه السائد قائمًا على قناعة أهمية العاملَيْن معًا، ولينبثق خلاف جديد يتعلق بحساب «جرعاتهما»، باصطلاح أوليفييه هودي[23]، أي: ما نسبة تأثير كل من الوراثة والبيئة، وليس: لمن له الأولوية منهما؟[24] ويمكن أن نلاحظ هنا أن ثنائية العصبي - البيولوجي/ الثقافي ظلت المسيطرة في هذه النقاشات العلمية.

وبما أن العلم يتطور من خلال إنتاج مفاهيم جديدة، فقد انبثق الحل في بلورة مفهوم «المطواعية» لتفسير أطروحة أهمية البرمجة الوراثية والمثيرات الخارجية معًا، وربطها بين الاستعدادات العصبية للدماغ وتأثيرات المحيط فيها، ما دامت «المطواعية» تفيد تحول وظيفة الدماغ على مستوى الترابطات بين مَشابك الخلايا العصبية، إيجابيًا أو سلبيًا، ارتباطًا بالتغيرات الداخلية والخارجية[25].

نستنتج، إذًا، أنه بالرغم من وجود الاستعدادات الطبيعية (الدماغ) لدى الإنسان، فإن العالم الخارجي (الثقافة) لا يصبح له معنى إلا بعد خضوعه لما هو معرفي (معالجة ذهنية)، وتوظيفه في علاقات تواصلية

(16) Richard E. Nisbett & Takahiko Masuda, "Culture and Point of View," *Intellectica*, vol. 46–47, no. 2–3 (2007), pp. 153–172.

(17) Barbara Rogoff, *The Cultural Nature of Human Development* (Oxford: Oxford University Press, 2003), p. 3.

(18) Pierre R. Dasen, "L'approche interculturelle du développement," in: Jacques Lautrey (ed.), *Psychologie du développement et de l'éducation* (Paris: PUF, 2007), pp. 197–225.

(19) Francisco J. Varela, *Connaître: Les sciences cognitives: Tendances et perspectives* (Paris: Seuil, 1989 [1988]); Bertrand Troadec, *Psychologie culturelle: Le développement cognitif est–il culturel?* (Paris: Belin, 2007).

(20) Olivier Houdé, "Les bébés sont des petits savants," *Les dossiers de la Recherche*, vol. 34 (Fevrier 2009), pp. 18–21.

(21) Howard Gardner, *The Mind's New Science: A History of the Cognitive Revolution* (New York: Basic Books, 1985).

(22) Pierre L. Roubertoux & Michele Carlier, "Neurogenetic Analysis and Cognitive Functions in Trisomy 21," in: Yong–Kyu Kim (ed.), *Handbook of Behavior Genetics* (New York: Springer, 2009).

(23) Houdé.

(24) ينظر: بنعيسى زغبوش، «النمو المعرفي للطفل بين الذهن والدماغ والثقافة»، **مجلة الطفولة العربية**، العدد 51 (حزيران/ يونيو 2012)، ص 55–73؛ بنعيسى زغبوش، «الكفاءات المبكرة بين الفطرة والاكتساب: المرجعيات النظرية والخصوصيات المنهجية والتقنية»، في: بنعيسى زغبوش وإسماعيل علوي (تنسيق وتقديم)، **اللغة والذاكرة والكفاءات**، سلسلة كتب 7 (فاس: منشورات مختبر العلوم المعرفية، 2015)، ص 143–206؛ بنعيسى زغبوش، «من الاستجابات إلى وميض الدماغ: مدخل للتفكير في وضعية السيكولوجيا»، **مقاربات**، العدد 14 (2014)، ص 5–19؛ زغبوش، «التجريب بين علم النفس وعلوم الأعصاب».

(25) Joshua O. Goh & Denise C. Park, "Neuroplasticity and Cognitive Aging: The Scaffolding Theory of Aging and Cognition," *Restorative Neurology and Neuroscience*, vol. 27, no. 5 (2009), pp. 391–403.

مع الآخرين. لكن هذه النقطة الأخيرة، أي العلاقات التواصلية، التي تعدّ قطب الرحى في البعد الثقافي الذي يشكّل الإنسان، أضحت موضع تساؤل وتصور جديد مع جائحة (كوفيد-19)، التي حوّلت الإنسان إلى كائن «تباعدي» بعد أن كان كائنًا «حميميًا»، وغيرت إمكانات التواصل «التقليدية» وشروطه السائدة لديه.

يسمح لنا هذا التمشي بالعودة إلى السؤال الذي طرحناه في بداية بحثنا والمتعلق بإمكانية أن يدخل عامل ثالث في بناء الشخصية يخرج التفكير من ثنائية العصبي - البيولوجي/ الثقافي إلى معادلة ثلاثية الأبعاد: العصبي - البيولوجي/ الثقافي/ الفيروسي. ما الذي حصل لهذه الإشكالية الثنائية، بعدما لم تعد جزئيًا قادرة على تفسير تشكّل شخصية الإنسان وتفسير سلوكه؟

إن أحد إمكانات التفسير كامن في تأثير مزدوج للفيروس: تأثير مباشر في الدماغ، الذي يؤثر بدوره في سلوك الإنسان ومعرفياته ووجدانه؛ وتأثير غير مباشر في الدماغ، من خلال العزل الاجتماعي، والذي يؤثر بدوره في الدماغ، في مكونات الشخصية، ليصبح الدماغ معبرًا لا بد منه في أي تفسير للشخصية.

وقد أثبتت الدراسات هذه الظاهرة، وتحديدًا في حالات الإصابة بفيروس نقص المناعة HIV، وفيروس زيكا ZIKV، وفيروس التهاب الكبد الوبائي HCoV، وكذلك مختلف أنواع فيروسات الإنفلونزا. ويراوح هذا التأثير بين صنفين: التأثير المباشر حيث يسبب بعض هذه الفيروسات اضطرابًا في الأداء المعرفي العصبي[26]، أو تشوهات بنيوية ووظيفية في الدماغ بعد الإصابة[27]، أو إلى ضعف الحصين Hippocampus[28]، الذي يؤثر سلبيًا في التعلم والتوجه المكاني[29]، وكذلك اضطرابات عصبية متعددة، نتيجة التهاب الدماغ[30]، وتفاقم الاضطرابات العصبية المزمنة مثل مرض باركنسون[31]. إلى جانب تأثيرات أخرى لا يكفي المجال لتعدادها. والتأثير غير المباشر مثل نقص الأكسجة[32]، ومشكلات

(26) Georgette D. Kanmogne et al., "Effects of HIV Infection, Antiretroviral Therapy, and Immune Status on the Speed of Information Processing and Complex Motor Functions in Adult Cameroonians," *Scientific Reports*, vol. 10, no. 1 (August 2020), pp. 1–12.

(27) ينظر:

Hetong Zhoua et al., "The Landscape of Cognitive Function in Recovered COVID–19 Patients," *Journal of Psychiatric Research*, vol. 129 (October 2020), pp. 98–102.

(28) Hélène Jacomy et al., "Human Coronavirus OC43 Infection Induces Chronic Encephalitis Leading to Disabilities in BALB/C Mice," *Virology*, vol. 349, no. 2 (June 2006), pp. 335–346.

(29) Karen Ritchie, Dennis Chan & Tam Watermeyer, "The Cognitive Consequences of the COVID–19 Epidemic: Collateral Damage?" *Brain Communications*, vol. 2, no. 2 (May 2020), pp. 1–5.

(30) Sofia Morfopoulou et al., "Human Coronavirus OC43 Associated with Fatal Encephalitis," *The New England Journal of Medicine*, vol. 375, no. 5 (August 2016), pp. 497–498.

(31) Enrico Fazzini, John Fleming & Stanley Fahn, "Cerebrospinal Fluid Antibodies to Coronavirus in Patients with Parkinson’s Disease," *Movement Disorders*, vol. 7, no. 2 (April 1992), pp. 153–158.

(32) Ramona O. Hopkins et al., "Two–year Cognitive, Emotional, and Quality–of–life Outcomes in Acute Respiratory Distress Syndrome," *American Journal of Respiratory and Critical Care Medicine*, vol. 171, no. 4 (February 2005), pp. 340–347; Mark E. Mikkelsen et al., "The Adult Respiratory Distress Syndrome Cognitive Outcomes Study: Long–term Neuropsychological Function in Survivors of Acute Lung Injury," *American Journal of Respiratory and Critical Care Medicine*, vol. 185, no. 12 (June 2012), pp. 1307–1315.

الذاكرة التي تم التبليغ عنها ذاتيًا وتستمر حتى خمس سنوات[33]. كما بين كثير من الدراسات أن آثار الصدمة بالمرض تستمر فترات متراوحة بعد الشفاء وتؤثر في الشخصية[34]، كما تُحدث ضمورًا في المخ وتضخم البطين، بما ينتج من ذلك من تأثير في شخصية المصاب[35].

ثانيًا: التأثير الحالي لفيروس (كوفيد-19) في الفرد ذاته

ستتناول هذه النقطة من جانبها المنهجي، ونتائجها السلوكية والمعرفية والوجدانية.

1. على المستوى المنهجي

إن الكشف عن الإصابة بفيروس (كوفيد-19) يتم بالضرورة من خلال التحليلات الطبية، لكن الكشف عن تأثير الفيروس في الشخصية يمر من خلال تقنيات منهجية مختلفة، لا تخرج عن طبيعة التقنيات الكلاسيكية المستعملة في البحث التجريبي عمومًا. فقد لاحظت، مثلًا، سامنثا بروكس وآخرون[36]، استخدام عديد من التقنيات لدراسة الآثار السلبية لتفشي المرض من أجل جمع البيانات، مثل المقابلة والاستبيان الإلكتروني والمكالمات الهاتفية. لكننا نلاحظ أيضًا توظيف سلالم التقييم والاختبارات والتصوير الدماغي والتحليلات الطبية والبيولوجية. وإن كان بعضها يستلزم الحضور الفعلي، فإن كثيرًا منها تمت ملاءمته مع إمكانات إجراء الدراسة التجريبية عن بعد. وهو مسار جديد في البحث فرضه انتشار هذا الفيروس أيضًا.

ومن بين التقنيات المنهجية التي استعملت سابقًا في الكشف عن تأثير الفيروسات في الأفراد، نذكر تقنية التبليغ الذاتي، مثلًا، لدراسة مشكلات الذاكرة[37]، وتقنية التصوير الدماغي للكشف عن ضمور الدماغ وتضخم البطين المقرونة باختبارات للكشف عن الانتباه والذاكرة اللفظية ودرجات الأداء التنفيذي في متلازمة الضائقة التنفسية الحادة[38]، أو استعمال اختبارات فقط للكشف عن القلق والاكتئاب والسلوك الانتحاري ومتلازمة الإجهاد اللاحق[39]، أو الكشف عن الاضطرابات النفسية عامة[40]، أو دراسة قلق

(33) Neill K. J. Adhikari et al., "Self–reported Depressive Symptoms and Memory Complaints in Survivors Five Years after ARDS," *Chest*, vol. 140, no. 6 (December 2011), pp. 1484–1493.

(34) Ivan Wing Chit Mak et al., "Long–term Psychiatric Morbidities among SARS Survivors," *General Hospital Psychiatry*, vol. 31, no. 4 (July–August 2009), pp. 318–326; Yun Kwok Wing & Chun M. Leung, "Mental Health Impact of Severe Acute Respiratory Syndrome: A Prospective Study," *Hong Kong Medical Journal*, vol. 18, no. 3 (August 2012), pp. 24–27.

(35) Ramona O. Hopkins, Shawn D. Gale & Lindell K. Weaver, "Brain Atrophy and Cognitive Impairment in Survivors of Acute Respiratory Distress Syndrome," *Brain Injury*, vol. 20, no. 3 (March 2006), pp. 263–271.

(36) Brooks et al.

(37) Adhikari et al.

(38) Hopkins, Gale & Weaver.

(39) Li Du et al., "A Report of 4 Cases of Severe Acute Respiratory Syndrome Patients with Suicide Tendency," *Academic Journal of Second Military Medical University*, vol. 24 (2013), pp. 636–637; Hyunsuk Jeong et al., "Mental Health Status of People Isolated due to Middle East Respiratory Syndrome," *Epidemiology and Health*, vol. 38 (January 2016).

(40) Mak et al.; Wing & Leung.

اضطراب النوم وأعراض الاكتئاب[41]، أو دراسة الارتباطات النفسية المرضية والمحددات المعرفية والوجدانية للميل إلى الملل[42].

لكن فرَض واقع الحجر الناتج من تفشي مرض (كوفيد-19)، أثرًا حتى في أساليب البحث من خلال فرض واقع التباعد الجسدي. فإن كانت بعض التقنيات المنهجية قد استعملت للكشف عن تأثيرات الفيروس في الفرد بشكلها التقليدي المباشر (المقابلة، والتحليلات الطبية والبيولوجية، والتصوير الدماغي)، فإن كثيرًا منها يوظف تقنيات التواصل عن بعد، أي بصفة غير مباشرة؛ وهو ما مثل منعطفًا في البحث فرضه الفيروس، إما بسبب الخوف من العدوى، أو ضرورة احترام إجراءات التباعد الاجتماعي.

من بين التقنيات المباشرة (تخص غالبًا المرضى الذين يقصدون المستشفيات للتشخيص أو العلاج) نجد المقابلة، مثلاً، لدراسة تأثير الحجر في النشاطات اليومية وأنماط الحياة الروتينية[43]. كما نجد الاختبارات الطبية والبيولوجية، مثل الاختبارات النووية، وجمع عينات دم المرضى لفحص الملامح الالتهابية المقرون بتقييم الوظائف المعرفية (مثل الانتباه المستمر) وفقًا لمستويات مصل العوامل الالتهابية ومستوى بروتين سي التفاعلي CRP C–reactive protein، في الدم[44].

من جانب آخر، تستعمل تقنيات التصوير الدماغي، مثل تصوير تأثّر الحصين بالفيروس في علاقته بضعف الذاكرة وتسريع الاضطرابات التنكسية العصبية Neurodegenerative مثل مرض الزهايمر[45]، أو للكشف عن تنشيط الجهاز العصبي الودّي Sympathetic Nervous System أثناء دراسة تأثير الإجهاد الحاد والمزمن في النوم[46].

أما التقنيات التجريبية غير المباشرة التي فرضها الفيروس، فقد راوحت بين التبليغ والاستطلاع، مثل التبليغ عن الوصم والرفض من الناس[47]، واستطلاع «مؤسسة عائلة كايزر» Kaiser Family Foundation بالولايات المتحدة الأميركية لدراسة الحالة العقلية، إضافة إلى خط الطوارئ الفدرالي

(41) Naomi Breslau et al., "Sleep Disturbance and Psychiatric Disorders: A Longitudinal Epidemiological Study of Young Adults," *Biological Psychiatry*, vol. 39, no. 6 (March 1996), pp. 411–418; Luc Staner, "Sleep and Anxiety Disorders," *Dialogues in Clinical Neuroscience*, vol. 5, no. 3 (September 2003), pp. 249–258.

(42) Julia Isacescu, Andriy Anatolievich Struk & James Danckert, "Cognitive and Affective Predictors of Boredom Proneness," *Cognition & Emotion*, vol. 31, no. 8 (December 2017), pp. 1741–1748; Jennifer Sommers & Stephen J. Vodanovich, "Boredom Proneness: Its Relationship to Psychological–and Physical–health Symptoms," *Journal of Clinical Psychology*, vol. 56, no. 1 (January 2000), pp. 149–155.

(43) Cuiyan Wang et al., "Immediate Psychological Responses and Associated Factors During the Initial Stage of the 2019 Coronavirus Disease (COVID–19) Epidemic among the General Population in China," *International Journal of Environmental Research and Public Health*, vol. 17, no. 5 (March 2020), p. 1729.

(44) Zhoua et al.

(45) Ritchie, Chan & Watermeyer.

(46) Olivier Van Reeth et al., "Interactions between Stress and Sleep: From Basic Research to Clinical Situations," *Sleep Medicine Reviews*, vol. 4, no. 2 (April 2000), pp. 201–219.

(47) Misse Wester & Johan Giesecke, "Ebola and Healthcare Worker Stigma," *Scandinavian Journal of Public Health*, vol. 47, no. 2 (March 2019), pp. 99–104; Brooks et al.

الساخن المخصص للأشخاص الذين يعانون أزمة وجدانية، وخطوط ساخنة بوزارة الصحة الصينية للإرشاد النفسي وخدمات الصحة النفسية[48].

ومع توافر تكنولوجيا الإنترنت، أصبح تعديل أدوات التقييم المعرفي عن بعد ممكنًا، للكشف عن ضعف معرفي في الإعدادات السريرية[49]. وقد تأرجحت بين الاختبارات والمقاييس والاستمارات، سواء لتقييم الوظائف المعرفية أو الصحة العقلية والنفسية. في السياق نفسه، أكد هيتونغ زوا وآخرون[50] إمكانية إجراء التقييمات النفسية العصبية لتقييم الوظائف المعرفية، مثل الانتباه المستمر، بواسطة اختبارات نفسية عصبية عبر الإنترنت، باستعمال iPad، لتقليل الاتصال بين الطاقم الطبي والمرضى المصابين بمرض (كوفيد-19)، متمثلة في اختبارات الانتباه والذاكرة والأداء التنفيذي وسرعة معالجة المعلومات والمعالجة المكانية البصرية والوظيفة الحركية.

كما استخدمت دراسة[51] استمارة إلكترونية عبارة عن مقياس للمشكلات النفسية (الوحدة النفسية، الاكتئاب، الكدر، الوساوس القهرية، الضجر، اضطرابات الأكل، اضطرابات النوم، المخاوف الاجتماعية). واستعملت الاختبارات والمقاييس في مجال الصحة العقلية، لدراسة اضطرابات النوم، والأعراض المرتبطة بالقلق، والأعراض الاكتئابية، والإجهاد بعد الصدمة وأعراض الاحتراق النفسي[52]، ودراسة النوم[53]، ودراسة اضطرابات النوم، وأعراض القلق والأعراض الاكتئابية[54]، ودراسة القلق والاكتئاب والإكراه[55]، وقياس تواتر القلق، والاكتئاب، والمخاوف النوعية، وتغيرات الإدراك والسلوك القهري أو التجنبي، والأعراض الجسيمة، وفقدان الأداء الاجتماعي[56].

من جانب آخر، عملت بعض الأبحاث على دراسة جودة الحياة، مثل دراسة المخاوف من الإصابة

(48) Liu et al.

(49) Pegah Hafiz et al., "The Internet–based Cognitive Assessment Tool: System Design and Feasibility Study," *JMIR Formative Research*, vol. 3, no. 3 (July–September 2019).

(50) Zhoua et al.

(51) الفقي وأبو الفتوح.

(52) Stephen X Zhang et al., "Unprecedented Disruptions of Lives and Work: Health, Distress and Life Satisfaction of Working Adults in China One Month into the COVID–19 Outbreak," *Psychiatry Research*, vol. 288 (June 2020); Jun Shigemura et al., "Public Responses to the Novel 2019 Coronavirus (2019–nCoV) in Japan: Mental Health Consequences and Target Populations," *Psychiatry and Clinical Neurosciences*, vol. 74, no. 4 (April 2020), p. 281.

(53) Andrea Fiorillo & Philip Gorwood, "The Consequences of the COVID–19 Pandemic on Mental Health and Implications for Clinical Practice," *European Psychiatry*, vol. 63, no. 1 (April 2020), pp. 1–2.

(54) Abdelkrim Janati Idrissi et al., "Sleep Quality and Mental Health in the Context of COVID–19 Pandemic and Lockdown in Morocco," *Sleep Medicine*, vol. 74 (October 2020), pp. 248–253.

(55) Amaury Mengin et al., "Conséquences psychopathologiques du confinement," *L'Encéphale*, vol. 46, no. 3 (Juin 2020), pp. 43–52.

(56) Jianyin Qiu et al., "A Nationwide Survey of Psychological Distress among Chinese People in the COVID–19 Epidemic: Implications and Policy Recommendations," *General Psychiatry*, vol. 33, no. 2 (March 2020), pp. 1–3.

والإحباط والملل وعدم كفاية الإمدادات والتمييز والعزلة والمشاعر السلبية[57]، إضافة إلى دراسة المحددات النفسية المرضية والمعرفية والوجدانية للميل إلى الملل[58]، ودراسة مستوى الرضا عن الحياة لدى الأشخاص في الحجر[59]، ودراسة الآثار النفسية السلبية (الإجهاد بعد الصدمة، الارتباك، الغضب، أعراض الاحتراق النفسي)[60].

وأخيرًا، نجد بحوثًا حول دراسات الفيروس نفسها، مثل دراسة بروكس وآخرين[61] التي راجعت الأثر النفسي للحجر الصحي باستخدام قواعد بيانات إلكترونية.

وعمومًا، نلاحظ من خلال هذه التقنيات التجريبية، مهما اختلفت تخصصات الباحثين، أنها تنصبّ على تأثير الفيروس في الفرد في أبعاده: الوجدانية والمعرفية والسلوكية، ضمن بعدي البيولوجي - العصبي، والاجتماعي - الثقافي، بالرغم من أن الفيروس كان هو محركها الأساسي. ورغم اختلاف التقنيات المنهجية وتخصصات الباحثين، فقد تمخض عن الدراسات نتائج تتشابه في أبعادها.

قبل مناقشة هذه الدراسات بما يخدم بحثنا، نسجل بعض الملاحظات بخصوص ما ناقشناه. فإن كانت سلالم التقييم (تقييم القلق، الاكتئاب، جودة الحياة ... إلخ) وبعض الاختبارات النفسية (مثل الاكتئاب) والمعرفية (كذاكرة العمل اللفظية، وعلاقة المعالج المركزي بالذاكرة اللفظية)، لا تستلزم التطبيق المباشر مع المفحوص، فإن بعض الاختبارات الأخرى تستدعي الحضور المباشر للمفحوص، مثل الاختبارات التي تستعمل الصور أو لوحات خاصة (اختبار ستروب) أو الحركة أو القيام بأعمال معينة (رسم الساعة) أو توظيف أداة خاصة (اختبار كورسي). فإن كانت الاختبارات اللفظية قابلة للإجراء عن بعد، فإن غيرها (البصرية، مثلًا) يستلزم تحويل الاختبارات إلى تطبيقات معلوماتية تسمح بإجرائها عن بعد، فيتحول الاختبار من نشاطات ورقية إلى نشاطات على شاشة الحاسوب أو الأجهزة اللوحية أو حتى الهاتف المحمول. ولنا في تطبيق Psych Lab مثال جيد؛ إذ يمكن تحميله والاشتغال به على الهاتف أو الأجهزة اللوحية، أو الحاسوب. إن هذه من التأثيرات الإيجابية لجائحة (كوفيد-19) في تطوير أساليب إجراء البحث العلمي وتقنياته، التي دفعت البحث العلمي إلى توظيف التقنيات الحديثة، لكن هذا الاتجاه طرح في المقابل مشكلًا متمثّلًا في متغيّر دخيل على الدراسات العلمية، وهو مدى تمكن أفراد العينة من التقنيات الحديثة؛ وفي هذا الباب، يطرح مشكل الفوارق الاجتماعية (وحتى بين المجتمعات) بحدّة، وتأثيره في نتائج البحث العلمي إجمالًا.

(57) Lijun Kang et al., "Impact on Mental Health and Perceptions of Psychological Care among Medical and Nursing Staff in Wuhan during the 2019 Novel Coronavirus Disease Outbreak: A Cross–sectional Study," *Brain, Behavior, and Immunity*, vol. 87, no. 5 (July 2020), pp. 11–17.

(58) Sommers & Vodanovich.

(59) Zhang et al.

(60) Shigemura et al.; Brooks et al.

(61) Brooks et al.

نستنتج، إذًا، أن سياق البحث العلمي أضحى خاضعًا في جزء كبير منه لتأثيرات الفيروس، بل دفع به إيجابيًا نحو التطوير وإيجاد سبل بديلة للدراسة المباشرة. كما وجد الكل نفسه في وضعية تجريبية، كان يصعب تهيئتها سابقًا في الظروف العادية، شملت الكل من دون تمييز، مصابين ومتعافين، فأضحى الكل عينة للدراسة. وهو أمر غير مسبوق في تاريخ البحث العلمي. كما اشترك معظم الباحثين في دراسة موضوع واحد: فيروس (كوفيد-19)، باعتباره متغيرًا مستقلًا، له تأثيرات في بعدَي تشكل شخصية الإنسان: العصبي – البيولوجي والثقافي، لتدفع فرضيات البحث إلى أن تجعل من الفيروس المتغير الأساسي في البحث. إنها سمة وسمت البحث العلمي، ولم تحدث حتى عند سيطرة البراديغم المعرفي على الحقل العلمي.

2. على مستوى نتائج الأبحاث

يمكن إجمال تأثيرات الفيروس في الفرد في مستويين، وهي مثل بقية الفيروسات: مباشرة أي عندما يؤثر الفيروس مباشرة في الفرد في أبعاده الوجدانية والمعرفية والسلوكية؛ وغير مباشرة، عندما يؤثر الفيروس في عضو آخر من أعضاء الإنسان، الأمر الذي يؤثر بدوره في شخصية الفرد.

أ- على المستوى المباشر

توجد أدلة متزايدة على أن فيروسات كورونا تنتشر خارج أعضاء الجهاز التنفسي، ولا سيما الجهاز العصبي المركزي[62]؛ فقد أشارت الدراسات السريرية إلى وجود اضطرابات عصبية وصعوبات معرفية، ويبدو أن الحصين معرض على نحوٍ خاص، مما يزيد احتمال ضعف الذاكرة وتسريع الاضطرابات التنكسية العصبية مثل مرض الزهايمر[63]. كما تؤدّي فيروسات كورونا إلى مجموعة من الأعراض الحادة للجهاز العصبي المركزي بما في ذلك: الصداع ونوبات الصرع والاختلال المعرفي والصعوبات الحركية وفقدان الوعي، وقد تسبّب أيضًا صعوبات في التنفس من خلال غزو جذع الدماغ وعبر طريق متصل بمركز القلب والجهاز التنفسي النخاعي[64]، حيث ينتج من نقص الأكسجة اضطرابات عصبية أخرى.

من الواضح، الآن، أن عددًا كبيرًا من المرضى الذين يعانون مرض (كوفيد-19)، تظهر عليهم أعراض عصبية، من فقدان الشم إلى الهذيان، وزيادة خطر الإصابة بالسكتة الدماغية، إضافة إلى عواقب طويلة المدى على الدماغ، بما في ذلك التهاب الدماغ وظهور متلازمة التعب المزمن[65]. وقد تحدث هذه الآثار بسبب العدوى الفيروسية المباشرة على أنسجة الدماغ، رغم أن الأدلة المتزايدة تشير إلى أن

(62) Marc Desforges et al., "Human Coronaviruses and Other Respiratory Viruses: Underestimated Opportunistic Pathogens of the Central Nervous System?" *Viruses*, vol. 12, no. 1 (December 2020), pp. 1–28.

(63) Ritchie, Chan & Watermeyer.

(64) Karen Bohmwald et al., "Neurologic Alterations due to Respiratory Virus Infections," *Frontiers in Cellular Neuroscience*, vol. 12 (October 2018), p. 386; Ritchie, Chan & Watermeyer.

(65) Natalie C. Tronson, "How COVID–19 Might Increase Risk of Memory Loss and Cognitive Decline," *The Conversation*, 7/8/2020, accessed on 10/3/2021, at: https://bit.ly/2N7xcs6

تأثيرات أخرى غير مباشرة، ناجمة عن عدوى الفيروس للخلايا الظهارية Epithelial Cells وجهاز القلب والشرايين، أو من خلال الجهاز المناعي والالتهابات، تساهم في تغييرات عصبية دائمة بعد مرض (كوفيد-19)(66).

نستنتج، إذًا، أن الجهاز العصبي لم يعد وحده المحدد للشخصية، كما تقول بذلك التصورات السابقة، بل يوجد عامل آخر يؤثر في هذا البعد نفسه وهو الفيروس.

كما يؤثر مرض (كوفيد-19) في الوظائف المعرفية، حيث ثبت وجود تغييرات طويلة المدى في أدمغة بعض المرضى، وثيقة الارتباط بزيادة خطر التدهور المعرفي المرتبط بدوره بالشيخوخة ومرض الزهايمر. فقد أكدت دراسة زوا(67) وجود ضعف معرفي حتى لدى المتعافين من هذا المرض. ويمكن أن تضعف الذاكرة من خلال التلف الدائم للوصلات العصبية أو الخلايا العصبية نفسها، وأيضًا من خلال تغييرات طريقة عمل الخلايا العصبية(68). وللكشف عن الضعف المعرفي في الإعدادات السريرية(69)، تمت دراسة الانتباه والذاكرة والأداء التنفيذي وسرعة معالجة المعلومات والمعالجة المكانية البصرية والوظيفة الحركية، لدى المرضى المتعافين، لتقييم الآثار السلبية في الوظائف المعرفية، وتوصلت إلى عدم تمكّن المصابين بأعراض شديدة من إنهاء التقييم المعرفي(70). كما تم تأكيد خلل معرفي في مجال الانتباه المستمر، تم تفسيره بتأثير مبكر في عمل الفص الجبهي(71).

وهكذا، فإنّ تفسير اضطراب الوظائف المعرفية لم يعد يقتصر على الجهاز العصبي، بل هناك عامل آخر يؤثر في الجهاز العصبي الذي يؤثر بدوره في الوظائف المعرفية: إنه الفيروس.

ويؤثر فيروس (كوفيد-19)، أيضًا، في الصحة النفسية، فقد أكدت دراسات عديدة وجود أعراض نفسية، تمثلت في مستويات مختلفة من القلق والاكتئاب والإكراه وغيرها(72)، ووجود الهلوسة والذهان(73). وفي سياقات عربية، مثل مصر، تم التوصل إلى أن الضجر من أكثر المشكلات النفسية حضورًا، إضافة إلى مشكلات نفسية أخرى بدرجة متوسطة، وتسجيل مشكلات نفسية(74)، من قبيل: اضطرابات الأكل، واضطرابات النوم، والاكتئاب، والضجر النفسي، والكدر النفسي. كما أكدت

(66) Ibid.

(67) Zhoua et al.

(68) Tronson.

(69) Hafiz et al.

(70) Zhoua et al.

(71) Raul Vintimilla et al., "The Relationship of CRP and Cognition in Cognitively Normal Older Mexican Americans: A Cross–Sectional Study of the HABLE Cohort," *Medicine*, vol. 98, no. 19 (May 2019).

(72) Mengin et al.

(73) Hyun–Chung Kim et al., "Psychiatric Findings in Suspected and Confirmed Middle East Respiratory Syndrome Patients Quarantined in Hospital: A Retrospective Chart Analysis," *Psychiatry Investigation*, vol. 15, no. 4 (April 2018), pp. 355–360.

(74) الفقي وأبو الفتوح.

دراسات، في السياق المغربي، تأثير الفيروس في النوم والصحة العقلية عمومًا، وزاد خطر القلق والتوتر[75].

من جانب آخر، توصلت دراسة ليجون كانغ وآخرين[76]، حول مستوى التمتع بالصحة النفسية، إلى وجود مستويات مختلفة من القلق والاكتئاب والأرق لدى عينة من الأطباء والممرضين في مدينة ووهان الصينية. ورصدت دراسة جيانين كيو وآخرين[77] انتشار الكدر Distress في الصين، باستعمال مؤشرات تواتر القلق والاكتئاب ومخاوف محددة وتغيرات إدراكية والسلوك القهري أو التجنبي والأعراض الجسيمة وفقدان الأداء الاجتماعي.

ب- التأثير غير المباشر لسياق جائحة (كوفيد-19) في الفرد: جودة الحياة

كان تأثير جائحة كورونا ملحوظًا في مختلف مظاهر الحياة الإنسانية: فردًا وجماعة وسياقًا؛ فقد أفاد نصف الأميركيين، تقريبًا، أن الوباء كان ضارًا بصحتهم العقلية، وفق استطلاع «مؤسسة عائلة كايزر» Kaiser Family Foundation، نتيجة للشعور بالفشل الاقتصادي والعزل الاجتماعي وغياب الشعور بالأمان النفسي[78]. كما تعددت أسباب التوتر أثناء الحجر الصحي مثل: الخوف من التلوث وقيود الحجر الصحي فترات طويلة والقلق على الأقارب. وبذلك، ينتج من الحجر الصحي: الملل والعزلة الاجتماعية والتوتر وقلة النوم[79]. وأكدت دراسة ستيفن إكس زينغ وآخرين[80] انخفاضًا في مستوى الرضا عن الحياة، وسيطرة حالة الهلع والاضطراب المرتبط بها[81]. وسنناقش هذه النتائج وفق النقاط التالية:

- **النوم**

يتمثل أحد تجليات جائحة (كوفيد-19) على الفرد في انعكاساته على النوم والصحة العقلية[82]؛ فظروف الحجر الذي ينتج منه تغيير جذري في النشاطات اليومية وأنماط الحياة الروتينية، مثل الضغوطات النفسية والعواقب المرتبطة به (الاقتصادية، والاجتماعية، والمهنية، والأسرية)، يمكن أن تؤدي إلى اضطرابات كبيرة في الإيقاعات البيولوجية والنوم[83]، ما دامت إيقاعات النوم والاستيقاظ تعتمد على

(75) Idrissi et al.

(76) Kang et al.

(77) Qiu et al.

(78) Viwek Bisen, "Second COVID–19 Wave is Already Here: It’s Our Mental Health Crisis," *Horizon*, 6/7/2020, accessed on 10/3/2021, at: https://bit.ly/30vp8o8; Samoon Ahmad, "The Other Second Wave," *Psychology Today*, 10/8/2020, accessed on 10/3/2021, at: https://bit.ly/3qtwuTH

(79) Mengin et al.

(80) Zhang et al.

(81) Hervé Javelot & Luisa Weiner, "Panique et pandémie: Revue de la littérature sur les liens entre le trouble panique et l’épidémie à SARS–CoV–2," *L’Encéphale*, vol. 46, no. 3 (Juin 2020), pp. 93–98.

(82) Fiorillo & Gorwood; Idrissi et al.

(83) Wang et al.; Mengin et al.

معايير بيئية مثل التعرض لضوء النهار[84]، والنشاط البدني والتفاعلات الاجتماعية[85]. إضافةً إلى ذلك، يمكن أن يكون للتعرض للشاشات والضوء الأزرق، في وقت متأخر من الليل، تأثير ضار في إيقاع النوم والاستيقاظ[86] في سياق هذه الجائحة.

أظهرت، كذلك، بعض الدراسات آثارًا نفسية سلبية (أعراض الإجهاد بعد الصدمة والارتباك والغضب وأعراض الاحتراق النفسي)[87]، وارتفاع اضطرابات النوم، والأعراض المرتبطة بالقلق، والأعراض الاكتئابية، وإجهاد بعد الصدمة، وأعراض الاحتراق النفسي[88].

إضافةً إلى ذلك، يوجد ارتباط قوي بين انتشار القلق واضطراب النوم وأعراض الاكتئاب[89]، حيث تأكد أن تعايش مشكلات النوم والأعراض الاكتئابية زاد خطر تطور القلق والتوتر[90]. كما ارتبطت اضطرابات النوم لدى الأطفال والمراهقين بالاضطرابات العاطفية والسلوكية[91] أثناء فترة الحجر.

يمكن تفسير ذلك بارتباط تطور مثل هذه الاضطرابات بالعديد من الضغوطات خلال الحجر، بسبب نقص الاتصال بالأسر، وتضخم المعلومات في وسائل الإعلام أو عدم كفايتها والصعوبات المالية والوصم والمخاوف من الإصابة والإحباط والملل وعدم كفاية الإمدادات والتمييز والعزلة[92].

• الملل

أظهرت دراسة الارتباطات النفسية المرضية، والمحددات المعرفية والوجدانية للميل إلى الملل، أن لهذا الأخير ارتباطًا موجبًا بمستوى أعراض الاكتئاب والقلق[93]؛ فخلال فترات الملل تكون استخدامات الإنترنت أهم، خصوصًا إن ارتبط بوجود إدمان سابق، مع تأثير في النوم والعمل

(84) Alexander A. Borbély, "A Two Process Model of Sleep Regulation," *Human Neurobiol*, vol. 1, no. 3 (1982), pp. 195–204.

(85) Gregory DM Potter et al., "Circadian Rhythm and Sleep Disruption: Causes, Metabolic Consequences, and Countermeasures," *Endocrine Reviews*, vol. 37, no. 6 (December 2016), pp. 584–608.

(86) Mengin et al.

(87) Brooks et al.; Shigemura et al.

(88) Zhang et al; Shigemura et al.

(89) Staner.

(90) Idrissi et al.

(91) Jodi A. Mindell et al., "Sleep and Social–emotional Development in Infants and Toddlers," *Journal of Clinical Child & Adolescent Psychology*, vol. 46, no. 2 (March–April 2017), pp. 236–246.

(92) Kang et al.; Brooks et al.

(93) Isacescu, Struk & Danckert.

والعلاقات الشخصية[94]. وتتمثل تمظهرات الملل في استخدام ألعاب الفيديو بين أطفال المدارس[95] ولدى من تقل أعمارهم عن 40 عامًا[96]، وفي استخدام ألعاب الحظ أيضًا[97]، واستخدام المواد الإباحية[98].

• تقليص الاتصال الاجتماعي: العزلة والوحدة

غالبًا ما يُظهر الحجر اختلال النشاط اليومي المعتاد وتقليل الاتصال الاجتماعي والجسدي مع الآخرين والملل والإحباط والشعور بالعزلة عن بقية العالم[99]. ويتفاقم هذا الإحباط بسبب عدم القدرة على المشاركة في النشاطات اليومية المعتادة. وبذلك، تؤدي العزلة إلى فقدان الاتصال بأحداث الواقع الخارجي. وفي هذا السياق، اهتم علم النفس البيئي خصوصًا بتأثيرات السياقات البيئية في شخصية الفرد في دراسات تجريبية[100]، ونمثل لذلك بوصف الآثار النفسية للعزلة في كثير من الدراسات (الحملات القطبية، والغواصات، والسجن)[101]. كما أن الدراسات التي اهتمت بالرحلات الاستكشافية القطبية أو البحرية وغيرها ربطت بين العزلة الاجتماعية وجنون العظمة والهلوسة والبارانويا[102]. وأكدت دراسات أخرى أن أولئك الذين تم عزلهم أبلغوا بصفة عامة عن ارتفاع معدل انتشار أعراض الضيق والاضطراب النفسي[103]، في حين أكد كريج هاني[104]، في دراسته تأثير ظروف العزل في السجناء، وظهور أعراض ذهانية مثل الهلوسة أو تغيرات في الإدراك أو تجارب الاغتراب عن الواقع.

(94) Kanwal Nalwa & Archana Preet Anand, "Internet Addiction in Students: A Cause of Concern," *Cyberpsychology & Behavior*, vol. 6, no. 6 (December 2003), pp. 653–656.

(95) Hülya Kök Eren & Özlem Örsal, "Computer Game Addiction and Loneliness in Children," *Iranian Journal of Public Health*, vol. 47, no. 10 (October 2018), pp. 1504–1510.

(96) Jeroen S. Lemmens, Patti M. Valkenburg & Douglas A. Gentile, "The Internet Gaming Disorder Scale," *Psychological Assessment*, vol. 27, no. 2 (June 2015), pp. 567–582.

(97) Anne McQuade & Peter Gill, "The Role of Loneliness and Self–control in Predicting Problem Gambling Behaviour," *Gambling Research*, vol. 24, no. 1 (May 2012), pp. 18–30.

(98) Mark H. Butler et al., "Pornography Use and Loneliness: A Bidirectional Recursive Model and Pilot Investigation," *Journal of Sex & Marital Therapy*, vol. 44, no. 2 (February 2018), pp. 127–137.

(99) Jason A. Wilken et al., "Knowledge, Attitudes, and Practices among Members of Households Actively Monitored or Quarantined to Prevent Transmission of Ebola Virus Disease: Margibi County, Liberia: February–March 2015," *Prehospital and Disaster Medicine*, vol. 32, no. 6 (December 2017), pp. 673–678.

(100) ينظر: فرانسيس ت. ماك آندرو، **علم النفس البيئي**، ترجمة عبد اللطيف محمد خليفة وجمعة سيد يوسف (الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 2002 [1998]).

(101) Mengin et al.

(102) Robert E. Strange & William J. Klein, "Emotional and Social Adjustment of Recent US Winter–over Parties in Isolated Antarctic Stations," in: Otto Gustaf Edholm & Ellsworth K. Eric Gunderson (eds.), *Polar Human Biology: The Proceedings of the SCAR/IUPS/IUBS Symposium on Human Biology and Medicine in the Antarctic* (Oxford, London: Heinemann Medical Butterworth–Heinemann, 1973), pp. 410–416.

(103) Sing Lee et al., "The Experience of SARSrelated Stigma at Amoy Gardens," *Social Science & Medicine*, vol. 61, no. 9 (November 2005), pp. 2038–2046.

(104) Craig Haney, *Reforming Punishment: Psychological Limitations to the Pains of Imprisonment* (Washington, DC: American Psychological Association, 2006).

أما الدراسات التي ربطت بين الصحة العقلية وحالة الحجر المرتبطة بوباء (كوفيد-19)، فأوضحت أن ندرة الاتصال الاجتماعي والخوف من العدوى، يزيدان القلق الاجتماعي، ويؤديان إلى ظهور الأعراض أو الاضطرابات الذهانية، ويكون تطورها مقرونًا بمدة العزل(105).

وقد فسر هوفمان(106) هذه الظاهرة بكون العزلة الاجتماعية تعطل المثيرات الحسية التي تصل إلى الدماغ، الذي يحاول تعويض نقص المعلومات الحسية الناقصة أو الغائبة، مع فرط الاستثارة العصبية(107).

• **الوصم**

استمرت وصمة العار لصيقة بالبعض بعد الحجر الصحي، حتى بعد احتواء تفشي المرض، حيث أبلغ العاملون في مجال الرعاية الصحية الخاضعون للحجر الصحي أنهم تعرضوا للوصم والرفض من الناس في مناطق سكناهم. وأفاد المشاركون في العديد من الدراسات أن الآخرين كانوا يعاملونهم على نحو مختلف: التجنب وسحب الدعوات الاجتماعية والمعاملة بالخوف والريبة وتوجيه انتقادات إليهم(108).

ثالثًا: خلاصة

نستهل هذه الخلاصة بسؤال ثلاثي المكونات: هل ما قدمناه من حجج يسمح لنا بتأكيد أنه أصبح مطلوبًا معرفيًا اعتبار مرض (كوفيد-19) بعدًا إشكاليًا ثالثًا متمفصلًا مع إشكالية العلاقة بين العصبي - البيولوجي والثقافي يعتمد في تفسير الشخصية؟ وهل يمكننا المغامرة بالقول إنه أضحى يوجه إشكالية البحث نحو بعد واحد يكون هو محورها؟ وهل أصبح الفيروس متغيرًا مستقلًا أساسيًا، بينما أصبح العصبي - البيولوجي والثقافي صيغتين لهذا المتغير؟ في الحقيقة، يستهدف مقترحنا التصور الإبستيمولوجي «الكلاسيكي» الذي حددناه في بداية هذه الدراسة، ونحن لا نبغي من وراء هذه الأسئلة إثارة النقاش أكثر من تقديم الأجوبة. ويكمن استحضار ثلاثة أوضاع يأخذ فيها هذا المقترح مكانه:

1. الوضع العلمي

لقد أصبح فيروس كورونا واقعًا تؤكد الأبحاث العلمية تأثيره في أبعاد الشخصية وتمظهره فيها، العصبية - البيولوجية والاجتماعية - الثقافية، يؤثر في الدماغ في سياق تشكله. وبذلك، جعل هذا الفيروس علوم الأعصاب مركزية في أي تفسير للشخصية.

(105) Mengin et al.

(106) Ralph E. Hoffman, "A Social Deafferentation Hypothesis for Induction of Active Schizophrenia," *Schizophrenia Bulletin*, vol. 33, no. 5 (September 2007), pp. 1066–1070.

(107) Anusha Mohan & Sven Vanneste, "Adaptive and Maladaptive Neural Compensatory Consequences of Sensory Deprivation: From a Phantom Percept Perspective," *Progress in Neurobiology*, vol. 153 (June 2017), pp. 1–17.

(108) Wester & Giesecke.

يحتاج تفسير هذا الوضع إلى استحضار المستوى المنهجي، حيث نسجل تداخل التقنيات التجريبية المستعملة في العلوم الحقة والعلوم الإنسانية ضمن العلوم المعرفية، سمتها تكامل التقنيات التجريبية، وتحَوّل كثير منها إلى التطبيق عن بعد بفضل التقنيات المعلوماتية. نجد مثلاً ارتباط التحليلات الطبية والبيولوجية (مثلًا، بروتين س) والتقييمات النفسية – المعرفية والعصبية (مثلًا، سلالم التقييم عن بعد، أو الاختبارات)، أو ارتباط التصوير الدماغي بالاختبارات وسلالم التقييم، وبالتحليلات الطبية والبيولوجية ... إلخ. وقد نتج من هذا التداخل بين التقنيات المنهجية تفسيرات نفسية وعصبية وطبية مختلفة، لكنها متكاملة، وحتى متطابقة أحيانًا على مستوى النتائج، التي تؤكد كلها عمق تأثير الفيروس في الشخصية.

وفي هذا السياق، وجد الكل نفسه موضوعًا للدراسة في وضعية تجريبية كونية؛ وضعية لم يسبق لها مثيل في تاريخ البحث العلمي، فأصبح الكل (المرضى والمتعافون وغير المصابين) عينة لموضوع بحث مشترك بين الباحثين، مهما اختلفت تخصصاتهم، وأضحت الفرضية الموجهة للبحث تتضمن في أحد طرفيها متغيرًا مستقلاً هو الفيروس. إنها وضعية كان يصعب إيجاد مثيل لها في الظروف العادية. كما ساهم تطور الاختبارات عن بعد في توفير عينات كبرى للبحث، اقترنت بدقة في النتائج. إنها إحدى إيجابيات تأثير الفيروس في البحث العلمي.

2. أوضاع الفرد والجماعة والمواقف

وجد الأفراد أنفسهم مجبرين على محاربة عدوّ خفيّ من خلال التزام تدابير الحجر والتباعد. وفي المقابل، أضحت العزلة الاجتماعية تؤثر في اشتغال الدماغ نفسه، بل حتى في بنيته، نتيجة انخفاض المثيرات الحسية التي يعالجها الدماغ، وكأنه أصبح في حالة عطالة وظيفية جزئية، ما دامت وظيفته، بامتياز، المعالجة المستمرة للمعلومات.

وارتباطاً بهذه النقطة، فإن امتلاك هاتف محمول أصبح ضرورة وليس رفاهية[109]، بالرغم من التحفظات الكبيرة تجاه التقنيات الحديثة؛ لأن توافر إمكانات التواصل أصبح أمرًا حيويًا لتوازن الفرد النفسي، وتخفيف مشاعر العزلة والتوتر والذعر لديه[110]. فقد اتضح أن عدم تنشيط الشبكة الاجتماعية لا يرتبط فقط بالقلق الفوري، ولكن بالضيق على المدى الطويل. إنها دعوة لتغيير المواقف والتمثلات وترسيخ لدور العالم الافتراضي وتثمين للشبكات الاجتماعية، بهدف تخفيف الانعكاسات السلبية للحجر. ولم يعد التخوف من مخاطر الإدمان عليها حاضرًا، ما دامت قد تحولت إلى ضرورة وجودية للصحة النفسية والعقلية، فالتعليم والتعلم (وحتى سوق الشغل) أصبحا بواسطتها ممكنَين، وأصبحت جزءًا من بناء شخصية المتعلم، فحتى الآباء والمربون الأكثر تشددًا في استعمالها صاروا يحثون أبناءهم وتلامذتهم على ملازمتها طيلة اليوم، ما دام مستقبلهم رهينًا بها. وبذلك، نرى كيف تتغيّر المواقف والقناعات في زمن جائحة (كوفيد-19)، فكيف ستكون ملامح جيل التباعد المقبل؟ أكيد أننا نترقب تحولات مجتمعية كبيرة.

(109) Jeong et al.

(110) Brooks et al.

من جانب آخر، أصبح الفيروس يؤثر في مواقف الباحثين العلمية واختياراتهم النظرية، فإن كانت المواقف السابقة في تفسير الشخصية تتأرجح، حد التعصب أحيانًا، بين التفسير بالعصبي - البيولوجي، أو التفسير بالاجتماعي، وبين مواقف توفّق بين الاثنين وفق نسب تأثير كل منهما، فإننا نشهد اليوم أن الفيروس يدفع في اتجاه إعادة النظر في هذه المواقف؛ لأنه يفرض نفسه بعدًا إشكاليًا ثالثًا في تفسير الشخصية، بل إن التركيز في معظمه أصبح على هذا البعد.

في مقام خاتمة: الوضع المعرفي والطبي في المستقبل

إن نطاق جائحة (كوفيد-19) الحالي وشدّته لا مثيل لهما في تاريخ الإنسانية، وقد تكون آثاره وخيمة في الوظائف العصبية[111]. والسؤال الملحّ هو: أتختفي أعراضه، أم نترقب موجة من مخلفاته في الاضطرابات العصبية والنفسية؟ وهل ستتمظهر موجة من عجز الذاكرة والتدهور المعرفي وحالات الخرف في المستقبل، نتيجة للتغيرات التي تصيب الدماغ والسلوك؟[112]

هناك احتمال بألّا تكون هذه الجائحة مجرد التهابات فيروسية وإصابة الجهاز العصبي المركزي، بل موجة من اضطرابات الصحة العقلية وانتشار الخلل المعرفي أيضًا، قد يمتد تأثيرها مدةً طويلة، فمن المحتمل ألا يكون سببها تأثر الجهاز العصبي، بل الأضرار التي لحقت أعضاء الجسم الأخرى أيضًا، والاضطرابات النفسية، وتفاقم الصعوبات المعرفية الموجودة مسبقًا[113]. ويُتوقّع من الحجر، أيضًا، ارتفاع معدلات الأعراض النفسية بسبب التعرض لأحداث صادمة (مثل فقدان الدخل، والخوف، وموت الأصدقاء والأقارب).

وبنبرة تفاؤلية، نستحضر دراسة كيو[114] التي توصلت إلى انخفاض مستويات الكدر مع مرور الوقت، وأن ذلك يمكن أن يُعزى جزئيًا إلى تدابير الوقاية، بما في ذلك الحجر الصحي والدعم الطبي وتدابير وقف انتشار الفيروس. وإن كانت الدراسة قد بينت أن الأعراض النفسية التي تتطور في ظل هذه الظروف ترتبط بمدة العزل، فإنها بينت أيضًا أن الأعراض الذهانية تختفي بعد انتهائها[115]. فهل نحن في حاجة إلى ترسيخ دور علم النفس في بعده العلاجي، وإبراز مكانته العلمية؟ فبعد أن برزت أهمية علوم الأعصاب والبيولوجيا في الدراسة والتفسير أثناء الجائحة، كمًا وكيفًا، فإنه قد جاء دور علم النفس ليساهم في تخفيف الآثار النفسية والعقلية. إنه المعطى الذي يحتم تدعيم البحث في علم النفس، وتطويره أيضًا في علوم الأعصاب، رغم أننا نتوقع أن المستقبل العلمي سيكون، بامتياز، من نصيب علم الأوبئة، وبدرجة أقل، لعلوم الأعصاب وعلم النفس.

ويبقى النقاش مفتوحًا في هذا الموضوع، ما دام التحليل يقودنا إلى أمر من اثنين: إما أنّ البحث

(111) Ritchie, Chan & Watermeyer.

(112) Tronson.

(113) Ritchie, Chan & Watermeyer.

(114) Qiu et al.

(115) Mengin et al.

العلمي سيضطر إلى التعايش مع إشكالية ثلاثية الأبعاد يكون الفيروس أحد أبعادها، وإما أنه سيتبنى إشكالية أحادية البعد يكون الفيروس محورها الأساسي. وفي كلتا الحالتين، فإن الفيروس أضحى متغيرًا مستقلًا فرض نفسه في الأبحاث التي أجريت في هذه الفترة من تاريخ العلم، وأضحى البعد العصبي - البيولوجي والبعد الثقافي صيغتين لهذا المتغير. إن مطمحنا من تناول هذا الموضوع هو إثارة النقاش وبسط الحجج، أكثر من تقديم أجوبة أو حقائق، من جهة؛ ومن جهة أخرى، «استفزاز» (بمعناه الإيجابي) المفكرين العرب لحلحلة الوضع العلمي عندنا «نحن» («نحن»، بمعناها الثقافي)، في مقابل تبعيتنا لإشكاليات دأب الآخرون، أي «هم» («هم» بمعناها الثقافي أيضًا) في الغرب على الخوض فيها. وقد يكون الخوض في هذا النقاش منفذًا لخلق نوع من التميز الفكري عندنا، ومسلكًا قد يجعلنا نحقق بعض الاستقلالية عن التبعية الفكرية التي نعيشها. وإن استحضرنا النقاش الذي شهدته الفلسفة الإسلامية (وعلم الكلام أيضًا) حول المنطق الأرسطي، قد نقول إن الثنائية لا تلائم تفكيرنا، فهناك دائمًا سبب خلف العصبي - البيولوجي والثقافي، أو سبب الأسباب، ومن ثم، قد تلائم الإشكالية الأحادية أو الإشكالية الثلاثية منطق تفكيرنا.

المراجع

References

العربية

آندرو، فرانسيس ت. ماك. **علم النفس البيئي**. ترجمة عبد اللطيف محمد خليفة وجمعة سيد يوسف. الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، 2002 [1998].

زغبوش، بنعيسى. «النمو المعرفي للطفل بين الذهن والدماغ والثقافة». **مجلة الطفولة العربية**. العدد 51 (حزيران/ يونيو 2012).

________. «من الاستجابات إلى وميض الدماغ: مدخل للتفكير في وضعية السيكولوجيا». **مقاربات**. العدد 14 (2014).

________. «التجريب بين علم النفس وعلوم الأعصاب: اشتراك في البراديغم، واختلاف في التقنيات، وتكامل في النتائج». **عمران**. العدد 29 (صيف 2019).

زغبوش، بنعيسى وإسماعيل علوي (تنسيق وتقديم). **اللغة والذاكرة والكفاءات**، سلسلة كتب 7. فاس: منشورات مختبر العلوم المعرفية، 2015.

الفقي، آمال إبراهيم ومحمد كمال أبو الفتوح. «المشكلات النفسية المترتبة على جائحة فيروس كورونا المستجد Covied-19: بحث وصفي استكشافي لدى عينة من طلاب وطالبات الجامعة بمصر». **المجلة التربوية لكلية التربية بسوهاج**. العدد 74 (حزيران/ يونيو 2020).

الأجنبية

Adhikari, Neill K. J. et al. "Self–reported Depressive Symptoms and Memory Complaints in Survivors Five Years after ARDS." *Chest*. vol. 140, no. 6 (December 2011).

Banerjee, Debanjan. "The COVID–19 Outbreak: Crucial Role the Psychiatrists Can Play." *Asian Journal of Psychiatry*. vol. 50 (April 2020).

Bléandonu, Gérard. *À quoi rêvent nos enfants?* Paris: Odile Jacob: 2002.

Bohmwald, Karen et al. "Neurologic Alterations due to Respiratory Virus Infections." *Frontiers in Cellular Neuroscience*. vol. 12 (October 2018).

Borbély, Alexander A. "A Two Process Model of Sleep Regulation." *Human Neurobiol*. vol. 1, no. 3 (1982).

Breslau, Naomi et al. "Sleep Disturbance and Psychiatric Disorders: A Longitudinal Epidemiological Study of Young Adults." *Biological Psychiatry*. vol. 39, no. 6 (March 1996).

Brooks, Samantha et al. "The Psychological Impact of Quarantine and How to Reduce it: Rapid Review of the Evidence." *The Lancet*. vol. 395, no. 10227 (March 2020).

Butler, Mark H. et al. "Pornography Use and Loneliness: A Bidirectional Recursive Model and Pilot Investigation." *Journal of Sex & Marital Therapy*. vol. 44, no. 2 (February 2018).

Chit Mak, Ivan Wing et al. "Long–term Psychiatric Morbidities among SARS Survivors." *General Hospital Psychiatry*. vol. 31, no. 4 (July–August 2009).

Desforges, Marc et al. "Human Coronaviruses and Other Respiratory Viruses: Underestimated Opportunistic Pathogens of the Central Nervous System?" *Viruses*. vol. 12, no. 1 (December 2020).

Du, Li et al. "A Report of 4 Cases of Severe Acute Respiratory Syndrome Patients with Suicide Tendency." *Academic Journal of Second Military Medical University*. vol. 24 (2013).

Edholm, Otto Gustaf & Ellsworth K. Eric Gunderson (eds.). *Polar Human Biology: The Proceedings of the SCAR/IUPS/IUBS Symposium on Human Biology and Medicine in the Antarctic.* London: Heinemann Medical, 1973.

Eren, Hülya Kök & Özlem Örsal. "Computer Game Addiction and Loneliness in Children." *Iranian Journal of Public Health*. vol. 47, no. 10 (October 2018).

Fazzini, Enrico, John Fleming & Stanley Fahn. "Cerebrospinal Fluid Antibodies to Coronavirus in Patients with Parkinson's Disease." *Movement Disorders*. vol. 7, no. 2 (April 1992).

Fiorillo, Andrea & Philip Gorwood. "The Consequences of the COVID–19 Pandemic on Mental Health and Implications for Clinical Practice." *European Psychiatry*. vol. 63, no. 1 (April 2020).

Fox, Nathan A. "How Can Research on the Brain Inform and Expand our Thinking about Human Development?" *Human Development*. vol. 49, no. 5 (November 2006).

Gardner, Howard. *The Mind's New Science: A History of the Cognitive Revolution.* New York: Basic Books, 1985.

Goh, Joshua O. & Denise C. Park. "Neuroplasticity and Cognitive Aging: The Scaffolding Theory of Aging and Cognition." *Restorative Neurology and Neuroscience*. vol. 27, no. 5 (2009).

Gopnik, Alison, Andrew N. Meltzoff & Patricia K. Kuhl. *The Scientist in the Crib: Minds, Brains, and How Children Learn.* New York: William Morrow & Co, 1999.

Hafiz, Pegah et al. "The Internet–based Cognitive Assessment Tool: System Design and Feasibility Study." *JMIR Formative Research*. vol. 3, no. 3 (July–September 2019).

Haney, Craig. *Reforming Punishment: Psychological Limitations to the Pains of Imprisonment.* Washington, DC: American Psychological Association, 2006.

Hoffman, Ralph E. "A Social Deafferentation Hypothesis for Induction of Active Schizophrenia." *Schizophrenia Bulletin*. vol. 33, no. 5 (September 2007).

Hopkins, Ramona O. et al. "Two–year Cognitive, Emotional, and Quality–of–life Outcomes in Acute Respiratory Distress Syndrome." *American Journal of Respiratory and Critical Care Medicine*. vol. 171, no. 4 (February 2005).

Hopkins, Ramona O., Shawn D. Gale & Lindell K. Weaver. "Brain Atrophy and Cognitive Impairment in Survivors of Acute Respiratory Distress Syndrome." *Brain Injury*. vol. 20, no. 3 (March 2006).

Houdé, Olivier. "Les bébés sont des petits savants." *Les dossiers de la Recherche*. vol. 34 (Fevrier 2009).

Idrissi, Abdelkrim Janati et al. "Sleep Quality and Mental Health in the Context of COVID–19 Pandemic and Lockdown in Morocco." *Sleep Medicine*. vol. 74 (October 2020).

Isacescu, Julia, Andriy Anatolievich Struk & James Danckert. "Cognitive and Affective Predictors of Boredom Proneness." *Cognition & Emotion*. vol. 31, no. 8 (December 2017).

Jacomy, Hélène et al. "Human Coronavirus OC43 Infection Induces Chronic Encephalitis Leading to Disabilities in BALB/C Mice." *Virology*. vol. 349, no. 2 (June 2006).

Javelot, Hervé & Luisa Weiner. "Panique et pandémie: Revue de la littérature sur les liens entre le trouble panique et l'épidémie à SARS–CoV–2." *L'Encéphale*. vol. 46, no. 3 (Juin 2020).

Jeong, Hyunsuk et al. "Mental Health Status of People Isolated due to Middle East Respiratory Syndrome." *Epidemiology and Health*. vol. 38 (January 2016).

Kang, Lijun et al. "Impact on Mental Health and Perceptions of Psychological Care among Medical and Nursing Staff in Wuhan during the 2019 Novel Coronavirus

Disease Outbreak: A Cross–sectional Study." *Brain, Behavior, and Immunity*. vol. 87, no. 5 (July 2020).

Kanmogne, Georgette D. et al. "Effects of HIV Infection, Antiretroviral Therapy, and Immune Status on the Speed of Information Processing and Complex Motor Functions in Adult Cameroonians." *Scientific Reports*. vol. 10, no. 1 (August 2020).

Kim, Hyun–Chung et al. "Psychiatric Findings in Suspected and Confirmed Middle East Respiratory Syndrome Patients Quarantined in Hospital: A Retrospective Chart Analysis." *Psychiatry Investigation*. vol. 15, no. 4 (April 2018).

Kim, Yong–Kyu (ed.). *Handbook of Behavior Genetics*. New York: Springer, 2009.

Kitayama, Shinobu et al. "Perceiving an Object and its Context in Different Cultures: A Cultural Look at New Look." *Psychological Science*. vol. 14, no. 3 (May 2003).

Lagercrantz, Hugo. "La fabrication du cerveau." *Sciences Humaines*. no. 219 (October 2010).

Lautrey, Jacques (ed.). *Psychologie du développement et de l'éducation*. Paris: PUF, 2007.

Le Moigne, Jean–Louis. *Les Epistémologies constructivistes*. Paris: PUF, 1995.

Lee, Sing et al. "The Experience of SARS related Stigma at Amoy Gardens." *Social Science & Medicine*. vol. 61, no. 9 (November 2005).

Lemmens, Jeroen S, Patti M. Valkenburg & Douglas A. Gentile. "The Internet Gaming Disorder Scale." *Psychological Assessment*. vol. 27, no. 2 (June 2015).

Liu, Shuai et al. "Online Mental Health Services in China During the COVID–19 Outbreak." *The Lancet Psychiatry*. vol. 7, no. 4 (April 2020).

McQuade, Anne & Peter Gill. "The Role of Loneliness and Self–control in Predicting Pro–blem Gambling Behaviour." *Gambling Research*. vol. 24, no. 1 (May 2012).

Mengin, Amaury et al. "Conséquences psychopathologiques du confinement." *L'Encéphale*. vol. 46, no. 3 (Juin 2020).

Mikkelsen, Mark E. et al., "The Adult Respiratory Distress Syndrome Cognitive Outcomes Study: Long–term Neuropsychological Function in Survivors of Acute Lung Injury." *American Journal of Respiratory and Critical Care Medicine*. vol. 185, no. 12 (June 2012).

Mindell, Jodi A. et al. "Sleep and Social–emotional Development in Infants and Toddlers." *Journal of Clinical Child & Adolescent Psychology*. vol. 46, no. 2 (March–April 2017).

Mohan, Anusha & Sven Vanneste. "Adaptive and Maladaptive Neural Compensatory Consequences of Sensory Deprivation: From a Phantom Percept Perspective." *Progress in Neurobiology*. vol. 153 (June 2017).

Morfopoulou, Sofia et al. "Human Coronavirus OC43 Associated with Fatal Encephalitis." *The New England Journal of Medicine*. vol. 375, no. 5 (August 2016).

Nalwa, Kanwal & Archana Preet Anand. "Internet Addiction in Students: A Cause of Concern." *Cyberpsychology & Behavior*. vol. 6, no. 6 (December 2003).

Nisbett, Richard E. & Takahiko Masuda. "Culture and Point of View." *Intellectica*. vol. 46–47, no. 2–3 (2007).

Piaget, Jean. *Introduction à l'épistémologie génétique.* Paris: PUF, 1950.

________. *Logique et connaissance scientifique.* Paris: Gallimard, 1967.

Potter, Gregory DM et al. "Circadian Rhythm and Sleep Disruption: Causes, Metabolic Consequences, and Countermeasures." *Endocrine Reviews*. vol. 37, no. 6 (December 2016).

Qiu, Jianyin et al. "A Nationwide Survey of Psychological Distress among Chinese People in the COVID–19 Epidemic: Implications and Policy Recommendations." *General Psychiatry*. vol. 33, no. 2 (March 2020).

Ritchie, Karen, Dennis Chan & Tam Watermeyer. "The Cognitive Consequences of the COVID–19 Epidemic: Collateral Damage?" *Brain Communications*. vol. 2, no. 2 (May 2020).

Rogoff, Barbara. *The Cultural Nature of Human Development.* Oxford: Oxford University Press, 2003.

Shigemura, Jun et al. "Public Responses to the Novel 2019 Coronavirus (2019–nCoV) in Japan: Mental Health Consequences and Target Populations." *Psychiatry and Clinical Neurosciences*. vol. 74, no. 4 (April 2020).

Sommers, Jennifer & Stephen J. Vodanovich. "Boredom Proneness: Its Relationship to Psychological–and Physical–health Symptoms." *Journal of Clinical Psychology*. vol. 56, no. 1 (January 2000).

Staner, Luc. "Sleep and Anxiety Disorders." *Dialogues in Clinical Neuroscience*. vol. 5, no. 3 (September 2003).

Troadec, Bertrand. *Psychologie culturelle: Le développement cognitif est–il culturel?* Paris: Belin, 2007.

Tronson, Natalie C. "How COVID–19 Might Increase Risk of Memory Loss and Cognitive Decline." *The Conversation*. 7/8/2020. at: https://bit.ly/2N7xcs6

Van Reeth, Olivier et al. "Interactions between Stress and Sleep: From Basic Research to Clinical Situations." *Sleep Medicine Reviews*. vol. 4, no. 2 (April 2000).

Varela, Francisco J. *Connaître: Les sciences cognitives: Tendances et perspectives.* Paris: Seuil, 1989 [1988].

Vintimilla, Raul et al. "The Relationship of CRP and Cognition in Cognitively Normal Older Mexican Americans: A Cross–Sectional Study of the HABLE Cohort." *Medicine*. vol. 98, no. 19 (May 2019).

Viswanath, Aparna & Puneet Monga. "Working Through the COVID–19 Outbreak: Rapid Review and Recommendations for MSK and Allied Heath Personnel." *Journal of Clinical Orthopaedics and Trauma*. vol. 11, no. 3 (May–June 2020).

Wang, Cuiyan et al. "Immediate Psychological Responses and Associated Factors during the Initial Stage of the 2019 Coronavirus Disease (COVID–19) Epidemic among the General Population in China." *International Journal of Environmental Research and Public Health*. vol. 17, no. 5 (March 2020).

Wester, Misse & Johan Giesecke. "Ebola and Healthcare Worker Stigma." *Scandinavian Journal of Public Health*. vol. 47, no. 2 (March 2019).

Wilken, Jason A. et al. "Knowledge, Attitudes, and Practices among Members of Households Actively Monitored or Quarantined to Prevent Transmission of Ebola Virus Disease: Margibi County, Liberia: February–March 2015." *Prehospital and Disaster Medicine*. vol. 32, no. 6 (December 2017).

Wing, Yun Kwok & Chun M. Leung. "Mental Health Impact of Severe Acute Respiratory Syndrome: A Prospective Study." *Hong Kong Medical Journal*. vol. 18, no. 3 (August 2012).

X Zhang, Stephen et al. "Unprecedented Disruptions of Lives and Work: Health, Distress and Life Satisfaction of Working Adults in China One Month into the COVID–19 Outbreak." *Psychiatry Research*. vol. 288 (June 2020).

Zhoua, Hetong et al. "The Landscape of Cognitive Function in Recovered COVID–19 Patients." *Journal of Psychiatric Research*. vol. 129 (October 2020).

صدر حديثًا



إليزابيث سوزان كسّاب

ترجمة: محمود محمد الحرثاني

تنوير عشية الثورة
النقاشات المصرية والسورية

يناقش الكتاب السياقات الفكرية التي تخلقت فيها أجواء الثورة في كل من مصر وسورية، مستعرضًا الفروق بين خطابات التنوير في السنوات التي سبقت الثورتين. ويقارن بين ما يسمى التنوير الحكومي والتنوير المستقل في الحالة المصرية وعلاقتهما بالإسلاميين.

علاوة على ذلك يناقش الكتاب في الحالة المصرية أعمال مفكرين من مشارب مختلفة، مثل: مراد وهبة ومحمد عمارة ومنى أباظة ونصر حامد أبو زيد وجابر عصفور وشريف يونس. أما في الحالة السورية فتحتل أعمال أنطون مقدسي وسعد الله ونّوس وفيصل دراج وممدوح عدوان وبرهان غليون وطيب تيزيني مكانة بارزة. ويميّز بين لحظتين في التنوير السوري: اللحظة السيزيفية واللحظة البروموثية في تحليل عميق لقضايا لا تكف عن البروز كلما خبا أوارها أو أُريدَ له أن يخبو.



ترجمة

Translated Paper



من دون عنوان، أكريليك على قماش، 53×39 سم (2021).
Untitled, acrylic on canvas, 53x39 cm (2021).



بول ريكور | Paul Ricœur*

ترجمة عومرية سلطاني | Translated by Aoumria Soltani**

هل الأزمة ظاهرة حديثة على نحو خاص؟***

Is the Crisis a Specifically Modern Phenomenon?

ملخص: خلال إعداد موضوع هذا العدد الذي وجّه كل اهتمامه، من مدخل إبستيمولوجي، إلى فحص تفاعل العلوم الإنسانية والاجتماعية وتقييمها، في العالم العربي وخارجه، مع جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، جلب انتباهنا موضوع اخترق كل الأبحاث والأدبيات، هو موضوع الأزمة الذي خصص له إدغار موران، أحد آخر كتبه. ولإثراء النقاش، وتوفير خلفية نقدية للموضوع، ارتأينا ترجمة نص مشهور لبول ريكور كتبه في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، حاول فيه بصفة مبكرة نسبيًا: أولًا الإمساك بمفهوم الأزمة بتشعباته «الجهوية» كما يقول، وثانيًا التساؤل عمّا إذا كانت أزمة الحداثة قد دشنت عصر ما يسميه الأزمة «المعممة». وبشموليتها، يبدو أن الأزمة التي خلقتها الجائحة قد كشفت بالفعل عن مستويات عدة كانت مجهولة من أزمة التجربة العملية للحداثة التي سادت حتى الآن****.

كلمات مفتاحية: الأزمة، الأزمة المعممة، الحداثة، المفاهيم الجهوية، بول ريكور.

Abstract: While preparing this issue devoted to epistemology and assessment of the approaches and interaction of the humanities and social sciences to the Covid–19, attention was brought to the topic of Crisis, to which Edgar Moran devoted one of his last books. To enrich discussion and provide critical background, Omran has translated a famous early text by Paul Ricoeur from the

* فيلسوف فرنسي French Philosopher (1913–2005).

** مترجمة جزائرية Algerian Translator.

*** نُشر في الأصل في:

Paul Ricœur, "La crise: Un phénomène spécifiquement moderne?," *Revue de théologie et de philosophie*, vol. 120, no. 1 (1988), pp. 1–19.

يستعيد المقال الأفكار الرئيسة التي طُرحت خلال المؤتمر الذي عُقد في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1986، في قاعة المحاضرات التابعة لجامعة نوشاتيل، بمناسبة منحه الدكتوراه الفخرية في اللاهوت. ونُشرت نسخة ألمانية من المقال في كتاب جمع بين دفتيه مساهمات المقابلات التي أُجريت في مدينة كاستل غاندلفو Castel Gandolfo عام 1985، وكُرست لموضوع الأزمة.

Krzysztof Michalski (ed.), *Über die Krise: Castelgandolfo–Gespräche* (Stuttgart: Klett–Cotta, 1986), pp. 38–63.

أما النص الفرنسي فراجعه وعلّق عليه بيار بوهلر P. Bühler.

**** هيئة التحرير Editorial Board.

mid–1980s, in which he sought to grasp the concept of crisis in all its "regional" ramifications and ask whether modernity had ushered in an era of what he called "generalized crisis". With its all–encompassing comprehensiveness, the Covid–19 pandemic seems to have uncovered layers of crisis previously unknown in modernity's practical experience.
Keywords: Crisis, Generalized Crisis, Modernity, Regional Concepts, Paul Ricoeur.

إن السؤال الذي جعلنا نختار مفهوم الأزمة موضوعًا لتأملاتنا يتعلق بلا شك بمعرفة ما إذا كنا نعيش اليوم أزمة غير مسبوقة، تتميز لأول مرة في التاريخ بأنها غير انتقالية، بل دائمة ونهائية. ويستدعي مثل هذا السؤال إلى الواجهة المعنى الذي ننسبه إلى الحداثة: فهل هي بذاتها ظاهرة غير مسبوقة تستبعد أيَّ تراجع إلى الوراء؟ وهل هي سبب الأزمة المعممة، أم إن الأمر يتعلق بأزمة في الحداثة نفسها؟ فإذا كان هذا هو السؤال المهمّ الذي يشغل اهتمامنا بحق، وإذا كانت تلك هي رهاناته، يمكننا أن نسأل أنفسنا ابتداءً ما إذا كان مثل هذا السؤال الكبير قابلًا للحسم، وذلك لأسباب ثلاثة:

الصعوبة الأولى: يبدو أن مفهوم الأزمة رهينُ أوجه غموضٍ متعددة: فما القاسم المشترك بين مفردات مثل الأزمة العاطفية، أو الأزمة الوزارية، أو أزمة القيم، أو أزمة الحضارة؟ ألا يشكِّل هذا المفهوم المكوَّن من كلمتيْن مفهومًا زائفًا Pseudo–concept؟[1] ولمواجهة هذا الالتباس المفهومي، بدا لنا من الملائم أن نبدأ بمراجعة استخدامات المصطلح الأقل إثارة للتنازع، أي المفاهيم «الجهوية»[2] بصورة أخص. وبمجرد تحديد نقاط الارتكاز المتعددة لمفهوم الأزمة، ينبغي التساؤل عما إذا كانت الصلة بين المفاهيم الجهوية تحيل على ما هو أكبر من مجرد انتمائها إلى العائلة ذاتها.

الصعوبة الثانية: يحيل التساؤل عما يسمّى الأزمة المعاصرة على انتقالنا من بعض المفاهيم «الجهوية» للأزمة إلى مفهوم «كلّي»، وهو ما يتصل بما أسماه عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موس «الظاهرة الاجتماعية الكلية»[3]. لكن الأخيرة لا يمكن فهمها، إلا من خلال التمثّلات التي يُقيمها مجتمعٌ ما عن

(1) في الفلسفة، يكون المفهوم زائفًا حين يتعذر القبض عليه أو إدراكه، ومن ثمّ تنطوي مفهمته على خطأ مع استمرار استخدامه بوصفه مفهومًا. (المترجم)

(2) في الدرس الإبستيمولوجي المتعلق بنظرية المعرفة، وبصورة خاصة دائرة النقد الموجه إلى موضوعات العلوم ومناهجها، ثمة نمطان مما يمكن تسميته ممارسة إبستيمولوجية. الأولى عامة؛ بمعنى أنها مشتركة بين كل العلوم ومنفتحة أو موسعة بحيث تختص بتقديم عنايتها النظرية لكل العلوم بلا استثناء؛ ولذلك فصِلتها بالفلسفة وثيقة وقضاياها قد تفوق اختصاص علمائها. في المقابل، تكون الإبستيمولوجيا خاصة لتعلقها بكل علم على حدة، بحيث تنشأ على يد علمائها أصحابِ هذا التخصص العلمي وبمفاهيمها ووسائلها الخاصة أو الداخلية أو «الجهوية». لذلك فالجهوية في حالة المفاهيم تعني ارتباطَها بحقل علمي محدد، بالتوازي مع الفكرة التي تقول بالتداخل العميق بين العلوم بحيث تستعير مفاهيمَها بعضُها من بعض، كأن نقول لسانيات اجتماعية، أو علم النفس السياسي؛ وفي هذه الحالة تُستخدم المفاهيم الجهوية غالبًا للحفر في كنه مفاهيم أخرى بوسائل النقد الإبستيمولوجي العام. (المترجم)

(3) ينظر على وجه الخصوص: Marcel Mauss, *Sociologie et anthropologie*, 9ème ed. (Paris: PUE, 1985).

نفسه. والحال هذه، فقد لا يتسنى الوصول إلى إجماع بشأن تعريف الأفكار والقيم أو الأيديولوجيات التي تنقلها هذه التمثلات، فضلًا عن تقييمها.

الصعوبة الثالثة: إن ظاهرة الحداثة، الواردة في السؤال المبدئي، لا تحيل على ظاهرة اجتماعية كلية من بين ظواهر اجتماعية كلية أُخَر؛ بل على عصرنا. فيكون موضوع النقاش هنا هو معنى الحاضر ذاته. لكن الحاضر هو بطبيعته محلٌّ يكتنفه الغموض؛ لأن الصراعات المتضمنة فيه هي بحكم التعريف بلا حلول. وهكذا يميل الأطراف داخل الأزمة أو الأزمات إلى المبالغة في لااعتيادية العصر الذي يعيشون فيه، فيعتبرون - إطنابًا منهم في القول - أنه بلا سابقة. لكن هذا العائق المفهومي غير مواتٍ للبحث الذي نجريه بصورة خاصة؛ لأن جميع المفاهيم الجهوية للأزمة، التي سنتطرق إليها في الجزء الأول من هذا المقال، تشترك على الأقل في الإحالة على كونها ظاهرة انتقالية؛ ما دام «يجري الخروج من» أزمة أو من أزمات. فكيف إذًا يمكننا معرفة ما إذا كانت الأزمة الحالية، كيفما جرى وصفها، قد تكون، وأول مرة، أزمة غير انتقالية، ما دمنا وبحكم التعريف نعيش في داخلها ونجهل الحكم الذي سيطلقه عليها مؤرخو المستقبل؟

لذلك دعونا ننسَ مؤقتًا مصدرَي الإرباك الثاني والثالث، ونركز على المصدر الأول المرتبط بالتعدد الشديد في معاني المصطلح.

أولًا: بعض المفاهيم «الجهوية» للأزمة

لنبدأْ بتحديد بعض المعاني الأساسية التي ترسخت بفِعل استخدامها المستمر. يبدو لي أنه يمكن التمييز بين أربع أو خمس بؤر أو نقاط ارتكاز Einsatzpunkte ينطلق منها المفهوم.

1. نقطة الارتكاز الأولى طبية؛ فالأزمة هي لحظة المرض الذي يتسم بتغيّر مفاجئ، يتكشف فيها المرض الخفي وتتحدد نتيجته الجيدة أو السيئة. وتتبدّى هنا أربع ميزات سنبيّن إمكانيةَ تعميمها في الجزء الثاني من هذا المقال؛ وهي: أ) سياقٌ مرضيٌّ يكون من أعراضه الرئيسة المعاناةُ أو الضيق؛ ب) انقطاع في الإيقاع الزمني للمرض نفسه، يحدث في صورة نوبة أو هجمة مرضية مفاجئة؛ ج) تدخُّل النظرة العيادية التي تفسر الأعراض وتقدم التشخيص؛ د) التكهن بحلّ يتخذ صورة البديل؛ فإما تحسّن الوضع وإمّا تفاقمه. وهذه السمة الأخيرة تُعتبر مهمة على نحوٍ خاص؛ لأنها، من خلال إضافة طابعها الحاسم إلى الطابع الكاشف للأزمة، إنما تحيل على مرحلة ما بعد الأزمة التي هي الخروج منها، وذلك وفق مصطلح النتيجة التي تتضمن إما خلاصًا وإما موتًا. وفي فرضية الحل السعيد، تتُخذ الأزمة، وبأثر رجعي، قيمة لا تكون دوائية طبية Médicale فحسب، بل علاجية وخفية Médicinale، كتلك التي توصف بها خلطات الأعشاب المطهّرة للجسم.

2. يمكن تمييز البؤرة الثانية للمعاني على مستوى النمو النفسي - الفسيولوجي. تحيل الأزمة على هذا النحو على حالة الشعور بالضيق الشديد، الجسدي والنفسي معًا، المرتبط بالانتقال من عمر إلى آخر. فبدلًا من أن يحدث التحول وفق مسار مستمر، فإنه يشير إلى انقطاع بين توازن ناشئ وتوازن سابق آخذ

في الانهيار. وعلى هذا النحو، يجري الحديث عن أزمة المراهقة. بل لقد أوغل إريك إريكسون في توسيع المفهوم ليشمل جميع الأعمار الحرجة للحياة، ليعدّد من ثمّ سبع مراحل حرجة ما بين الولادة والموت. هذا التناوب في حالات التوازن ومراحل انعدام التوازن هو سمة من سمات هذا النموذج الثاني الذي يمكن أن نسمّيه نمائيًا. وثمة قَرابة بين المعنيَين الأول والثاني؛ كون المرحلة الحرجة مؤلمة، وقصيرة نسبيًا مقارنة بمراحل النمو المستمر، وأن في كل مرحلة حرجة تكشف الأعراض عن انعدام توازن «عميق» وينفتح البديل دومًا على احتمالات تحسّن أو تفاقم. وفي نظر إريك إريكسون، تتميز كل مرحلة حرجة ببديل محدد: الثقة في مقابل انعدام الثقة، والاستقلالية في مقابل الشعور بالعار/ الشك، والمبادرة في مقابل الشعور بالذنب، والشعور بالتفوق في مقابل الشعور بالدونية، والهوية في مقابل تشوش الهوية، والحميمية في مقابل العزلة، والإنتاجية في مقابل الركود، والالتئام في مقابل اليأس[4]. ويلحظ الكاتب أن «كلمة أزمة لا يجري توظيفها هنا إلا في سياق تطوري، ليس للإحالة على تهديد أو كارثة، بل على منعرج ومرحلة حاسمة تتسم بهشاشة كبيرة وإمكانيات متصاعدة، ومن ثمّ كمصدر جيني للقوة الخلاقة ولانعدام التوازن معًا»[5]. وبهذا المعنى، فإن أي أزمة إنما هي أزمة هوية على طريق المراحل التي تشكل دورة الحياة.

3. يمكن تسمية النموذج الجهوي الثالث كوزموبوليتانيًا بالمعنى الذي يطلقه كانط على هذا المصطلح في كتاباته عن **فلسفة التاريخ**[6]. وها هنا نعثر على المخطط السابق للنمو وقد طُبِّق على البشرية جمعاء. فعلى مستوى «النوع» كله، يكشف كانط عن مظاهر «النمو الكامل» لـ «الاستعدادات الطبيعية التي تدفع إلى استخدام [الإنسان] لعقله» (الافتراض الثاني)[7]. إنّ تعاقب الأجيال هو الذي يصير، في هذا النموذج الثالث، حاملاً للعملية برمتها. وتتمثل الأزمة هنا في أن البشرية تطور استعدادها للمجتمع المدني وسيادة القانون فقط تحت محرك ما يسميه كانط «لااجتماعية المخالطة الاجتماعية» بين الناس L'insociable sociabilité[8]. ويلحظ كانط أنه «بهذه الطريقة، يمكن للاتفاق الذي جرى ابتزازُه بطريقة باثولوجية بهدف إنشاء مجتمع، أن يتحول إلى كلٍّ أخلاقي» (الافتراض الرابع)[9]. وبلا شك، فإنّ فكرة الاتفاق الذي جرى ابتزازه بطريقة باثولوجية هذه تستبق الفكرة الهيغلية عن دهاء العقل، والتي تمثل التمجيد الذي ستعرفه فكرة الأزمة على

(4) Erik H. Erikson, *Adolescence et crise: La quête de l'identité*, Joseph Nass & Claude Louis–Combet (trad.), Collection: Champs essais, 60 (Paris: Flammarion, 1972).

ينظر: مخطط المراحل في الصفحة 97.

(5) Ibid., p. 98.

(6) Emmanuel Kant, *Idée d'une histoire universelle au point de vue cosmopolitique* (1784).

نُشر بالفرنسية في:

Emmanuel Kant, *La philosophie de l'histoire (opuscules)*, Stephane Piobetta (ed. & trad.), Médiations, 33 (Paris: Aubier Montaigne; Denoël–Gonthier, 1947), pp. 26–45.

(7) Ibid., p. 28.

(8) Ibid., p. 31.

(9) Ibid., p. 32.

مستوى فلسفة التاريخ. لكن وقبل ذلك كله، من المستحسن ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين النموذجين الثاني والثالث للأزمة. أولًا، لا يُحتفظ إلا بالمرحلة الصاعدة من عملية النمو: وهكذا يصير النموذج هو الانتقال من حالة الأقلية إلى حالة الأغلبية. من جهة أخرى، فإن التركيز على الدينامية الداخلية، التي تنظم نضجَ كائن ما، ينتقل ليستهدف هنا ظاهرة الهيمنة الخارجية، ومن ثمّ الاعتماد على الغير الذي يميز حالة الأقلية. وفي حين تتعرف الأقلية بالتبعية، تتعرف الأغلبية بالاستقلالية؛ فتكون الأزمة هي في العبور من هذا إلى ذاك. وهكذا نقرأ في **رد كانط على سؤال: ما «التنوير»**؟ (كانون الأول/ ديسمبر 1784)[10] إذ يقول «ما هو التنوير؟ هو خروج الإنسان من أقليته التي يتحمل مسؤوليتها بنفسه. وتعني الأقلية عدم القدرة على الاستفادة من بصيرته دونما توجيهٍ من الآخرين، وهي أقلية يكون هو نفسه مسؤولًا عنها، لأن السبب لا يكمن في خلل في البصيرة، بل في عدم اتخاذ القرار والشجاعة لاستخدامها من دون توجيه من الآخرين. هيا فلتكن لك الشجاعة لاستخدام بصيرتك الخاصة! لعمري إنّ هذا لَهو شعار التنوير»[11]. ويستلزم هذا التحول في التركيز من فكرة الطفولة إلى فكرة الأقلية تحولًا عميقًا في دور المربي العمومي L'éducateur public: فالأخير يقترن بنقد وضع الهيمنة المسؤول عن التأخر في التطور الإنساني أكثر من اقترانه بتطور عضوي ملازم. وحينها تحل الأزمة محل النقد، بعد أنْ صارت الفلسفة النقدية في موضع المربّي بالنسبة إلى الجنس البشري. لكن هذا التمطيط يحمل معه بعض التغييرات المهمة التي تظهر في العلاقة بين مفهومي النقد والأزمة. ومثلما وضّح راينهارت كوسليك في عمله **النقد والأزمة**[12]، انصبّ تركيز مفكري ما قبل الثورة، في البدء، على النقد الأخلاقي لمؤسسات الهيمنة، وإنه تحت ضغط الأحداث فقط، تحوّل هذا النقد الأخلاقي لنظام المؤسسات إلى أزمة سياسية؛ أي إلى ثورةٍ وحربٍ أهلية.

يلاحظ كوسليك أن النقد حين انحصر في المجال الأخلاقي من دون أن يؤدي إلى قرار سياسي، أمكن لقرن من النقد أن يتجاهل مفهوم الأزمة. بل لقد ظلت محجوبة عنه بفِعل تمثُّل التقدم الذي أبقى الفكرة النقدية، بهذا المعنى، في حالة من الجهل الذاتي. ثم حدث الانتقال من النقد إلى الأزمة، حين انتهت الفكرة المتفائلة عن التقدم الذي لا نهاية له إلى سؤال القرار السياسي الذي جرى التغافل عنه حتى ذلك الوقت. ويمثل روسو أحد المعاصرين والفاعلين في هذا الانتقال؛ فقد قال في كتابه **إميل**: «إنك لَتثق بالنظام الحالي للمجتمع من دون أن تفكر في أنه عرضة لثورات حتمية، وأنه من المستحيل بالنسبة إليك أن تتوقع أو تمنع حدوث تلك التي يمكن أن يعايشها أطفالك». ويقول أيضًا: «إننا نقترب من

---

(10) Kant, *La philosophie de l'histoire*, pp. 46– 55.

(11) Ibid., p. 46.

(12) Reinhart Koselleck, *Kritik und Krise: Eine Studie zur Pathogenese der bürgerlichenWelt* (Frankfurt: Suhrkamp, 1973), p. 36.

وردت الترجمة الفرنسية بعنوان:

Reinhart Koselleck, *Le règne de la critique* (Paris: Les Éditions de Minuit, 1979).

وضع الأزمة وقرن الثورات»[13]. ويشير مصطلح الأزمة هنا إلى ما هو أكثر من مصطلح الثورة التي لم يكن لها، في القرن السابع عشر، أيّ مشترك مع الحرب الأهلية، ومحيلة إلى حدوث اضطراب يمور به كلّ مجال من مجالات الحياة (أو مثلما يقول ديدرو: «الثورات ضرورية، حدثت في الماضي وستحدث غدًا»[14]). والسبب في ذلك هو أن مصطلح الثورة لم يكن قد قطع بعدُ روابطَه مع الكوسمولوجيا، وقرابتَه مع الثورات السماوية، ومنها استمدت الثورةُ ضرورتها ونسبيةَ الأضرار المتأتية منها[15]. وحين ولجت الأزمة المجالَ السياسي أحالت النقد جديًا، جالبةً معها دلالاتها العلاجية؛ أي قوّتها الكاشفة عن وجود العلة العميقة، ولا سيما تأثيرها في اتجاه قرار الحسم بوجود إما تدهور وإما تحسّن؛ أو مثلما يعلنه ديدرو بقوله: «إننا نقارب أزمةً قد تنتهي إما إلى العبودية وإما إلى الحرية»[16]. إنّ هذا التعبير عن الـ «إما... وإما ...» ينتمي إلى لحظة التكهن التالية للتشخيص الذي يعني قراءة الأعراض. وهذا البديل ما بين الاستبداد والحرية هو الذي انتهى إلى دمج منظور الحرب الأهلية، بمخاطرها المرعبة، داخل منظور الثورة التي كانت حتى الآن أمرًا مطَمئِنًا. لا شك في أنه قد أمكن القبول بمثل هذا الخطر الكثيف، بفضل الانتقال من المقولة الأخروية عن يوم القيامة إلى فلسفة التاريخ التي امتزجت بدورها بالفلسفة السياسية. ليتخذ تهديد الحرب الأهلية طابع الفعل العقابي الذي تمارسه الهيئة الناقدة التي جرى تشكيلها كمحكمة للطغاة؛ لقد تحولت يوتوبيا التقدم إلى عدل محايث. وإنه لَمن اللافت للنظر أنّ الترابط بين التاريخ العالمي Weltgeschichte والمحكمة العالمية Weltgericht حدث داخل فكر ما قبل الثورة – وهو الذي خلّق الرعب بصورة مسبقة. بذلك جرى الحفاظ على النواة الأهم داخل فكرة الأزمة؛ وهو طابعها المفيد لا الانتقالي فحسب. فتكون فكرة الأزمة الدائمة، وفق هذا التصنيف، غيرَ ممكنة التصوّر بسبب طابعها الحاسم ذاته: فمثلما يعلن الأب رينال «ستولد الحرية من قلب الاضطهاد... وإنّ يوم النهوض ليس ببعيد»[17]. وعلى هذا النحو، أتاحت أيديولوجيا التقدم أن تُدمج فكرة الأزمة ضمن فلسفة سياسية شديدة التفاؤل.

4. يقدم تاريخ العلوم نموذجًا مختلفًا تمامًا للأزمة. ويتجسّد هذا النموذج الإبستيمي بوضوح في عمل توماس كون الشهير عن الثورات العلمية[18]، لذلك لن أسهب في الحديث عنه. يصر عالم الإبستيمولوجيا المعروف، مثلما نعلم، على الطبيعة المتقطّعة للكشف العلمي. فالتقدم، وبعيدًا عن المضي بطريقة تراكمية، يجري من خلال سلسلة من الانقطاعات التي تفصل بين منظومتين بدهيتين متماسكتين. ويحدث الانقطاع حين يكفّ عدد من الحقائق أو الخبرات أو المعرفة عن الاندماج في التوليفة القائمة للمعرفة؛ فيتعين حينها تغيير البراديغم. وفي هذا النموذج الإبستيمي، نعثر على بعض

(13) يمكن العثور على هاتين الفقرتين عن روسو في: Koselleck, *Kritik und Krise*, p. 133.

(14) ورد الاقتباس في: Ibid., p. 221.

(15) يراجع في هذا الصدد: Ibid., pp. 221–222.

(16) Ibid., p. 144.

(17) Ibid., p. 233.

(18) Thomas S. Kuhn, *La structure des révolutions scientifiques*, Laure Meyer (trad.), Collection Champs, 115 (Paris: Flammarion, 1983).

سمات النماذج السابقة: الانقطاع الزمني أولاً، ثم فكرة التناوب بين حالات التوازن ومراحل الاختلال، وأخيرًا فكرة التعقُّد المتزايد للمعرفة التي تحدث من خلال سلسلة من القفزات النوعية. هنا أيضًا تكون الأزمة انتقالية؛ فما نعرفه عنها لا يتأتّى إلا عبر وجهة نظر التشكيل البدهي الجديد. ومع ذلك، لا ترتبط بنموذج الأزمة هذا أيّ فكرة عن خلل باثولوجي أو معاناة أو ضيق، ما لم ينطبق ذلك على حالة الفوضى الفكرية التي يقبع فيها مؤيدو التوليفة المتجاوَزة.

5. نصل إلى المفهوم الاقتصادي للأزمة. ولم أشأ البدء بهذا الاستخدام على الرغم من شيوعه وهيمنته، وذلك حتى لا أستسلم للاتجاه العام الذي يجعل منه النموذج الوحيد للأزمة؛ لم أشأْ أيضًا الالتزام بالفكرة التي تقول إنّ الأزمة ليست فقط اقتصادية؛ بل إنها ذات تاريخ دقيق جدًا هو عام 1929، وذات مكان محدد هو بورصة نيويورك. لكن محاولة تلافي مثل هذا الاختزال المزدوج لن تعفينا من تفسيره. وبقطع النظر عن أنّ للأزمة الاقتصادية، وبخلاف جميع الأزمات الأخرى، تأثيرًا في المجال الثقافي بفعل الصلة بين البنية التحتية والبنية الفوقية، يجب أن يقال أيضًا إن الشكل الاقتصادي للأزمة يتبدّى نموذجًا لجميع الأزمات فقط في حضارتنا التي تضع الاقتصاد في صدارة تسلسلها الهرمي للقيم. سنعود إلى هذه الفكرة في الجزء الثاني الذي سنكرّسه خاصة للحقيقة الاجتماعية الكلية وعملية تراتبية القيم الخاصة بها. دعونا نقتصر في الوقت الحالي على وصف تخطيطي لمفهوم الأزمة الاقتصادية، من دون الخوض في علاقتها بالأفكار والقيم التي يقوم عليها المجتمع الكلي.

عند الحديث عن أزمة اقتصادية، من المهم أولاً وقبل كل شيء الحفاظ على استخدام صيغة الجمع للتحدث عن أزمات، وذلك حتى نأخذ في الحسبان «التنوع في الأزمات المحدَّدة، وتسلسلها الزمني، وقابليتها للتمييز بحيث تعرض كلٌّ منها بعض السمات التي تجعلها مختلفة عن غيرها»[19]. إن ميزة وجهة النظر الوصفية والتاريخية هذه، التي تتجاوز وجهة النظر المنهجية والاقتصادية البحتة، هي عدم الاقتصار على أزمات النظام الرأسمالي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وذلك بهدف إفساح المجال لفحص أزمات من النوع القديم؛ تلك الخاصة بالنظام الاقتصادي ما قبل الصناعي وما قبل الرأسمالي. إضافةً إلى ذلك، تتميز وجهة النظر هذه بمراعاتها التداعيات الاجتماعية؛ أي معاناة أعداد كبيرة من الناس، والتي من دونها لا يمكن الحديث عن أزمة. ومثلما هي الحال في النموذج الطبي، فإن العلل المحسوسة هي ما يكشف دومًا عن التفاوتات وانعدام المساواة والتناقضات التي تؤثر في النظام الاجتماعي ككل. وإنّ هذه المعاناة هي في نهاية المطاف ما يشكل تهديدًا لجميع التوازنات الأخرى، ومن ثمّ للأيديولوجيا المهيمنة، أي للتسلسل الهرمي للقيم الذي يتعرّف من خلاله المجتمع الكلي.

إن الميزة الإمبريقية الأوضح، والتي تسمح بتجميع الأزمات معًا بصورة مؤقتة تحت المفهوم العام نفسه، هي ميزة «انقطاع في التوازن، والتصدّع الذي يليه سقوط؛ حيث يحدث انهيار في النشاط

(19) "Crises économiques," in: *Encyclopaedia Universalis*, vol. 5 (Paris: Encyclopædia Britannica, 1968), p. 101.

الإنتاجي، والتبادلات التجارية، والأرباح، والأجور، وأسعار الصرف؛ وفي الوقت نفسه ارتفاع حالات الإفلاس، والبطالة، والانتحار»[20]. وإنه على هذا المسار التنازلي تتجلى المعاناة في صورة أعراض، حيث يصير الحادث الدوري كاشفًا عن الاختلالات التي تصيب البنى وتتبدّى معه أسوأ الهواجس. في اقتصاد النظام القديم، كانت التقلبات الزراعية هي التي سيطرت على حركة الأسعار في مجموعها (وضع لابروس Labrousse[21] مخططًا لذلك يشمل على وجه خاص: نقص الإنتاج الزراعي، ونقص الغذاء، والركود الصناعي نتيجة لانهيار السوق الاستهلاكية في الأرياف، وزيادة معدلات الوفيات، يرافقها أيضًا انخفاض مفاجئ في معدلات الولادة)، أما في الاقتصادات المختلطة، نصف الزراعية ونصف الصناعية التي سادت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد عكست الأزمات في أعوام (1873، 1882، 1900، 1907، 1913–1914، 1921، 1928، 1938 ... إلخ) هيمنة الاقتصاد الصناعي على الاقتصاد الزراعي، وتوحيد الأسواق، وهيمنة السلع الإنتاجية، والدور المتنامي للأسواق المالية والائتمان البنكي. ومع أزمة عام 1929، ظهر الخلل في البداية لا في مجال الإنتاج أو تداول المنتجات، بل في تداول رأس المال. وأدت أزمة سوق الأسهم (انهيار وول ستريت في خريف عام 1929) التي أعقبتها أزمة مصرفية (سحب الودائع) إلى حدوث أزمة تجارية وأخرى صناعية. ولن أستفيض في الحديث عن ظاهرة الأزمات الاقتصادية ما دمت لست مختصًا في المجال.

سأركز على الظواهر الثلاث التي أدت إلى التنظير للأزمات. الظاهرة الأولى هي إضفاء الاستقلالية الخاصة Autonomisation، وشهدته أولًا عمليات الإنتاج، الصناعية بصفة أساسية، مقارنةً بظواهر اجتماعية أخرى، ثم خضع له النظام البنكي مقارنةً بتبادلات السوق والإنتاج، وأخيرًا دوائر المضاربة. إن ظاهرة الاستقلالية هذه هي التي يستشعرها الجمهور بوصفها حتمية خارجية، وقد قدم هيغل وصفًا تنبئيًا لها في كتابه، **مبادئ فلسفة القانون**[22]، فوضع «نظام الاحتياجات» الذي اعتبره «دولة خارجية» في مواجهة الاعتراف المتبادل بالمواطنين داخل التشكيل السياسي لدولة القانون؛ فالمجتمع بما يمنحه من قيمة للمكون الاقتصادي لوجوده، هو الذي يستشعر الفوضى الاقتصادية بوصفها كلية وليست جزئية (كيف يمكن، على سبيل المثال، أن نفهم لِم ثمة الكثير من المواد الغذائية في مكان وليس ثمة ما يكفي منها في مكان آخر، وأنه يجري حرق الفائض هنا والتضور جوعًا هناك؟).

الظاهرة الثانية هي السمة الدورية Périodicité للأزمات (دورة كوندراتييف ... إلخ). وربما تكون هذه الظاهرة هي التي تميز بالصورة الأفضل النموذج الاقتصادي للأزمة مقارنةً بجميع الأزمات الأخرى، والتي يقول الاستقراء إنها تميل في الوقت نفسه إلى أن تصير سمة عامة بفِعل هيمنة الظاهرة الاقتصادية في التسلسل الهرمي لقيم المجتمعات الصناعية المتقدمة. وبحكم خاصية الدورية هذه، «لا يجري

(20) Ibid.

(21) Ernest Labrousse, *La crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début de la Révolution* (Paris: PUF, 1943).

(22) Georg Wilhelm Friedrich Hegel, *Principes de la philosophie du droit*, André Kaan (trad.), Jean Hyppolite (préf.) (Paris: Gallimard, 1973).

ينظر على وجه الخصوص المحوران الثاني والثالث من القسم الثالث، والمخصصان للأخلاق الموضوعية.

تصوُّر الأزمة إلا في إطار الحركة التي تحيط بها وهي الدورة، وفي وجود مراحل أربع تتكون من الصعود، ثم الأزمة نفسها، ثم الكساد، ثم أخيرًا الانتعاش، وفكرة الدورة هنا هي ما يمثل إشكالًا حيث موجاتها القصيرة وعودتها إلى نقطة البداية»[23]. وهنا أيضًا، لن أخوض في الخلافات الأكاديمية بين المدارس، بما في ذلك بالطبع الصدام بين الأطروحات الماركسية وغير الماركسية. بل سأركز على جوانبَ معينة من السمة الدورية للأزمات الاقتصادية التي تعزز التشابه العائلي بين المفاهيم المختلفة للأزمة التي استكشفناها آنفًا. الحقيقة هي أن التاريخ الاقتصادي للشعوب يبدو أنه لا يتقدم إلا من خلال التناوب بين العمليات التراكمية (التي تزيد من الضعف المتنامي للنظام عن طريق تقليص قدرته على التكيف) ونوبات اختلال التوازن؛ ومن جهة أخرى، يُعاد تكوين الموارد التي تسمح بالانتعاش خلال مرحلة الكساد. في هذين المظهرين، تشبه الدورات التي تحدث فيها الأزمات الاقتصادية وبقوة دورات الحياة الموصوفة لدى علماء النفس والمحللين النفسانيين. وقد نذهب أبعد من ذلك، ونقول إنه من المفارقات أن السمة الدورية للأزمات الاقتصادية تنطوي على أمل؛ فالأزمة انتقالية على الدوام وفي كل مرة يكون ثمة مخرج منها.

الظاهرة الثالثة اللافتة التي ألقت عليها الضوءَ نظريةُ الأزمات هي عولمة الأزمة. ولهذه الأخيرة علاقة ببحثنا من وجهتين على الأقل. أولًا، أنها مؤشر له صلة بظاهرة أخرى تعتمل تحتها هي عولمة السوق. ومع ذلك، فإن فهم هذه الظاهرة يتطلب تجاوز الإطار المحدود للتحليل الاقتصادي؛ إذ تشير عولمة السوق، في آن واحد، إلى عولمة ظاهرة الاستقلالية وهيمنة الاقتصاد مقارنةً بالمكونات الأخرى للمجتمع الكلي. وفي الوقت نفسه، لم تعد هذه الظاهرة تتعلق بالاقتصاد بوصفه كذلك فحسب، بل بالأيديولوجيا؛ أي التمثُّل الذي يرسمه مجتمع ما لاشتغاله العام. وفي واقع الأمر، كانت الأيديولوجيا ممثلة في الليبرالية الاقتصادية هي التي فرضت على العالم الغربي تمثُّل الظواهر الاقتصادية «على أنها منفصلة عن المجتمع وأنها تشكل في حد ذاتها نظامًا متميزًا يجب أن تخضع له بقية المجتمع»[24]. ومع ذلك، فإن هذه الأيديولوجيا، بعيدة عن كونها «طبيعية»، بل هي ابتكار غير مسبوق وُلد في القرن التاسع عشر؛ وتعني أيديولوجية نزع الطابع الاجتماعي عن الاقتصاد Dé–socialisation de l’économie. وينبثق من ذلك تفسيرٌ أكثر راديكالية لأزمة الثلاثينيات، يجبرنا على نقل فكرة الأزمة إلى مستوى آخر؛ ذلك أن «ما فرضته أزمة الثلاثينيات الكبرى على العالم هو إعادة سبغ الاقتصاد بالطابع الاجتماعي Re–socialisation de l’économie»[25]. ويمكن مدّ هذه الملاحظة إلى أقصاها، إذا أردنا تقدير ظاهرة عولمة الأزمة بدقة: ذلك أن هذه الأخيرة لا تقتصر على الانتشار الجغرافي لاضطراب اقتصادي بحت فحسب، بل تكمن في عولمة أزمة الأيديولوجيا التي تعتمل خلف هذا الإضفاء للاستقلالية وهذه الهيمنة المرتبطة بالسوق. وبالنظر إلى الارتباط بين السوق وأيديولوجيا الليبرالية الاقتصادية، فإن

(23) *Encyclopaedia Universalis*, p. 101.

(24) ورد في مقدمة لويس دومون في:

Karl Polanyi, *La grande transformation: Aux origines économiques de notre temps*, Catherine Malamoud & Maurice Angeno (trad.), Louis Dumont (préf.) (Paris: Gallimard, 1983), p. 1.

(25) Ibid.

لعولمة السوق تداعيات اجتماعية تختلف بصورة جذرية من ثقافة إلى أخرى. فالأزمة الاقتصادية في الغرب، بعد أن صارت الليبرالية الاقتصادية أحد مكونات ما يسمى الحداثة، إنما تشكّل أزمة حداثته نفسها؛ ومن ثمّ، فإن ما يصدّره الغرب من خلال عولمة الأزمة والسوق هو أزمة الحداثة نفسها مثلما تُعرَّف بالمصطلحات الغربية. لكن بقية العالم لم تكن تتبنّى أيديولوجيا الليبرالية الاقتصادية، خلال الفترة نفسها. لهذا السبب، ومن خلال التأثير في هذه الثقافات على نحوٍ مباشر، أجبرتها عولمة السوق على إعادة تعريف نفسها ليس فقط وفق مفردات الأزمة الاقتصادية، بل وِفق مفردات أزمة الأيديولوجيا ذاتها التي جعلت السوق عاملاً مستقلاً. وقد انتقلت الأزمة على هذا النحو من المستوى الاقتصادي إلى مستوى تمثّلات الظاهرة الاجتماعية الكلية[26].

وهنا يتجلى التأثير الثاني لظاهرة عولمة الأزمة في بحثنا المفهومي؛ فالأزمة الاقتصادية وهي تمتد جغرافيًا تواجه بعدًا سياسيًا خالصًا، إضافةً إلى العوامل الثقافية الأيديولوجية. وهذا ينطبق على نحوٍ خاص على أزمة عام 1973–1974؛ إذ إضافةً إلى طابعها الاقتصادي البحت الذي يختلف عن طابعِ أزمة عام 1929 – وهو الطابع الذي لست صاحب اختصاص فيه – فإنها تختلف عنها أيضًا من خلال الأثر السياسي الذي خلّفته على وجه التحديد: ففي حين أصابت أزمة عام 1929 اقتصاداً كان لا يزال مستقلاً، أثرت أزمة عام 1973–1974 في سياسات استجابة الدولة للأزمة. وبحسب التحليل الذي يورده كارل بولاني في كتابه، **التحول الكبير** *La grande transformation*[27]، فإن الرأسمالية الليبرالية، في شكلها النقي والصلب، قد دُفنت بصفة غير رسمية على يد الفاشية بعد احتضارها بالفعل خلال عام 1939، وإن الأزمة المستمرة منذ أكثر من عشر سنوات إنما تضرب اليوم اقتصادات مختلطة بدرجات متفاوتة. في الوقت نفسه، لا يشعر الرأي العام بأنها أزمة اقتصادية بحتة، بقدر ما يراها تعبيرًا عن مأزق لسياسات الدولة في استجابتها لهذه الأزمة، وفشلاً في الخروج السياسي منها. ولهذا السبب نحن نشعر أن الأزمة التي لا نزال نعايشها أشدّ راديكالية؛ ذلك أن الارتباط بين السياسي (أو الدولة تحديدًا) والمجتمع الكلي أوثق مقارنةً بالاقتصادي، لا سيما في غياب دولة عالمية توازي حجم الأزمة. ومع تحوُّل الأزمة الاقتصادية إلى ظاهرة عولمية، تصير كاشفة في مستويات متعددة: حيال فقدان ثقة الرأي العام بقادته، وحيال التناقض بين البعد الوطني للدول والبعد الدولي للأزمة (يكشف علاج الدين العالمي في هذا الصدد عن هذه الحاجة وهذا النقصان).

بهذه الطرائق، وعلى الرغم من أن الأزمة الاقتصادية لا تقدم في ذاتها التعريف المطلوب لمفهوم الأزمة، فإنها تتفاعل مع ظواهر ذات كثافة أكبر، مما يضطر المحللَ إلى الانتقال بالتفكير إلى مستوى الظاهرة الاجتماعية الكلية.

(26) يعرف دومون في النص المذكور، أيديولوجيا الاقتصاد الليبيرالي كما يلي: «مذهب ينص على أن المنطق الحر للاقتصاد هو شرط النظام، وبذلك يكون أي تدخل [من جانب الدولة] ضارًا. لقد كانت المؤسسة المركزية هي السوق، التي يُنظر إليها بوصفها منظمة بصورة ذاتية، وعلى المجتمع أن يخضع لها في كل حال». Ibid., p. vi.

(27) Polanyi.

ثانيًا: معايير لمفهوم الأزمة «المعممة»

ذكرنا في المقدمة الصعوبات التي تواجهها محاولة الانتقال من بعض المفاهيم «الجهوية» للأزمة إلى مفهوم الأزمة «المعممة»؛ تلك التي تمثل ما يسمى أزمة المجتمع. ينبغي، مثلما ذكرنا آنفًا، أن نعرف أننا نتحدث هنا بدقة عن المجتمع باعتباره كلًا، أو عن «الحقيقة الاجتماعية الكلية»، إذا ما استخدمنا عبارة مارسيل موس[28]. تتطلب هذه المقاربة الكليانية القدرة على إدراك تشكلات الأفكار والقيم التي يفهم من خلالها المجتمعُ نفسَه.

لقد سبق استحضار وجهة النظر الكلية هذه مرات عدة، بالنظر إلى أن كل مفهوم «جهوي» يفترض إمكانيةَ إخضاعه للتعميم.

على هذا النحو، يمكن تعميم المعيار الطبي حيث يمكننا الحديث عن الجسد الاجتماعي وتطبيق الخصائص المرَضية عليه: فتعني أزمة المجتمع، إذا كان ثمة من أزمة، أن الجسد كله مريض، أي إنه يشكو من علة في قدرته على الاندماج (المتزامن) والتوازن (المتتابع). ومع ذلك، ثمة عقبات تواجه هذا التعميم: فهل الجسد الاجتماعي هو أكثر من مجرد استعارة؟ أليست هذه الاستعارة خطيرة بسبب دلالاتها العضوية (فخلايا الكائن الحي لا تفكر! مثلما يقول ماكس فيبر)؟ وإذا كنا نتحدث عن باثولوجيا اجتماعية، فمن هو الطبيب المخول لإجراء التشخيص والتكهّن بالعلاج؟

يمكن تعميم المعيار البيداغوجي بصورة جيدة أيضًا؛ فلقد جرى تطبيق فكرة النمو مع نتائجها الخاصة بعنصرَي الأقلية والأغلبية على الشعوب، بل على البشرية جمعاء، كما في رؤية كانط العالمية للتاريخ، وفي هذه الحالة يفيد نموذج أزمة الهوية، التي يتحدث عنها علماء النفس والمحللون النفسانيون والبيداغوجيون، في إلقاء الضوء على أزمة المجتمع. لكن وهنا أيضًا، يفقد النموذج البيداغوجي للأزمة جزءًا من تماسكه بالنظر إلى أنه، ومثلما أسلفنا القول، يقوم على فكرة النضج دونما شيخوخة أو موت، كما هي الحال في فكرة التقدم. وبذلك يفقد مفهوم دورة الحياة تماسكه. وأخيرًا، إذا فضلنا عزل مرحلة النضج، فالعملية حينها لن تلقي الضوء إلا على غائية النمو وتُظهر الأزمةَ مفيدة وبلا مفارقة تُذكر. وحينها يصير تجنُّب احتمال التراجع يسيرًا للغاية.

ويستدعي المعيار السياسي تعميمًا من نمط مختلف، بحيث يتعلق المحك هنا بالحاجة إلى الشرعنة التي تثيرها الظاهرة السياسية. فالمؤسسة السياسية، سواء أكانت كاريزمية أم تقليدية أم عقلانية، إذا ما استخدمنا تصنيف ماكس فيبر، تخلق داخل الظاهرة الاجتماعية اختلافًا بين من يحكمون ومن يطيعون؛ فتتولد عن ذلك إشكالية حتمية تتعلق بالقوة أو الهيمنة Herrschaft؛ وهذه البنية هي التي تحتاج إلى شرعنة. فتكون الأزمة بهذا المعنى هي أزمة شرعية، لكن هذه الأخيرة تشكل أزمةً للمجتمع برمته بالنظر إلى أنّ الدولة، وفقًا لتعبير إريك ڤايل في كتابه، **الفلسفة السياسية**، هي التنظيم الذي يخضع له مجتمع تاريخي («فالمجتمع الذي ينتظم في دولة قادر على اتخاذ القرارات»[29]). وإن المدى الذي تبلغه قدرة

(28) Mauss.

(29) Erik Weil, *Philosophie politique* (Paris: Vrin, 1956), p. 131.

المجتمع الكلي هذه على اتخاذ القرار هو الذي يُطلق أزمة شرعية محتملة. ننتقل هاهنا إذًا من مجال السياسة إلى الأخلاق، ما دام إضفاء الشرعية على السلطة إنما يحيل على التشكيل القيمي الذي يتعرّف من خلاله المجتمع. لذلك سيتعلق السؤال التالي بصورة أكبر، بما إذا كان من الممكن الاقتراب مباشرة من هذه الأفكار القيمية التي يتمثل من خلالها المجتمع في صورة أيديولوجيا.

وليس المعيار الإبستيمي أقل ثراءً لجهة إمكانات التعميم. وهنا يمثل كتاب هوسرل عن الأزمة Krisis – **أزمة العلوم الأوروبية وفينومولوجيا التعالي**[30] – أفضل مدخل للمشكلة. يتحدث هوسرل بصورة صريحة، وضمن الأزمات الداخلية في كلّ علم، تلك التي تحدّثنا عنها في مصطلحات كون عن التحول البراديغمي، عن أزمة الأسس التي ليست إبستيمولوجية بل متعالية؛ وذلك بالمعنى الذي يتصل **بالتبرير** النهائي للمعرفة. إن فكرة الصراع مع الآلهة، حيث يتواجه مذهبَا التعالي والموضوعية، تتوّج وفقًا لهوسرل الأزمةَ المعاصرةَ الناجمةَ عن عدم القدرة على الاستجابة لمطلب التبرير النهائي، بل حتى طرح السؤال ذاته. في هذا الصدد، فإن كتابًا مثل كتاب ريشارد رورتي[31]، الذي يدين المشروع التأسيسي بأكمله، يفسره هوسرل على أنه أحد أعراض أزمة الأسس وتصديقٌ على وجودها. وإن لِفكرة أزمة الأسس هذه بلا شك قدرة على التعميم توازي تلك الخاصة بأزمة تكامل التوازن، أو أزمَة الهوية، بل حتى أزمة الشرعية. ومع ذلك، فإن لهذا التعميم أيضًا حدودَه: منها المسألة المتصلة بمعرفة كيف تتوافق مسألة التبرير النهائي للمعرفة مع مجموعة الأفكار والقيم التي تعتمل خلف الظاهرة الاجتماعية الكلية. وهنا بالتأكيد، تقع الفلسفة في مركز هذه الظاهرة باعتبارها غربية بامتياز، ومن ثمّ عامل للحداثة في الغرب[32]. على هذا النحو، يمكننا القول إن الفلسفة تشكّل بنية الذاكرة في أوروبا، وأوروبا هنا هي «فكرة» مثلما يراها هوسرل لا منطقة من العالم. ويمكن مع ذلك التساؤل إذا ما نجحت الفلسفة، داخل أوروبا نفسها، في توليد «المجتمع المتعالي» القادر على ممارسة الوظيفة «الأرشيفية» Archontique التي نسبها إليه هوسرل. وهو ما يحيلنا، من ثمّ، على التساؤل أيضًا عمّا إذا أفلتت المركزية الأوروبية الضمنية في كلمات هوسرل من الغطرسة التي يمارسها مجتمع محدد، وعمّا إذا كانت تسمية الفيلسوف الغربي لنفسه، بوصفه «موظَّف الإنسانية» Fonctionnaire de l'humanité، تنطوي على السذاجة التي هي أسوأ من الغطرسة. إن هذه الأسئلة التي لم تعثر لها على أجوبة تجعل التعميم الكامل للنموذج الإبستيمي، الذي رفعه هوسرل إلى مرتبة النموذج المتعالي، متعذرًا.

لقد أسلفنا الحديث عن المقاربة الشاملة التي ستسمح بتقديم تعريف عن مفهوم أزمة المجتمع بالاعتماد على النموذج الاقتصادي للأزمة. لقد لوحظ بالفعل أن ظاهرة توحيد السوق وتوسيعها وتحريرها يمكن اعتبارها، وفي آن واحد، سببًا ونتيجة في تغييرات أخرى حدثت، لا سيما على مستوى

(30) Edmund Husserl, *La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*, Gérard Granel (trad. & préf.) (Paris: Gallimard, 1976).

(31) Richard Rorty, *Philosophy and the Mirror of Nature* (Princeton: Princeton University Press, 1980).

(32) Husserl, pp. 7–24, 347–383.

الذهنيات، وذلك إذا ما اقتصر الأمر على وجهة نظر سببية بسيطة. لكن بمجرد الانتقال إلى وجهة نظر بنيوية، يصير انتماء هذه الظاهرة إلى تشكيلة الأفكار والقيم التي تميز المجتمع الحديث، بوصفه كلًا، أشدّ وضوحًا وأكثر تحدُّدًا في الوقت نفسه. ونقصد، بصورة أكثر تحديدًا، التمجيد الذي تحظى به فكرة السوق؛ فهي تسِم جانبًا مهمًا من تلك التشكيلة، بفضل المكانة التي تحتلها في التسلسل الهرمي لقيم المجتمعات الحديثة. وينفتح هنا منفذ حاسم يقودنا إلى الظاهرة الاجتماعية الكلية: فالمجتمع بوصفه كلًا هو الذي يجري تعريفه، في العصر الحديث، بوساطة استقلالية السوق الممتدة إلى أبعاد العالم؛ وأيديولوجيتُها هي التي تبتغي أن يخضع كل شيء للتسليع الفعلي.

توضح الملاحظات السابقة أن المقاربة الكليانية هي في آن واحد شرعية (فلسنا نفهم أبدًا ظاهرة اجتماعية، إلا في علاقتها بغيرها من الظواهر الأخرى، عبر منظور بنيوي أكثر منه سببيًا). وهي غير مباشرة وغير مكتملة؛ فمعاييرنا «الجهوية» لا تتداخل بصورة كاملة على الرغم من «التعميم» الذي تخضع له الأزمة العضوية للجسد الاجتماعي، أزمة الهوية التي تتمظهر في نمو المجتمعات والجنس البشري بأكمله بلا شيخوخة، أزمة الشرعية المرتبطة بظاهرة الهيمنة، أزمة «التعالي» التي تصيب الأسس، أزمة الاقتصاد، بل أزمة أيديولوجيا الليبرالية الاقتصادية. وهنا تنبثق الحاجة إلى البحث عن نموذج شامل قادر على التنسيق بين هذه الخلاصات غير المكتملة الخاصة بـ «التعميم». فننجر حينها للذهاب إلى النقيض المعاكس ومقابلة النهج التحليلي والمتشظي بمقاربة كليانية مباشِرة. ويمكننا العثور على حافز بهذا المعنى في الفلسفات الوجودية التي تتعامل مع فكرة الأزمة، بوصفها بنية دائمة للشرط الإنساني Humana Conditio.

على هذا النحو، وفي التراث الذي خلفه ماكس شيلر، ولدى كل من پول لاندسبيرغ وإيمانويل مونييه، يفسح المفهوم النضالي للإنسان الملتزم موقعًا كبيرًا للصراع وللقطيعة وللمخاطرة، ومن ثمّ لفكرة الأزمة وفق هذا المعنى. وهكذا، يصور لاندسبيرغ الشخص بملامح درامية، ممزقًا بين قوى الحياة التي تجذبه نحو نشوة سوداء والقوى الروحية التي تدفعه نحو نشوة أسمى. فتكون الأزمة في الوسط بينهما، ومنها تتكون شجاعة الوجود في الكون. أما ما يشكل بذرة كل الأوجه الجزئية للأزمة التي أسلفناها، فليس الشخص بقدر ما هو إضفاء السمة الشخصية بوصفها سعيًا لانتزاع التفرد والاختلاف. ثمة أزمة؛ لأن الإنسان ليس له «مكان» طبيعي في الكون، إذا ما أحلنا إلى العنوان الشهير الذي استخدمه ماكس شيلر؛ مكان الإنسان في الكون *La situation de l'homme dans le cosmos*[33]. وهو لا يعثر على هذا المكان، إلا عن طريق عملية إضفاء للهرمية التي تكشف - بقدر ما تخلق - نظامًا لا يشبه الكون الطبيعي. لكن هذا النشاط القائم على إضفاء الهرمية لا يحدث من دون وجود حكم تفضيليّ Jugement de Préférence، أو أزمة تقطع مع الاضطراب الفطري. أودّ أن أقول على غرار لاندسبيرغ ومونييه، إن إدراك الموقف على أنه أزمة هو ألّا أعرف مكاني في الكون، وأيُّ تسلسل هرمي ثابت للقيم يمكن أن يقود تفضيلاتي، وألّا أميز بوضوح أصدقائي من خصومي. فيصير الالتزام في هذه الحالة

(33) Max Scheler, *Die Siellung des Menschen im Kosmos* (München: Nymphenburger Verlag, 1947).

وردت الترجمة الفرنسية في: Maurice Dupuy, *La situation de l'homme dans le monde* (Paris: Aubier Montaigne, 1951).

الوسيلة الوحيدة لتمييز نظام من القيم قادر على استدعائي إليه، أو هرمية الأفضل، وذلك عبر الانضمام إلى قضية تتجاوزني. وهكذا، فإنّ الالتزام هو مصدر لقناعة - وهو مصطلح هيغلي أيضًا - تشكّل بالنسبة إلى الشخص الطريقَ الفعلي للخروج من الأزمة.

إنّ الفكرة الحاسمة لبقية بحثنا هي أن بؤرة الأزمة تكمن في البنية الزمنية لعملية إضفاء السمة الشخصية Personnalisation. والالتزام هو ذلك الجهد الموجه نحو تشكيل مستقبل الإنسان: ومن ثمّ تنشأ الأزمة عند مفترق طرق يتصارع فيه الالتزام مع الميل إلى الخمول، والهروب، والتفلّت.

هذه العلاقة بين السمة الزمنية Temporalité والأزمة هي التي أبرزها مفكر آخر، غير مؤيد جدًا للفلسفة الوجودية، هو إريك ڤايل[34]، في تحليله مقولة الشخصية. إنّ الشخصية هي تلك اللحظة في نظام المعنى حين «يتشكّل الإنسان، الذي يفسر نفسه بنفسه، كمركز عالمٍ هو عالم حريته؛ إنه القيمة المطلقة، ومصدر كل القيم: إنه الشخصية»[35]. وبهذا التعريف، فإن الشخصية تشير إلى تمجيد الصراع الذي يضع الاعتداد بالنفس في تعارضٍ مع قيم الآخرين. ويتحول هذا الصراع حين يصير ذاتيًا إلى أزمة: «فيحدث التحرر عبر القدرة الخلاقة من داخل الأزمة Crisis التي هي في الوقت نفسه عِلم وحكم. فأنا (المستقبل الحالي) أنظر إلى نفسي (الماضي الحاضر) وأحكم على نفسي»[36]. وهاهنا لا بد من القول إن «الشخصية هي دائمًا داخل الأزمة؛ والدوام هو هنا بمعنى في كل لحظة، فهي تخلق نفسها حين تخلق صورتها التي تمثل وجودها المستقبلي»[37]. ليس من قبيل المصادفة أن يقتبس إيريك ڤايل هنا عن كتاب فاوست من غوته: «ما ورثتَه عن آبائك احصل عليه وامتلكْه Was du ererbt von deinen Vätern hast, erwirb es, um es zu besitzen»[38]. بالطبع، لا يتوقف إريك ڤايل عند هذا الحد ويُخضع هذه الدعوة إلى الإنسان المتمرد «إلى الخطاب الوحيد والمتسق تمامًا بحيث يتوارى فيه بصفته الشخصية»[39]، وذلك بهدف استعادة الحرية الحقيقية للفعل ذي المعنى ومن ثمّ الوصول إلى مقولة «الإنجاز»[40]، التي تحيل في نظر إريك ڤايل على السبيل للخروج من الأزمة، أو الالتزام عبر الانضمام إلى قضية ما بحسب لاندسبيرغ مثلما أسلفنا قبل قليل. وتبقى الحقيقة هي أن رحلة الأزمة، مهما كانت انتقالية، إنما تميز بالضرورة مسارًا إنسانيًا، وأن بؤرة الأزمة تسكن في المواجهة ما بين المستقبل والماضي داخل عملية إضفاءٍ للسمة الشخصية.

على الرغم من أننا استفدنا في تأملنا من هذا المفهوم الوجودي للأزمة، فإننا لن نستطيع الاكتفاء بتعميم مكتمل على هذا النحو، للحد الذي يتحول فيه مفهوم الأزمة مرة أخرى إلى مفهوم يصلح لكل شيء،

(34) Erik Weil, *Logique de la philosophie* (Paris: Vrin, 1950).

(35) Ibid., p. 283.

(36) Ibid., p. 294.

(37) Ibid., p. 303.

(38) Ibid., p. 290.

(39) Ibid., p. 319.

(40) Ibid., p. 345.

وهو الأمر الذي كنا نحاجّ ضده منذ البداية. فقد وصلنا في نقاشنا إلى النقطة التي وصفها أفلاطون في «فيليبوس Philèbe» بنهجه التهكمي على النحو التالي: سنكتفي بالرد سريعًا بـ «الواحدية» على من أقر سريعًا بـ «الكثرة»[41]. أو نقول بالاعتماد على كانط هذه المرة، إننا استبدلنا مفهومًا «قصيرًا جدًا» بمفهوم «أطول». فقد أغرقنا مفهوم الأزمة في أنثروبولوجيا فلسفية صالحة لكل المناسبات، فجرّدناه بذلك من كل قيمة تُجليه: لأنه إذا كانت الأزمة في كل مكان، فما من أزمة في أي مكان. باختصار، لقد انتقلنا وببساطة، من التشتت إلى التشويش.

ما المسار «المختلط»، وما فكر «القياس» الذي سيعبر بنا المسافة الفاصلة بين مفاهيم الأزمة شديدة التشتيت ومفهوم لا يكون شديد الاختلاف؟ والحال هذه، يحتوي التحليل السابق على إشارة يجب استغلالها عند هذه النقطة، وهي الرابط ما بين الأزمة والزمن (أو إضفاء السمة الزمنية Temporalisation). لأننا إذا ما نقلنا إلى مستوى الوعي التاريخي ما أوردناه سلفًا عن مستوى الشخص، فسنعثر على بنية عالمية ومحددة في آن واحد، قادرة على توفير مفهوم عن الأزمة يحافظ على السمات العالمية اللازمنية (أو العابرة للأزمان) الواردة في التحليل السابق، مع توجيهها نحو التوصيف الدقيق للحداثة. هذا الهيكل هو ما يقترحه كوسليك في عمله الموسوم **المستقبل الماضي**[42]. وتتعلق المقاربة فيه بدراسة دلالية للمفاهيم التاريخية. يحاول المؤلف تقييم الموضوعات المتعاقبة التي تجسّد داخلها الوعي التاريخي، وذلك في ضوء العلاقات بين قيمتين متعاليتين في الوعي التاريخي، هما أفق التوقع وفضاء الخبرة. وهما متعاليتان بمعنى أنهما توفران الإطار الذي يمكن داخله تقدير الفجوات المتغيرة بينهما. لا شك في أن الفجوة بين هاتين القيمتين لا تلاحظ، إلا عندما يجري التركيز عليها؛ وهذا ما حدث بالفعل في عصر الأنوار بوساطة ثلاث قضايا هي: جِدة العصر (ولنتذكر أن لفظ العصور الجديدة Neuzeit في الألمانية يعني الحداثة على وجه التحديد)، واختزال الآجال التي تفصلنا عن عهد الإنسانية الناضجة، وأخيرًا قابلية التاريخ للخضوع لفعل الإنسان أو جدواه Machbarkeit. فمع عصر الأنوار، أُدرك التباين في هذه الصلة بين أفق التوقع وفضاء الخبرة بصورة حيوية، بحيث كشف عن المقولات التي فُهم من خلالها هذا التباين. إنّ نتيجة طبيعية مهمة لذلك هي أن التاريخ المفهومي، ومن خلال وصف موضوعات الحداثة على أنها تباين في الصلة بين أفق التوقع وفضاء الخبرة، يسهم في جعل هذه الموضوعات نسبية. وبذلك نستطيع اليوم أن نموضعها في فضاء الفكر نفسه الذي ينتمي إليه علم الأخروية السياسية الذي ساد حتى القرن السادس عشر، أو الرؤية السياسية التي تقوم على العلاقة بين الفضيلة والثروة، أو حتى موضوعة «دروس التاريخ». وبهذا المعنى، تمنحنا صياغة مفاهيم أفق التوقع وفضاء الخبرة الوسيلةَ لفهم انحلال موضوعة التقدم في صورة تباينٍ معقول لهذه الصلة نفسها بين أفق التوقع وفضاء الخبرة.

(41) يقصد به مذهب الواحد والكثرة في الموجودات في فلسفة أفلاطون. فالكثرة (أو التنوع) ترتد للوحدة، والوحدة تتضمن التنوع فيكون كل موجود واحدًا وكثرة في آن. لذلك يكون التعميم هو النظر في الوحدة من خلال التنوع مهما كان مشتتًا؛ إذ بين التنوع ما يجمع فيبرر الوحدة التي هي غاية كل كثرة. وهذه هي قاعدة كل معرفة عقلية. (المترجم)

(42) Reinhart Koselleck, *Vergangene Zukunft: Zur Semantik geschichtlicher Zeiten* (Frankfurt: Suhrkamp, 1979).

ما مفهوم الأزمة، العام والمحدَّد الناتج من هذه المقولات العابرة للتاريخ، التي ليست لاتاريخية مثل تلك الخاصة بالفلسفة الوجودية؟ هو كما يلي تمامًا: حين يتقلص فضاء الخبرة بسبب الإنكار العام الذي يلحق أي تقليد أو تراث، ويميل أفق التوقع إلى الانحسار نحو مستقبل أشدّ غموضًا وأقلّ وضوحًا، لا تسكنه إلا اليوتوبيا أو بالأحرى «السرديات الخيالية Uchronies» دونما موقع فعال على مسار التاريخ، فإن التوتر بين أفق التوقع وفضاء الخبرة يصير تمزقًا وانقطاعًا. وهاهنا يسعدني أن أقول إن لدينا مفهومًا يحتفظ بشيء من المفهوم الوجودي «الطويل جدًا» للأزمة؛ أي بؤرته في الزمن الإنساني، ويجمع في الوقت نفسه شتات التعميم في المفاهيم «الجهوية» للأزمة التي سأعددها مرة أخيرة في الاتجاه المعاكس: أزمة الليبرالية الاقتصادية، وأزمة أسس المعرفة، وأزمة شرعية السلطة، وأزمة هوية المجتمع، وأزمة التوازن والتكامل في الجسد الاجتماعي. وإنما عددتها في الاتجاه المعاكس لأن المعيار الطبي هو في نهاية المطاف ما يعمل كمحدِّد تمييزي في بنية تاريخية تتمتع في واقع الحال بعمومية كبيرة: حيث الأزمة هي باثولوجيا عملية إضفاء الطابع الزمني على التاريخ؛ إنها تعبير عن خلل في الصلة المتوترة في العادة، ما بين أفق التوقع وفضاء الخبرة.

ثالثًا: معايير لمفهوم بشأن أزمة «حديثة»

إنّ الصعوبة الثالثة المذكورة في المقدمة هي الأشدّ استعصاءً على الحل. فإذا ما افترضنا أننا نستطيع وصف «الحقيقة الاجتماعية الكلية» لمجتمع بعيد عنا في المكان والزمان، فهل يمكننا تطبيق المعيار السابق عن الأزمة الكلية على الوقت الحاضر؟ فإذا لم يكن ثمة بعدُ تاريخٌ يختص بالحاضر، فهل يوجد علم اجتماع للحاضر؟

من الواضح أن المحك هنا هو ما نعنيه بالحداثة؛ إذ هي فكرة لا تُدرك بوصفها حقيقة كلية فحسب، بل بوصفها حقيقة حاضرة أيضًا.

هنا، يجب التعامل عمدًا مع الحقيقة الاجتماعية الكلية من وجهة نظر الأفكار القيمية التي تشكل بنية الرابطة الاجتماعية والتسلسل الهرمي لهذه القيم؛ وهذه الهرمية هي التي يمكن بواسطتها لقضية مهيمنة أن تحوز القيم المعاكسة وتبقيها في المشهد الخلفي. لكن هذه الأفكار القيمية لا يمكن القبض عليها، إلا من خلال الأيديولوجيات؛ أي تمثلات الحقيقة الاجتماعية الكلية التي تشكلت إما على يد مجموعات مهيمنة، وإما مجموعات تابعة، وإما في وعي الشخصيات البارزة التي تتمتع برؤية نادرة تجاه القضايا الراهنة. وتتبدى على الفور صعوبة تتمثل في أنّ المجتمع ليس شفافًا حيال نفسه؛ وهذا أيضًا ما يعنيه مصطلح أيديولوجيا. فالأيديولوجيا تعمل «سرًا» أو، لنقل، «دون معرفة» الأفراد في المجتمع المعني. لذلك، إذا كان المجتمع لا يتعرف إلى نفسه فلا يمكن مواجهة الصعوبة جزئيًا إلا بطريقَين؛ إما عن طريق تفسير الحاضر على أنه الحد الحالي لتطور قديم: فنقرأ الحاضر حينها بالتراجع إلى الخلف؛ وإما عن طريق تفسيره مقارنةً بذلك الخاص بالمجتمعات الأخرى؛ فنقرأ الحاضر حينها بتحفظ: كان هذا بالفعل منهج مونتسكيو في **الرسائل الفارسية** *Lettres Persanes*،

ومنهج الأنثروبولوجيا المقارنة في أيامنا. ويجمع بين المنهجين مفكر مثل لويس دومون في كتابه **مقالات في الفردانية**[43].

ومع ذلك، يجب القول إن النتائج مخيبة للآمال للغاية: فحتى في ظل الشرط المزدوج من التراجع إلى الخلف والتحفظ، يمكن أن يشك المرء في أن مفتاحًا تأويليًا واحدًا سيكون كافيًا لتفسير الحاضر. وإنّ الوضع الحالي للجدل القائم لَيؤكد ذلك. في الواقع، ثمة تفسيرات عديدة للحداثة في تنافس بينها نعددها هنا في عجالة:

1) الفردانية، بحسب لويس دومون، هي ما يميز المجتمع الحديث من المجتمع التقليدي، الذي يعتبره في آن واحد، المجتمع البعيد، كمجتمع الكاست الهندي على سبيل المثال، والمجتمع القديم؛ ذاك الذي قوضته المسيحية من الداخل. وهو يقصد بالفردانية الأيديولوجيا التي تجعل من الفرد القيمة الأسمى التي تفوق قيمة المجموعة، والطبقة، والشعب، باختصار، أسمى من الكيان الاجتماعي الكلّي. وليست الليبراليةُ الاقتصادية سوى أحد أشكال هذه الفردانية. لكن عالمنا المختص في الأنثروبولوجيا يوازن تقييمه هذا، بالإشارة إلى أن الأيديولوجيا المهيمنة تتضمن نقيضها، أي قيم المجتمع التقليدي، وذلك مثلما يتضح من هزيمة الليبرالية الاقتصادية الصريحة التي يرى كارل پولانيي[44] أنها دُفنت على يد هتلر، وكما تشهد على ذلك أيضًا التنويعات المتعددة من الاقتصاد المختلط الناتجة من أزمة عام 1929. وقد سمّى دومون هذه الأيديولوجيات المختلطة ما بعد حداثية. ثم نصل إلى النتيجة الغريبة التي مفادها أن المجتمع الحديث، الناتج من أزمة المجتمع التقليدي، صار بدوره محلاً للأزمة؛ الشيء الذي يفسر اللجوء إلى فكرة ما بعد الحداثة. نتساءل إذّاك عما إذا لم تكن الأزمة الحقيقية تكمن في تأرجح مجتمعنا ما بين المجتمع التقليدي (المتنحِّي) والمجتمع الحديث (المهيمن) والمجتمع ما بعد الحداثي (في حالته المستقبلية أو الجنينية).

2) توصلت مدرسة فرانكفورت إلى رأي مماثل زمن أدورنو وهوركهايمر. فإذا ما عرّفنا الحداثة بواسطة عصر الأنوار Aufklärung، فإن الأزمة ناتجة من وعود لم يحققها هذا العصر. فهي أزمة الحداثة نفسها بقدر ما هي أزمة تولّدت عن الحداثة: فهي تقوم أساسًا على الحقيقة التي ترى أن العقلانية الحديثة قد استنفدت إمكاناتها للتحرر حين صارت عقلانية ذرائعية. وكل ما تبقّى هو نظرية نقدية نتج منها ديالكتيك سلبيّ يجسده الرفض الكثيف للتأثيرات الضارة للعقلانية. وهنا أيضًا، يجري التساؤل عمَّا بعد الحداثة التي هي أزمة الحداثة ذاتها.

3) ثمة تقييم أكثر راديكالية للاتجاه السائد في عصرنا، نجده عند نيتشه وتوصيفه للحداثة بالعدمية. والعدمية هي فقدان القيم، و«نزع القيمة» عن القيم السامية التي هي، وبصورة أساسية، القيم المرتبطة بالمسيحية التي يفسرها بوصفها أفلاطونية خاصة بالشعب. تستند هذه الإدانة أولاً وقبل كل شيء

(43) Louis Dumont, *Essais sur l'individualisme: Une perspective anthropologique sur l'idéologie modern* (Paris: Éditions du Seuil, 1983).

(44) Ibid.

إلى نقده العقلاني للتقاليد – في كتابَي *Aurore* (**أورورا**) و*Le Gai savoir* (**العلم المرح**) على سبيل المثال – ثم نراه يرمي العقلانية ذاتها باتهام عنيف؛ فتُردُّ أبرز فروع العقلانية، كالديمقراطية والاشتراكية، وكغيرها من ميراث مسيحي، إلى كل التعبيرات الأخرى عن أخلاق «الضعفاء». ويترتب على ذلك أن نيتشه يظهر مفكرًا مناهضًا للحداثة، بحيث يضعها في السلة نفسها رفقة خصمها القديم وهو المسيحية. وهكذا تظهر النزعة الإنسانوية المعادية للدين مسكّنًا عاجزًا أمام الاقتلاع الناتج من تراجع التدين المسيحي؛ ذلك لأنها استمدت قوتها، وعن غير قصد، من عمق القيم التي حاربتْها. ووفق هذه الطريقة، ينبغي أن نفهم لِم نربط، في حركة ما بعد نيتشه، موت الإنسان بموت الإله. وما دامت النزعة الإنسانوية اللاأدرية أو الملحدة قد اعتُبرت فرعًا من الجذع المسيحي الأفلاطوني التقليدي، فلا يمكنها إلا أنْ تتلاشى إذا ما انقطعت عن جذورها. وحالما يقع الربط بين الحداثة وهذه النزعة الإنسانوية المحتضرة، فإن الأزمة «الحديثة» لن تكون إلا أزمة الحداثة نفسها. وذلك هو ما وعاه ماكس فيبر في لحظات تجليه النيتشوية: فانتصار العقلانية الذي يدافع عنه بدوره ثمنُه هو نزع القداسة عن العالم، الذي ربما تعذّر تحمُّل تبعاته. ذلك أن النتيجة الطبيعية لنزع القداسة هذه هي الكشف عن الطابع المتناقض للقيم. فيكون الإنسان المعاصر، سواء أكان ينتمي إلى الحداثة أو ما بعد الحداثة، معايشًا لتراجع الآلهة وتمزق القيم في الوقت عينه. لكن الحقيقة هي أن الإنسان لا يقوى على احتمال هذا الجرح المزدوج. وإن الأزمة لَهي هذه المعاناة ذاتها.

4) يلخص إعلان هايدغر نهايةَ الميتافيزيقا، وبطريقة لافتة، النماذجَ الثلاثة الفاشلة للحداثة التي استعرضناها من فورنا: بإحلاله الذات Sujet محلّ الذاتية Subjectum، دشّن الكوجيتو الديكارتي باعتباره الأساس الضمنيّ النسيانَ الحديثَ للوجود L'être. فتحولت النزعة الإنسانوية من فاعل في الأزمة، إلى محلّ للأزمة، ثمّ أخيرًا إلى ضحية للأزمة بفِعل التحلل الداخلي. بالنسبة إلى التقنية – وهو اسم آخر للعقل الأداتي – فهي فقط الشكل الحديث لميتافيزيقا الذات، ذلك أن التأكيد على الذات يقابله إفقار الطبيعة التي تُختزل إلى موضوع مُعاد يجب السيطرةُ عليه واستغلالُه. أما بالنسبة إلى إرادة القوة التي اعتقد نيتشه أنه يستطيع وضعها في مقابل إرادة الحقيقة، فهي لا تزال تنتمي إلى دورة ميتافيزيقا الذات، وتتويجٌ للنسيان الحديث للوجود. وهنا أيضًا، يعني فهم الحداثة إدراكها على أنها نهاية حقبة لم يعُد جزءٌ من ذواتنا ينتمي إليها. وحدَه اتحاد الفكر الشعري والشعر المفكر[45] قد يُجلي الطريق في اتجاه بعد حداثةٍ لا نلمح لا معالمها الأخلاقية ولا مكانتها السياسية، فضلًا عن تحققها الاجتماعي على مستوى المجتمع برمته.

ما يبدو لي مشتركًا بين هذه التفسيرات المختلفة للأزمة المعاصرة هو فكرة تراكب أزمتين: أزمة المجتمع التقليدي بِفعل ضغط المجتمع الحديث، وأزمة المجتمع الحديث نفسه الذي يبدو كأنه نسل مجهَض عن المجتمع التقليدي. بعد قولي هذا، فإن شكوكي الأولية بشأن إمكانية إجراء تقييم شامل للعصر الحالي تُستعاد بحجج جديدة كما يلي:

---

(45) لنقل إن الشعر يتعلق بالمتخيل وبالحواس بحيث يمكن معايشته وجدانيًا، وسنرى أن الشعري والأسطوري استُبعدا من كونهما مصدرين للحقيقة بسبب لغتهما الرمزية واستنادهما إلى المجاز وإلى الاستعارة. (المترجم)

1) يبدو أن عصرنا لا يمكنه أن يتعرّف بأيديولوجيا واحدة: فالتعريفات المتنافسة للحداثة وأكثر من ذلك، الخلافُ بين الحداثة وما بعد الحداثة هو دليل على الالتباس المميز للزمن الحاضر، وربما في كل عصر بالنسبة إلى من يعيشونه. علاوة على ذلك، وبِحكم التفاعل القائم في العلوم الإنسانية بين الراصد والمجتمع المرصود، فإن التأكيد الدوغمائي علىَ أن نزع القداسة عن العالم هو حقيقة عصرنا لا يمكن اعتباره ملاحظة «موضوعية Wertfrei». وهو في الوقت نفسه يشهد على تراجع القناعة في من يقدم التشخيص، ومن ثمّ يسهم بتشخيصه في حدوث ما يصفه. بالنتيجة، فإن أفضل ما يميز أزمة عصرنا هو من جهة أولى، ومثلما أسلفنا، غيابُ الإجماع بين التقليد والحداثة وما بعد الحداثة داخل مجتمع يعاني الانقسام؛ وهو من جهة أخرى، وبصورة أكثر جدية، التراجعُ العامُّ للقناعات والقدرة على الالتزام الذي يستتبعه هذا التراجع أو هو، بالقدر نفسه، التراجعُ العام للمقدس سواء اعتبرناه مقدسًا عموديًا (الديني بمعناه الواسع) أو مقدسًا أفقيًا (السياسي بمعناه الواسع).

2) في ما يتعلق بما إذا كانت الأزمة وأول مرة، بلا نهاية، أو نهائية، أو بلا مخرج، وذلك على خلاف أزمات الماضي التي كانت انتقالية على النحو الذي تقترحه جميع نماذجها «الجهوية» التي تطرقنا إليها – فلا أحد يستطيع الجزم بذلك بسبب فجوة الزمن والمسافة في المكان. ولن يسعنا في هذا المقام غير الرهان والتحلي بالأمل. فأما رهاني وأملي الخاص فهو أنه على الرغم من غياب الإجماع والقناعة القوية في مجتمعنا التعددي، فإن فرصةً غير مسبوقة تلوح لتجديد إرث الماضي؛ هي فرصة مزدوجة للعودة إلى الأصول وإعادة التفسير. أما في ما يتعلق بالمسيحية بصورة أكثر تحديدًا، فقد يكون موت التدين المسيحي بوصفه ظاهرة اجتماعية وثقافية مهيمِنة مناسَبة أمام مجتمع المتدينين على أقليتهم العددية، لاستغلال كثافتهم الإيمانية في استرداد ما خسروه في اتساعهم العددي. وإنما يعتمد حصول ذلك على أعضاء هذا المجتمع ذاته.

المراجع

References

Dumont, Louis. *Essais sur l'individualisme: Une perspective anthropologique sur l'idéologie modern.* Paris: Éditions du Seuil, 1983.

Dupuy, Maurice. *La situation de l'homme dans le monde*. Paris: Aubier Montaigne, 1951.

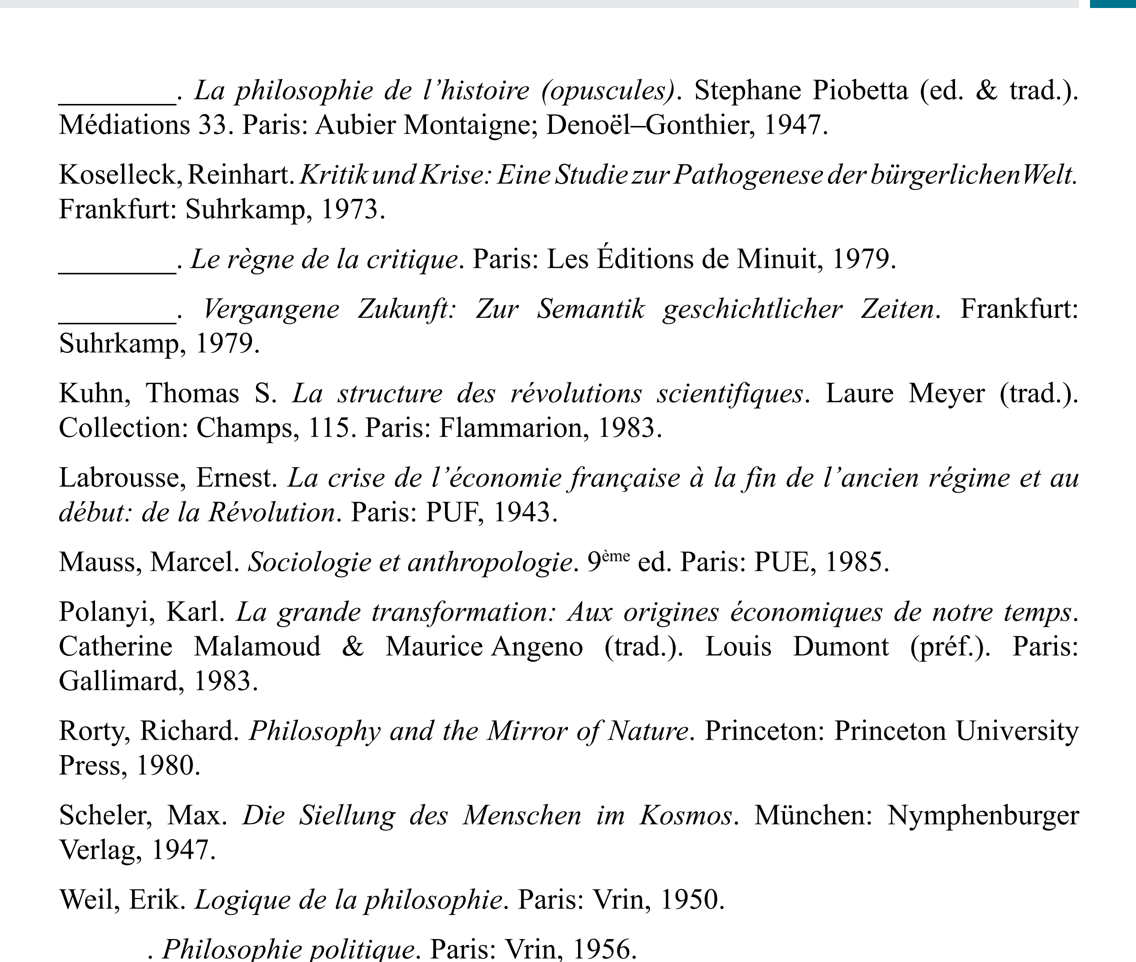
Encyclopaedia Universalis. vol. 5. Paris: Encyclopædia Britannica, 1968.

Erikson, Erik. H. *Adolescence et crise: La quête de l'identité*. Joseph Nass & Claude Louis–Combet (trad.). Champs essais, 60. Paris: Flammarion, 1972.

Hegel, Georg Wilhelm Friedrich. *Principes de la philosophie du droit*. André Kaan (trad.). Jean Hyppolite (préf.). Paris: Gallimard, 1973.

Husserl, Edmund. *La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*. Gérard Granel (trad. & préf.). Paris: Gallimard, 1976.

Kant, Emmanuel. *Idée d'une histoire universelle au point de vue cosmopolitique* (1784).



________. *La philosophie de l'histoire (opuscules)*. Stephane Piobetta (ed. & trad.). Médiations 33. Paris: Aubier Montaigne; Denoël–Gonthier, 1947.

Koselleck, Reinhart. *Kritik und Krise: Eine Studie zur Pathogenese der bürgerlichen Welt.* Frankfurt: Suhrkamp, 1973.

________. *Le règne de la critique*. Paris: Les Éditions de Minuit, 1979.

________. *Vergangene Zukunft: Zur Semantik geschichtlicher Zeiten*. Frankfurt: Suhrkamp, 1979.

Kuhn, Thomas S. *La structure des révolutions scientifiques*. Laure Meyer (trad.). Collection: Champs, 115. Paris: Flammarion, 1983.

Labrousse, Ernest. *La crise de l'économie française à la fin de l'ancien régime et au début: de la Révolution*. Paris: PUF, 1943.

Mauss, Marcel. *Sociologie et anthropologie*. 9ème ed. Paris: PUE, 1985.

Polanyi, Karl. *La grande transformation: Aux origines économiques de notre temps*. Catherine Malamoud & Maurice Angeno (trad.). Louis Dumont (préf.). Paris: Gallimard, 1983.

Rorty, Richard. *Philosophy and the Mirror of Nature*. Princeton: Princeton University Press, 1980.

Scheler, Max. *Die Siellung des Menschen im Kosmos*. München: Nymphenburger Verlag, 1947.

Weil, Erik. *Logique de la philosophie*. Paris: Vrin, 1950.

______. *Philosophie politique*. Paris: Vrin, 1956.



مراجعات الكتب

Book Reviews



من دون عنوان، أكريليك على قماش، 40×70 سم (2019).
Untitled, acrylic on canvas, 40x70 cm (2019).



عبد الكريم عنيات | Abdelkrim Anayat*

فلنُغير السبيل

دروس فيروس كورونا

Changing Paths
Lessons from the Coronavirus

عنوان الكتاب:	فلنُغير السبيل: دروس فيروس كورونا.
عنوان الكتاب في لغته:	*Changeons de voie: Les leçons du coronavirus*.
المؤلفان:	إدغار موران وصباح أبو السلام.
الناشر:	دنويل Denoël.
مكان النشر	باريس.
سنة النشر:	2020.
عدد الصفحات:	96 صفحة.

* أستاذ محاضر في قسم الفلسفة بجامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2، الجزائر.
Associate Professor at Department of Philosophy in Mohamed Lamine Dabbaghine University, Setif 2, Algeria.

مقدمة

ليس من شيم إدغار موران إلغاء التحليلات الفلسفية والعلمية والسوسيولوجية بخصوص المسائل المطروحة للبحث، بقدر ما كان دائم التنبيه إلى خطورة التحليل التخصصي الفاصل والمتخندق؛ فالطبيعة المعقدة للواقع تفرض على المفكر النظر إلى المسائل من المنظور الأكثر شمولية، من خلال استثمار فضيلة الفكر العابر للتخصصات. وبهذه الطريقة التركيبية، يمكن فهم جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، من خلال الكشف عن أسبابها البعيدة المرتبطة بالنموذج الغربي الكبير، الذي تأسس في القرن السابع عشر، أي في فجر الحداثة ذاتها.

وبالفعل، قدّم معظم الفلاسفة وعلماء الاجتماع تفسيراتهم لهذه الجائحة التي ألمّت بكل العالم، وأثّرت في المجريات اليومية لكل البشر من دون استثناء. فقد رأى جورجيو أغامبين Giorgio Agamben أنّ هناك خلفيات سياسية وراء انتشار الوباء، تتمثل في تثبيت سلطة الدولة في التحكم. في حين اعتقد سلافوي جيجك Slavoj Žižek أنّ الدول ذاتها قد ارتبكت في التعامل مع الوضع الصحي والاقتصادي والاجتماعي بعد انتشار الفيروس؛ ما أضعف فرضية الاستغلال السلطوي. وابتعد آلان باديو Alain Badiou عن التهويل، بقراءته للمشهد قراءةً موسعة؛ فالتاريخ البشري عرف عشرات الأوبئة الفتاكة، وهذا ما انتهت إليه مراجعتنا لكتاب موران. أما المفكرة جوديث بتلر Judith Butler، فركزت على التأثيرات الاجتماعية والمادية السلبية في الطبقات الهشة. واستخلص الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas درسًا يؤكد ضعف الإنسان أمام الكون؛ ما يتطلب منه مراجعة يقينياته وطموحاته التي كانت، وما زالت، تستهدف السيطرة على الطبيعة[1].

في هذا السياق الفكري، يأتي كتاب إدغار موران Edgar Morin (1921-) وزوجته صباح أبو السلام Sabah Abouessalam (1959-)، **فلنُغير السبيل: دروس فيروس كورونا**، من أجل التغطية التركيبية لهذه الظاهرة الصحية التي توسّعت لتؤثر في كل المجالات الأخرى. وقد جاء كتابهما في ديباجة تستعرض تاريخ التقلبات الصحية والأزمات الاقتصادية والفكرية، بما في ذلك ما أثر في مسار حياة موران الشخصية. ثم تلتها مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. خُصص الفصل الأول لعرض خمسة عشر درسًا مستخلصًا من جائحة فيروس كورونا. ويتناول الفصل الثاني تحديات ما بعد الجائحة. أما الفصل الثالث، فيقترح كيفية ما يدعو إليه بـ «تغيير السبيل».

يمكن الحديث اليوم، بعد مرور أكثر من عام على انتشار فيروس كورونا، عن أدبيات غزيرة وتحليلات مختلفة، لأسباب ظهور الفيروس ونتائجه المرتقبة على المدى القصير والطويل، وأثره المؤكد في الاقتصاد العالمي، وفي الحصيلة في المجالات الأخرى التي لا تنفصل بأيّ حال عنه. وما يهمّنا هو ما كتبه الفلاسفة وعلماء الاجتماع عن هذه الوضعية العالمية التي أصبحت تجسّد عولمة الأزمات والشرور. ورغم وجود العديد من المساهمات حول أزمة فيروس كورونا، فإنّ كتاب موران وأبو السلام يتميز من باقي التحليلات، في كونه ينظر إلى هذه الظاهرة من

(1) للتوسع يُنظر: عمر المغربي، «ماذا قال الفلاسفة حول جائحة فيروس كورونا؟»، تبين، مج 9، العدد 35 (شتاء 2021)، ص 163-174.

منظور كلّي ومركّب، وهو استجابة طبيعية لمجمل نظرية المعرفة كما صاغها في موسوعته **المنهج**، وهي في تقديرنا أكثر نظرية معرفة ثراءً وثوريةً بعد نظرية المعرفة الديكارتية في القرن السابع عشر. إنّ نظرية المعرفة عند موران ليست مستقلة عن علم الاجتماع والبيولوجيا والعلوم الأخرى التي ظهرت بعد الثورات العلمية المتتالية، وفي هذه النقطة يتفوق على أيّ نظرية معرفة فلسفية خالصة.

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن سؤالين رئيسين: ماذا يمكن أن تقدّمه جائحة كورونا للوعي الإيكولوجي الإنساني؟ وهل يُمكن أن يستمرّ الإنسان في النهج الحداثي نفسه الذي تراكم طوال الأربعة قرون الماضية؟ إنّ طرحًا بهذه الأهمية يضع السبيل الحداثي، الذي هو طريق الغرب، بالخصوص موضع مراجعة جذرية. ولو أنّنا نعتقد مثل موران أنّ التغيّر الجذري متعذّر، بل هو، في الحقيقة، ضرب من اليوتوبيا المثالية التي لا يمكنها أن تغيّر شيئًا نحو الأفضل.

أولًا: تاريخية الأزمة الصحية وأسئلتها

إن توسيع مجال المنظور التاريخي يجعلنا نغيّر العديد من الأحكام المتعلّقة بما طرأ على الوجود البشري؛ فالكثير من التعليقات التي تفتقر إلى العمق تَعتبر انتشار فيروس كورونا حادثةً غير مسبوقة، بل هناك من أوّلها تأويلاً مروّعًا يدلّ على قرب نهاية الإنسان! في حين أنّ التاريخ، القديم والحديث، يخبرنا بتكرار الأوبئة بصورة دورية، وبناء عليه، فما جائحة فيروس كورونا إلا حلقة في سلسلة تعودُ إلى الماضي، وستتواصل مستقبلاً. وبالنسبة إلى مُعمّرٍ مثل موران، فقد استذكر وضعيته العائلية التي كانت ضحية الإنفلونزا الإسبانية في عشرينيات القرن الماضي (ص 5). وها هو اليوم، بعد قرابة قرن يقعُ ضحيةً لفيروس كورونا المنحدر من سلالة هذه الإنفلونزا.

يرى موران أنّ وضعيّتنا الحالية تُعدُ امتدادًا ظاهرًا للمشكلة الإيكولوجية التي ظهرت بصورة واضحة بعد تقرير «ميادوز» Meadows، الذي حرّره عام 1972، وأثبت فيه التراجع الرهيب والمتسارع للوسط الطبيعي، سواءً في وضعية الأنهار أو المحيطات أو كوكب الأرض برمّته. وقد أصبح الوعي الإيكولوجي حقيقةً لا يمكن التفكير والتشريع بمعزل عنها، كونه «من أجل الحفاظ على الوسط الطبيعي والبشري، علينا تحويل تفكيرنا وأخلاقنا وحضارتنا»(ص 12). لكن، بعد مرور قرابة نصف قرن على نشره، ورغم المؤتمرات الدولية والاستغاثات الإيكولوجية التي أطلقها المتخصّصون، لم يتغيّر الشيء الكثير. ولعلّ التقنية لا تسعفنا هنا؛ لأنّها وليدة منظور متخصص (المنظور الحداثي والديني معًا)، الذي يقوم على الفصل بين الثقافة والطبيعة، والتمييز النوعي بين الإنسان والحيوان. ولن يَعتَبرَ الإنسان إلا حينما يتيقّن أنّه أمام الهاوية L'abime التي تضع وجوده على المحكّ (ص 13).

كشفت أزمة جائحة كورونا عن تعقّد الوجود الإنساني، وارتباط مجالات نشاطاته. فبعدما كنّا نعتقد أنّ المنظور العلمي والحداثي هو الذي يُخرج الإنسان من بربريته القديمة، اتّضح أنّه أوصلنا إلى بربرية جديدة. وفي هذا السياق، يأتي فيروس كورونا نتيجة لأزمة عميقة في النموذج الغربي الذي تمّت عولمته بكلّ الطرائق ليشمل العالم غير الغربي (ص 15). وبعدما كاد العلم أن يتحكّم في كلّ شيء، حتّى في الأمراض

المستقبلية المحتملة، كشفَ فيروس كورونا أنّ الذكاء البشري أقلّ قدرةً ممّا يُعتقد، وأنّ هامش اللامتوقع ما زال موجودًا، بل أكثر سطوةً ممّا كنّا نحسبه، كما أنه كلّما ازدادت سيطرة الإنسان على الكون، ازداد مجال اللامتوقع اتساعًا، فنحن من يخلق حيّزًا غير قابل للتنبؤ؛ «يتكشّف لنا اليوم أنّ المستقبل غير قابل للتنبؤ، نتمنّى أن يكون هذا عاملًا لتجديد السياسة وحماية الكوكب، ومن أجل أنسنة المجتمع: إنّه وقت تغيير السبيل»، ولئن كان لدرس «كورونا» عنوان فهو هذا على وجه التحديد: حتمية تغير السبيل من أجل الحفاظ على كينونة الحياة على الأرض (ص 16).

ثانيًا: الدروس الخمسة عشر لفيروس كورونا

استخلص موران خمسة عشر درسًا من انتشار فيروس كورونا في العالم، هي على نحوٍ مختصر:

1. درس عن وجودنا أو كيفية العيش: إنّ تجربة الحجر المنزلي التي فُرضت على الجميع تقريبًا، جعلتنا ننفتح على وضعية الذين يعانون العوز والفقر، ولم يكن لهم الحظّ في الرفاهية التي قدّمتها لنا الرأسمالية الليبرالية (ص 17).

2. درس عن الوضع البشري: قبل عام 1970، أي قبل تقرير «ميادوز» حول تراجع الدائرة الحيوية الأرضية، كان الإنسان يعتقد أنّه سيطر على الطبيعة سيطرة كلية. وفي ثمانينيات القرن العشرين حينما ظهر الإيدز، كان العلم يعتقد أنّه قضى على الفيروسات والبكتيريا. وقبل عام 2008، كان الاقتصاديون الرسميون يعتقدون أنّه تم تجاوز كلّ الأزمات الممكنة. وقبل عام 2020، اعتبرت الإنسانية أنّ الجوائح الكبرى مجرّد ذكرى من العصور الوسطى (ص 18–19). لقد جرى نسيان هشاشتنا، لكن الأسطورة الغربية للإنسان المُقدّر له أن يكون «مالكًا ومسيطرًا على الطبيعة» قد تحطّمت أمام فيروس غير مرئي. ومثلما نحن فاعلون، إلا أننا، في الوقت ذاته، مفعولٌ بنا من جانب موجودات ميكروسكوبية. فالإنسان، بحسب بليز باسكال Blaise Pascal، «كبيرٌ عندما يُقارن بالعدم، وعدمٌ عندما يقارن باللانهائي» (ص 36).

3. درس عن عدم يقين حياتنا: تعيش الإنسانية اللايقين بخصوص كيفية مواجهة المرض، وكيفية القضاء عليه، والعجز في الكشف عن تبعاته السياسية والاقتصادية والوطنية والعالمية؛ فاللايقين يرافق المغامرة الكبرى للإنسانية (ص 19).

4. درس عن علاقتنا بالموت: بعد أكثر من نصف قرن من نموّ معدل الحياة في الغرب، أصبح الموت غير ظاهر وكأنّه هامش للحياة. إلا أنّ فيروس كورونا كشفَ فجأةً مركزيته، وأصبحت ترسانة الطب عاجزة أمامه. إضافةً إلى أنّ الحجر المنزلي منع الجنائز، فأصبحنا نرحل بلا مراسيم (ص 20).

5. درس عن حضارتنا: في حين جعلت حضارتنا الإنسان يوجّه نظره إلى الخارج (المواصلات، والعمل، ومختلف الإغراءات، والمطاعم، والأسفار ... إلخ)، أعادنا الحجر المنزلي فجأةً إلى صفحاتنا الداخلية، لندرك مدى التسمّم الاستهلاكي الذي فرضته علينا حضارتنا (ص 21).

6. درس ينبّه لمسألة التضامن: قلّصت حضارتنا التضامن بسبب النزعة الفردية والأنانية المفرطة، حيث حُصِر هذا التضامن في أنفسنا، إلى أن جاء اليوم الذي نعيش فيه وضعًا مشتركًا. والحقّ أنّ هذه الأزمة الصحية أعادت التضامن البشري إلى السطح (ص 22).

7. درس عن التفاوت الاجتماعي في الحجر المنزلي: أبرزت الجائحة اللامساواة الاجتماعية، حيث لا يمتلكُ الجميع إقامات ثانوية في الأرياف للهروب من المدينة. كما ظهرت الوضعيات المحزنة لبعض الذين يعيشون وحدهم مثل الأرامل والمسنّات المهملات والشيوخ والشباب الفقراء. كما أظهرت الجائحة معاناة من واجهوا المرض من ممرضين وأطباء محدودي الدخل (ص 23).

8. درس عن تنوّع الوضعيات وإدارة الجائحة في العالم: ثمّة بلدان لم تتضرّر من الجائحة بسبب انخفاض كثافة السكان، لكنّ هناك بلدانًا عاشت تراجيديا حقيقية مثل البرازيل وبيرو والأرجنتين والولايات المتحدة الأميركية، في حين أنّ هناك بلدانًا سيّرت الأزمة الصحية على أحسن وجه، مثل المغرب (ص 24–25).

9. درس عن طبيعة الأزمة: تتمظهر الأزمة وما تنطوي عليه من اضطراب ولايقين في إفلاس انتظام نسق ما، الذي، لكي يتحكّم في استقراره، يقمع الانحرافات (مظهر سلبي). وفي أثناء الأزمة، تنتشر هذه الانحرافات أكثر، كونها لم تعد مقموعةً (مظهر إيجابي)، وتتحول إلى نزعات نشطة، إذا تطوّرت تهدد سير النظام. وفي الأنظمة الحيوية، خاصة الاجتماعية، تؤدّي التطورات المنتصرة للانحرافات إلى التحول التقدّمي أو التراجعي، وربّما إلى ثورة (ص 25). لذا، فالأزمة تحرّك أكثر من احتمال، والأكيد أنّ نوع الاستجابة هو الذي يحدّد قيمة الأزمة تحديدًا، فهناك أزمات مثمرة، لكن الاستجابة الفاشلة لها تؤدّي إلى كارثة حقيقية.

10. درس عن العلم والطب: تمّ استدعاء العلم من جانب السلطة من أجل مواجهة الجائحة (ص 25). ونحن نعلم أنّ هناك تواطؤًا خفيًّا بين السلطة العلمية والسلطة الاقتصادية الممثلة في شركات الصناعات الصيدلانية، وهذا ما كشفه كبير الأطباء ديدييه راوول Didier Raoult (ص 26).

11. أزمة الذكاء: وتتمثل في الثقب الأسود الكبير في تفكيرنا الذي يجعلنا لا نرى تعقّد الواقع، وهو الثقب الذي يكشف ضعف طريقة معرفتنا التي نشأنا عليها من فصل المسائل الموصولة واختزال المتعدّد (ص 28). مع العلم أنّ الاختزال الحسابي عاجز عن رصد المشاعر. ثمّ إنّ إيكولوجيا الفعل تجعل التنبؤ بنتائج أيّ تصميم متعذّرًا بسبب تغيّر الظروف.

12. درس عن أوجه القصور في الفكر والفعل السياسي: من المؤسف أنّ الفكر الفاصل والاختزالي هو الذي يسيطر في السياسة والاقتصاد، وهذا التقصير هو الذي يؤدّي إلى الأخطاء في التشخيص والتنبؤ (ص 30).

13. درس عن العالمية والتبعية الوطنية: كشفت الأزمة الصحية تبعية فرنسا للصين، وتبعية الكثير من بلدان العالم الثالث، وحتّى المتقدمة، لاقتصادات الدول الكبرى (ص 33). ولعلّ توزيع اللقاح اليوم، بعد سنة من تفشي الفيروس، يُثبت مرّةً أخرى سيطرة مختبرات معدودة على أصابع اليد الواحدة على مجمل البحث الصيدلاني العالمي.

14. درس عن أزمة أوروبا: تشظّت الوحدة الأوروبية بسبب أزمة جائحة كورونا إلى وحدات قومية، باستثناء وجود بعض المساعدات الخجولة التي تدخل في إطار الدبلوماسية أكثر ممّا تدخل في مجال الإنسانية الحقّة. وقد ظهرت فرنسا وألمانيا أقل تضامنًا مع إيطاليا وإسبانيا (ص 34).

15. درس عن أزمة الكوكب: خلقت الجائحة الصحية أزمةً عاصفة للعولمة، فكشفت أنّها ليست ناقلة للخيرات فحسب، بل للأمراض والجرائم أيضًا، وأكثر من ذلك هي تحت رحمة مؤسّسات الضغط وسطوة رأس المال الذي لا يعترف بقيمة الإنسان بقدر ما يعترف بإنسان القيمة المادية. فقد «أكّد العلماء أنّ وضعية الكوكب المتدهورة قد ساهمت في ظهور فيروس إيبولا وفيروس كوفيد-19»، إضافةً إلى وجود علاقة بين ظهور فيروس كورونا ونظامنا الغذائي والزراعة الصناعية المكثّفة (ص 35).

ثالثًا: تحدّيات ما بعد كورونا

أظهرت معظم التحليلات، سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، الآثار الكارثية لفيروس كورونا في الإنسانية من دون استثناء، ما عدا بعض القطاعات التي استثمرت في الوباء، ووسّعت مجال نشاطها. لكن ألا يمكن استنتاج بعض الجوانب الإيجابية من هذه الكارثة الصحية؟ إنّ نظرية الأخلاق المركّبة، التي خصّص لها موران الجزء السادس من موسوعة **المنهج**، تؤكّد أنّ هناك خيرًا في الشرّ، وشرًّا في الخير، وهذا ما يجعلنا قادرين على استخلاص بعض معالم المواقف الإيجابية من الجائحة العالمية. فإذا كان الحجر المنزلي حبسًا حقيقيًا، فإنّه تحرّر داخلي أيضًا؛ إذ انفصل أغلب الناس عن التفكير في أعمالهم، ومهماتهم الاقتصادية والوظيفية، لصالح التفكير في أنفسهم وعائلاتهم أكثر من أيّ وقت مضى (ص 38).

إضافة إلى ذلك، يُمكن التأكّد أيضًا من تعافي الطبيعة بعد الحجر المنزلي، إذ إنّ توقّف الطائرات والسيارات، ونسبة كبيرة من المصانع، قد قلّص التلوث إلى درجات قياسية لم يعرفها الكوكب منذ عشريّات طويلة؛ ما سمح بنموّ الطبيعة في جوّ صحي وهادئ كما كان يحدث قبل الثورة الصناعية (ص 43).

ورغم كلّ هذه الجوانب المشرقة التي كشفتها الجائحة الصحية، يبقى التخوّف من ديمومة التضامن واستمرار تعافي الطبيعة مطروحًا (ص 39)؛ فقد كان العالم ينتظر اللقاح من أجل استعادة صحّته ونشاطه، ما يعني انهيار كلّ ما حقّقته الجائحة من علامات إيجابية وصحية، وستعود الطبيعة منكوبةً كما كانت، وسيهتم الأفراد بمصالحهم، ويوجّهون كلّ طاقاتهم إلى وظائفهم، ما يعني أيضًا أنّ أزمة النيوليبرالية مؤقّتة، ولا يمكن الحديث عن انهيار نظام الرأسمالية. ثم إنّ تراجع الاقتصاد، والذي أدّى إلى تعافي الطبيعة، قد ولّد أزمات اجتماعية أخرى لا يمكن للتضامن أن يتجاوزها مثل الفقر والديون وسوء التغذية. إنّ جائحة كورونا تحمل الخير والشرّ معًا؛ ما يثبت فرضية المانوية Manichaeism التي تؤكد تعالق الخير والشرّ في نسقٍ نديّ واحد (ص 45-46).

رابعًا: تغيير السبيل

لا يمكن بأيّ حال الحديث عن ثورة في ظلّ أزمة كورونا، ويُفضّل موران استعمال كلمة التحوّل Métamorphose لأنّها أكثر دلالة على الحركة الطبيعية؛ فالتغير الجذري الذي يمثّل مفهوم الثورة يؤدي إلى نتائج معاكسة لمنطلقاتها. لذا، فإنّ عبارة «الطريق الجديد» أفضل من عبارة «الثورة السوفياتية، والثورة الماوية (في الصين) التي أنتجت وضعيات مضادة لأهدافها، ولأنّ إخفاقها النهائي أدّى إلى ظهور ما أرادت التخلص منه

وهما الرأسمالية والدين» (ص 49). وعليه، فإنّ التفكير في تغيير السبيل أفضل بكثير من الحديث عن ثورة أو انقلاب في المنظور. ويدعو هذا السبيل الجديد إلى مجموعة سياسات:

1. السياسة الوطنية: التخطيط لسياسة المزاوجة بين العولمة وإزالة العولمة، وبين النموّ والتراجع (في ما يخصّ اقتصاد العبث والخداع)، وبين التطوير والتطويق (مرجعية الجماعة والتضامن، وإحاطة الأنا بالنحن والتعايش وفهم الغير والصداقة)؛ إذ يوجد في فرنسا مثلًا 7.4 ملايين مهاجر منذ عام 1900، أي ما يعادل 12 في المئة من مجموع السكان، ما يفرض ضرورة التخلص من نزعة كره الأجانب التي أصبحت متفاقمة في أوروبا، خاصةً كره الأجانب الفقراء. أضف إلى ذلك إزالة البيروقراطية، بوصفها مرضًا إداريًّا وإفراطًا في المركزية. فهي التي تؤدّي إلى اللامسؤولية والإهمال خارج التخصّص. وعدم المسؤولية هذا، هو ما يشجّع على فساد الموظفين حتى في قلب الدولة نفسها. وللقضاء على البيروقراطية، يجب تكوين موظفين بقدرات أكثر شمولية، أو الجمع بين التخصّص والكفاءات المتعدّدة Polycompetance. كما يجب إصلاح الفكر الإصلاحي من خلال أنسنته. وإجمالًا، يجب ترك فكرة الثورة العنيفة التي تتأسّس على عقيدة اللوحة البيضاء، واستبدال مجتمع سيّئ بمجتمع جيّد. وعليه، يقترح موران حياة تطورية مخطّطة، عن طريق سياسة جديدة تغتني بالثقافة الإنسانية للماضي، وحياد مبادئ الجمهورية (الحرية والعدالة والأخوّة) (ص 51، 55، 60)، ويجب الاعتراف بأن الجائحة قد كشفت عن هشاشة الوضعية الاقتصادية والقانونية لفئة المهاجرين من دون وثائق، كما كشفت عن أزمة الملجأ وغيرها. ولا يمكن التحدث عن الأخلاق في ظلّ غياب التضامن والمسؤولية تجاه المحلّي والأجنبي في الوقت نفسه.

2. سياسة الحضارة: تعمل ضدّ الطابع السلبي النامي لحضارتنا الغربية من خلال تطوير طابعها الإيجابي. وتقوم سياسة الحضارة على فعل الوقاية من «التسمّم» الحضاري الناجم عن طريقة الحياة القائمة على زيادة الاستهلاك، ما يؤدّي إلى تقهقر النظام البيئي، ومن ثمّة حياة الإنسان. لذا، فالمخرج يكون بالاعتدال في الاستهلاك الطاقوي عامّةً (ص 65، 68، 70). وترتبط سياسة الحضارة بسياسة البيئة، التي ترتبط بدورها بسياسة الحضارة المرتبطة بسياسة الإنسانية التي ترتبط بسياسة الاقتصاد. والحقّ أنّ هذه الجوانب متعالقة، ولا يمكن الحديث عن تغير جانب من دون المساس بالجوانب الأخرى.

3. سياسة الإنسانية: أي زيادة وعي الانتماء إلى المجموعة البشرية من خلال التعليم؛ ما يساهم في التخفيف من الخوف من الأجانب والعنصرية.

4. أنسنة متجددة: إذ يجب على الحضارة الغربية الحفاظ على المكتسبات الإيجابية التي حققتها، وهي: الثقافة الإنسانية، والفكر النقدي، والنقد الذاتي، والمبادئ الديمقراطية، وحقوق الإنسان والنساء. وهنا يسجّل موران ملاحظة أنّ العبارة الفرنسية "Les droits de l’homme" تتحيّز للرجل، وهذا ما يعكس مخيالًا مضادًا للنساء، ما يعني أنّه يجب على المجتمعات الغربية التخلّي عن عجرفتها وتكبّرها. وتدخل المجتمعات التقليدية في علاقة بالطبيعة، وتندمج مع الكون، بحيث تحافظ على كل شيء من خلال الإنتاج، وهي في هذا أفضل من المجتمع الغربي. ويجب إصلاح العولمة التي خلقت تبعية معمّمة، لكن

بلا تضامن، وهذا ما تبيّن من خلال هذه الجائحة الأخيرة (ص 71).

5. سياسة للأرض: إنّ تحسُّن وضعية الأرض والمحيطات والحيوانات، خلال فترة الحجر المنزلي، لا يضمن ديمومة الوضعية مع استعادة العافية العالمية. وقد بلغت عملية تسليع الطبيعة إلى أن ظهرت صناعة الماء، التي حوّلت الخير المجّاني إلى سلعة مدفوعة. ومن أجل تحقيق إنسانية متجدّدة وجب الاعتراف بالتعقّد البشري، والاعتراف بحيوانيّتنا ورابطنا القوي مع الطبيعة، والتعرّف إلى خصوصيتنا الروحية، والثقافية، والاعتراف بهشاشتنا وعدم استقرارنا وهذياننا وميولنا العدوانية والاستعبادية، وهذا ما يثبت وضوح فكرنا وعماه في الوقت نفسه. باختصار، الإنسان عاقل ومجنون، نثري وأسطوري، اقتصادي ومبذّر، إنّه إنسان مركّب Homo Complexus. وهنا نجد مرّة أخرى موران يستشهد بمفكّره المفضّل باسكال الذي يجيب عن سؤال ما الإنسان؟ بقوله: «دودة الأرض هذه، هو كلّ شيء ولا شيء» (ص 76–79).

خاتمة

بعد هذا العرض المختصر والمركّز لآخر كتاب ألّفه إدغار موران بمساعدة صباح أبو السلام، يمكن أن نسجل أهميته الكبيرة؛ إذ واصل استخلاص آخر نتائج نظريته في المعرفة المركبة. كما أنه كشف عن مآزق استمرار النموذج الحداثي القائم على الفصل بين القيمة والمعرفة. لكن، يُمكننا أيضًا ملاحظة عيبين أساسيين فيه. أولًا، صدر الكتاب بعد أربعة أشهر من انتشار فيروس كورونا في أيار/ مايو 2020، مقدمًا نظرته إلى أصول الفيروس وأبعاده ومصير العالم بعده. والحقّ أنّ هذه الاستجابة السريعة من موران تجاه هذه الجائحة هي نقطة ضعف الكتاب. لقد استعجل في استخلاص النتائج من جائحة كورونا، فبعد أربعة أشهر فحسب من انتشارها في فرنسا والعالم إجمالًا، أخذ يحدّد أسبابها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة. في حين أنّ النظرة الفلسفية الأكثر عمقًا لا يمكنها تحديد الخصائص البعيدة أو العلل القصوى لأيّ ظاهرة، إلّا بعد ترك المسافة الزمنية اللازمة؛ لذا نفهم جيّدًا تحديد هيغل للفلسفة بوصفها بومة منيرفا التي تظهر في المساء، أي لا تظهر إلا بعد أن يكتمل الواقع تأسّسه الخاص في النهار. ورغم أنّ موران على وعي بهذا المفهوم المهمّ، فإنّه انساق وراء التحديدات السوسيولوجية التي تقترب من الظواهر وصفًا وتشخيصًا قبل أن تنضج بالصورة الكاملة.

أمّا الإشكالية الثانية فترتبط باستعمال مفردة «الأزمة»، فرغم أنّ موران من المفكّرين الأوائل الذين خصّصوا دراسة مستقلّة لمفهومية الأزمة أو علم الأزمة Crisologie، فإنّه في الكثير من المناسبات يستعمل كلمة الأزمة من دون حذر أو تدقيق، فلا نجده يقدّم الإحصاءات اللازمة لإثباتها؛ إذ ليس كل تغيّر أزمة. وإن اعتبار جائحة كورونا أزمة صحية أو اقتصادية أو سياسية إشكاليٌّ؛ على اعتبار أنّ الجوائح الصحية متكررة في التاريخ، وستتكرّر أيضًا في المستقبل، ما يجعلها مكوّنًا طبيعيًا لحياة الإنسان والأرض إجمالًا، وليس وضعًا مأزومًا أو كارثيًّا.



الحبيب الدرويش | Habib Derouich*

تونس في مواجهة جائحة كوفيد-19

Tunisia Put to the Covid-19 Test

عنوان الكتاب:	**تونس في مواجهة جائحة كوفيد-19.**
عنوان الكتاب في لغته:	*La Tunisie à l'épreuve du Covid-19*.
المؤلف:	حمادي الرديسي (تحرير).
الناشر:	المرصد التونسي للانتقال الديمقراطي؛ مؤسسة فريدريش إيبرت.
مكان النشر:	تونس.
سنة النشر:	2020.
عدد الصفحات:	247 صفحة.

* أستاذ مشارك في علم الاجتماع، جامعة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية، وجامعة صفاقس في تونس سابقًا.

Associate Professor in Sociology, King Faisal University, Saudi Arabia, and Formerly at University of Sfax, Tunisia.

مقدمة

يعدّ كتاب **تونس في مواجهة جائحة كوفيد-19** من التجارب البحثية القليلة في العالم العربي التي سجلت تفاعلاً فوريًا للمختصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية مع التحديات التي طرحتها جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) على مستويات محلية وكونية، ولو أن إنجازه كان مبكرًا نسبيًا قياسًا على التطورات التي حصلت بشأن الجائحة في ما بعد. ومن الترتيب الداخلي للكتاب، كما صممه الباحثون المشاركون فيه، نفهم إلى أي حد كانت الجائحة تُمثّل ظاهرةً شمولية بلغة مارسيل موس[1]. فخلال التفاعل المعرفي مع هذه التحديات، وجد الباحثون أنفسهم أمام طيفٍ واسع من الظواهر والأسئلة، بعضها جَرّهم، على نحو ربما لم يكن متوقعًا، إلى قضايا تشتغل بها نظريات الانتقال الديمقراطي. وهكذا، يمكننا القول إن المشاركين في البحث قد وجدوا أنه بقدر ما كانت خطورة فيروس كوفيد-19 تتمثل في انحشاره في طيات الخلايا واستحواذه على مقدراتها لإعادة إنتاج نفسه، فإن وجوده جائحةً يتبعُ المبدأ نفسه؛ إذ إن الجائحة تتسلل إلى كل مفاصل الحياة الاجتماعية، وتستولي على مواردها وقدراتها، لتحشدها في اتجاه واحد هو التحرر منها.

بناء عليه، نجد في الكتاب مجالات بحث واسعة، انتقل خلالها الباحثون من القضايا الفلسفية إلى العولمة النيوليبرالية، ثمّ إلى المستويات النفسية لتأثيرات كوفيد-19، مرورًا بقضايا الترتيبات القانونية والدستورية التي تطلّبتها المواجهة، واللامساواة الاجتماعية، والهامشية، وقضايا الجندر التي تتشابك في مخرجاتها الثقافة الذكورية والفقر والاستغلال والمقاومة. وهكذا، اشتمل الكتاب على خمسة محاور اهتمت بتاريخ الجوائح في تونس، والاقتصاد السياسي للجائحة، ومظاهر اللامساواة فيها، وارتباك المعايير القانونية في إدارتها، والأزمة السياسية التونسية التي حلّت خلالها وزادت من وطأتها.

أعطى حمادي الرديسي إشارة الانطلاق للمشروع عبر مقدمة استدعى فيها إدغار موران Edgar Morin ويورغن هابرماس Jürgen Habermas وجورجيو أغامبين Giorgio Agamben وآلان باديو Alain Badiou وغيرهم، موضحًا المشكلات القِيمية والتنظيمية التي تطرحها الجائحة في تونس. وبقدر ما كان الرديسي قريبًا من هابرماس وموران اللذَين تكلّما عن ضرورة اعترافنا بجهلنا بالفيروس خلال مواجهتنا له، وضرورة الانتباه إلى أن اللامتوقع هو نفسه متوقع، وأنه جزء فاعل في المتوقع، فقد أخذ مسافة من أغامبين وباديو اللذَين اقتربا من حافة نظرية المؤامرة في التعامل مع كوفيد-19، حينما ركّزا على ما ترتّب عليه من سلبٍ للحريات الفردية.

بالنسبة إلى التجربة التونسية التي لم تختلف كثيرًا عن التجارب العالمية، بيّن الرديسي أنّ إجراءات الحَجْر كشفت عن نقاط الضعف الهيكلية في منظومة الدولة والقيادة بصفة عامة، وعن أنانية البعض، وغطرسة البعض الآخر، وعن معاناة الفئات الاجتماعية الهشّة. وهذا يعني أن الجائحة قد كشفت عن أزمة أخلاقية، وأزمة معايير، خاصّةً في ظلّ الارتباك الظاهر على مستوى العمل القيادي الذي يحرّكه، بحسب الكاتب، طاقم

(1) ينظر: مارسيل موس، **بحث في الهبة: شكل التبادل وعلته في المجتمعات القديمة**، ترجمة المولدي الأحمر (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2011).

متوسّط الكفاءة، يعيش صراعات ومناكفات مستمرّة، لا أُفُق لديه سوى معالجة اليومي. ومع ذلك، دعا الرديسي إلى تجنب النظر إلى الأزمة من جانبها السيّئ فقط، إذْ قد تؤدّي بالتونسيين، عند الضرورة، إلى إظهار سلوك الانضباط والتضامن، ليصير سلوكًا حداثيًا راسخًا يقوم على احترام الذات والآخر في كنفِ النظام والحرية.

أولًا: تاريخ الأوبئة تونسيًا والاقتصاد السياسي للجائحة

في الجانب التاريخي من الموضوع، رصد المؤرخ عبد الكريم العلاقي تاريخ الأوبئة على امتداد تاريخ تونس الطويل. فمِن العصور الوسطى إلى العصر الحديث، عرفت تونس الطاعون والكوليرا، ما أدّى خلال العصر الوسيط إلى إخلاء البلاد من السكّان وتدمير الحرف والزراعة. ويستحضر العلاقي في هذا الإطار شهادات القدامى من المؤرخين مثل ابن خلدون وتقي الدين المقريزي اللذَين شرحا بإسهابٍ كيف عصف الطاعون بأعداد مهولة من السكان، لم تسلم منها الأرياف والواحات حتى، وكيف أن الأوبئة تأتي من طرق التجارة البحرية وتنتشر في طرق التجارة الصحراوية. ثم يستحضر العلاقي تاريخ هذه الجوائح خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وأواخر القرن الثامن عشر.

إذا كانت جائحة كوفيد-19 اليوم قد عصفت حتى الآن بأرواح 8 آلاف تونسي من جملة 11 مليون ساكن، فإن جوائح القرون السابقة كانت تعصف أحيانًا بأرواح نحو 40 ألف في الجهة الواحدة من السكان الذين ربما لم يكن عددهم يصل إلى 200 ألف نسمة. وقد كان من نتائج هذه الأوبئة في القرن التاسع عشر أنها ساهمت في إضعاف البلاد، وجعلتها هدفًا سهلًا للقوى الاستعمارية. وفي القرن العشرين، أدى تطوّر العلم إلى تغيّر الوضع، خاصةً مع تأسيس معهد باستور في تونس عام 1893، وفوز مديره الدكتور شارل نيكول بجائزة نوبل في عام 1928 عن عمله في مجال علم الأوبئة. أمّا بعد الاستقلال في عام 1956، فقد شرعت الدولة الناشئة في تعزيز البنية التحتية الصحية، وتزويد البلاد بكفاءات طبية ماهرة، خاصّةً بعد تأسيس كلية الطب عام 1964.

كما أن هناك اقتصادًا سياسيًا بالمفهوم الماركسي، تولّد عن انتشار كوفيد-19، ما سماه الباحثون الاقتصاد السياسي للجائحة. فقد درست الباحثة في علم النفس سيرين بن سعيد صفار ما سمته الإدارة التونسية للجائحة وخفايا الانتشاء الوطني، لتبيّن أنّ رد الفعل الطبي الوقائي التونسي الأوّلي كان ممتازًا، مقارنةً بما كان يحدث مع جيران تونس على الضفة الشمالية من المتوسط، وتحديدًا إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، ويرجع ذلك إلى الاستراتيجية التي اعتمدتها تونس في مواجهة الجائحة. ففي حين اعتمد البعض نظرية الحماية الجماعية أو «حماية القطيع» بهاجس حماية الاقتصاد أيضًا، أو التعويل على عقلانية المواطنين الأفراد الذين سيتصرفون وفق النصائح التي تُعطى لهم، ومنها التباعد الجسدي، اختارت تونس الوقاية السريعة عن طريق إغلاق منافذ البلاد وتتبّع بؤر العدوى وتوزيع المساعدات على الفقراء وفرض الحجر الصحي، مضحيةً إلى حدٍ ما بالاقتصاد.

وقد حققت هذه الاستراتيجية نتائج باهرة، حيث وصلت حد تسجيل صفر حالة، في الوقت الذي كان فيه المصابون في الضفة الشمالية يُعدّون بالملايين. بطبيعة الحال، كان هناك جدل حول صدقية المعطيات التي وفرتها وزارة الصحة، لكن

النتائج المقارنة كانت واضحة في اللجنة الوطنية بالوزارة التي أوكلت إليها مهمة التصدي للوباء، كما أن بنية الموارد البشرية الصحية التونسية كانت جاهزة على مستوى المهارات في التشخيص وأخذ القرارات على الأقل، رغم هشاشة البنية التحتية للقطاع. وترى الباحثة، أن النقطة السوداء في هذا النجاح كانت الإدارة السياسية للأزمة، إذ لم تقع حماية الطاقم الطبي وشبه الطبي خلال المواجهة، كما غابت الحكومة في كثير من الأحيان في تحديد المسار الطبي الملزم لحالات كوفيد-19، بل تركت أحيانًا بعض المستشفيات لحالة النقص في التجهيزات ولصدف سريان العدوى.

في المقابل، ركزت أستاذة الاقتصاد عيسن مقني على نتائج استراتيجية إغلاق الحدود والحجر الصحي وتوزيع الإعانات على اقتصاد البلاد. وقد بدأت الباحثة بالملاحظة التالية: لقد ضربت الجائحة الاقتصاد التونسي وهو في حالة هشاشة كبيرة. والنتيجة الأولى المباشرة كانت تراجع نسبة نمو الاقتصاد الوطني، وتضرر قطاعات اقتصادية أساسية فيه مثل قطاع النسيج والصناعات الميكانيكية والسياحة وغيرها. وعلى نحو شبه ميكانيكي تعطل التشغيل واستقرت البطالة أو زادت، وخاصةً في أوساط الشباب الذين عانى نحو 27.8 في المئة منهم، بينما انخفضت ميزانية الدولة المخصصة للأعمال التنموية وبدأت ماكينة التضخم المالي في النشاط.

بطريقة ربما لم تكن متوقعة، نتج من الجائحة تحسُّن في الميزان التجاري، لكن ذلك لم يكن بسبب تحسن النشاط الاقتصادي الذي تقهقرت صادراته في النسيج والجلود بنسبة 33 في المئة، وفي الصناعات الميكانيكية بنسبة 25 في المئة، بل بسبب الانخفاض الذي حصل في واردات البلاد خلال الجائحة. كل هذه الصعوبات سيترتب عليها في المستقبل تقهقر مطرد للاقتصاد التونسي إذا لم تؤخذ بعض الإجراءات، منها، بحسب الكاتبة، تخفيض الضرائب وتحرير المؤسسات الخاصة من تحمّل تكلفة الحماية الاجتماعية للعمال والموظفين، والاتجاه نحو الاقتصاد الأخضر البيئوي.

ثانيًا: اللامساواة الاجتماعية والصحة النفسية

في المحور الثالث للكتاب، أبرز الباحث الأخصائي في علم السكان حافظ شقير، في دراسة بعنوان «كوفيد-19: اللايقين ومعضلات الفئات غير الميسورة»، ما الذي تعنيه الجائحة في المجتمعات الحديثة التي تنتشر فيها، في الوقت ذاته، الفردانية والتفاوت الاجتماعي. وقد تركّز بحثه على حالة اللايقين التي وجدت الفئات الاجتماعية الهشّة نفسها فيها على كل المستويات: لماذا يُفرض الحجر الصحي، بينما هناك دول أخرى لم تتبع هذا الإجراء؟ عند الخضوع لتعليمات الحكومة، كيف يمكن توفير وسائل العيش؟ وغير ذلك من الأسئلة. وفي سياق هذه الفكرة، بيّن شقير كيف أنّ الأزمة التي ولّدتها جائحة الفيروس، ولا سيما فترة الحجر التي عقبتها، تسبّبت في أضرار اقتصادية واجتماعية وصحية ونفسية مسّت الفئات الهشّة على نحوٍ خاص، أي الأقلّ قدرة على تحمّل الأزمات (الفقراء، وكبار السن، ومستعملو النقل العمومي، وربات البيوت، والشباب، وساكنو المنازل الضيقة في الأحياء المكتظّة ... إلخ)، هذه الفئات التي لا تملك سوى القليل من الخيارات في مواجهة الأزمات، وهو ما خلق لديها حالات من عدم اليقين حول الجائحة وتبِعاتها.

كما بيّن الباحث كيف أنّ أيّ قرار اتخذ في اتجاه تخفيف الحجر كان يُعدُّ مقامرةً تتضمّن خطر فقدان الأرواح. وفي النهاية انتهى الباحث إلى أنّ جائحة كورونا تجعلنا نشكّك في جدوى المنوال الاقتصادي والاجتماعي السائد بتونس والمتّسم بانعدام المساواة، داعيًا إلى ضرورة مراجعة هذا المنوال من خلال الاعتناء أكثر بأوضاع الفئات الاجتماعية الضعيفة.

في المحور الاجتماعي نفسه، واصلت أستاذة الطبّ النفسي، أحلام بالحاج، الاهتمام بالجوانب الاجتماعية في مواجهة وباء كوفيد-19، فقد ورد عنوان بحثها في شكل تساؤل حول تأثيرات هذه الجائحة في الصحة النفسية للناس: «أيّ تأثير لكوفيد-19 على الصحة النفسية للتونسيين؟»، ومثل جميع الباحثين في مناطق أخرى من العالم، بيّنت الباحثة أنّ الدراسات أظهرت شدّة الاضطرابات النفسية التي أصابت فئات تونسية كبيرة أثناء الجائحة، مصدرها الأساسي حالة اللايقين وإدارة الشكّ. كما فرض الحجرُ المترتِّبُ على الجائحة إعادةَ تنظيم المجتمع من خلال عزل الأفراد والتباعد الجسدي وإدارة جديدة للزمان والمكان. وتُعَدّ هذه الإجراءاتُ عواملَ مُرهِقةً على الصعيد النفسي، وكان على الناس التعامل معها بوصفها واقعًا مفروضًا. فبمجرّد التغلّب على التوتّر الذي تسبّبه الجائحة، يظهر قلق الموت والاكتئاب، وتتفاقم العزلة الاجتماعية والخوف من العدوى، وفقدان الأحبة والوظيفة، وعدم القدرة على تلبية احتياجات الأسرة ... إلخ؛ شعور طبيعي ومتوقَّع تمامًا في مثل هذه الحالة. وختمَت الباحثة مقالها بالتأكيد على ضرورة وضع سياسات لدعم الأشخاص المصابين بأمراض نفسية ورعايتهم من أجل حماية كرامتهم وحقوقهم الإنسانية.

لقد شرّحت بالحاج حالة الفئات الهشة خلال الجائحة، وقد قدرت أستاذة القانون حفيظة شقير أنه يمكن عدّ النساء من جملة هذه الفئات الهشة. ففي دراستها بعنوان «تأثير كوفيد-19 على حقوق المرأة»، بيّنت أنّ الجائحة عطّلت مجرى الحياة في البلدان كافّة. وفي تونس، أدّى الوباء إلى تمديد حالة الطوارئ وتنفيذ حظر التجوال، وقد كان لهذه الإجراءات تداعيات خطيرة على حياة المواطنين وأمنهم وعملهم وحتى على ممارستهم حقوقهم، خاصةً النساء. وبما أن وجود النساء في القطاع الصحي يفوق وجود الرجال فيه، فقد صرن الأشد تضرّرًا من الأزمة، فهنّ اللّواتي يواجِهْنَ أعلى المخاطر، كما أن معظمهنّ أمهات، ولهنّ أُسَرٌ تحتاج إلى رعاية، ولا يزال عبء المسؤوليات العائلية بفعل الثقافة الذكورية، يقع على عاتقهنّ.

لذلك تعيش النساء حالة من الإجهاد الشديد. وهنا لا تُطرَح لدى الكثير من النساء المشكلة الصحية فحسب، بل مسألة المساواة بين الجنسين أيضًا. هذه التأكيدات صدرت عن عدّة هيئات دولية تشير تقاريرها إلى أنّ حالات البطالة وإغلاق المدارس فترات طويلة، يُمكن أن يؤدّيَ إلى زيادة عدد حالات العنف المنزلي وحالات حمل المراهقات وزواج الأطفال خلال فترة الإغلاق. وفي ذلك، تستمر هيمنة النوع الاجتماعي في الانتشار، بل تزداد سوءًا، إذ إنّها تؤدي إلى حَجْر مزدوج: حجْرٍ بسبب الوباء، وحجرٍ بسبب النظام الأبوي السائد. وتختتم حفيظة شقّير دراستها بالتأكيد على أنّ الجائحة لم تتسبّب في أضرار جسيمة لاقتصاد البلاد وصحّة الإنسان فحسب، بل تظلّ الحقيقة أنّ تداعياتها على النساء تتضاعف بسبب هشاشة وضع الكثير منهنّ، خاصّة بسبب حالة الحجر المزدوج الذي أدّى أحيانًا إلى زيادة الهيمنة الذكورية الأبوية.

ولهذا، فإن يقظة المجتمع المدني ضرورية للدفاع عن المرأة وحماية حقوقها.

ثالثًا: النظام القانوني وحالة الاستثناء

هل تعدّى تأثير الجائحة إلى آليات سنّ القوانين واشتغالها؟ تصدى لهذا السؤال أستاذُ القانون بالجامعة التونسية محمد شفيق صرصار ببحث بعنوان: «تقلبات النظام المعياري التونسي في زمن كوفيد-19: المراسيم في القانون التونسي». فبعد إعطاء لمحة تاريخية عن تاريخ استخدام المراسيم في القانون التونسي، بيّن الباحث كيف أنّ الوباء لم يشكّل اختبارًا للنظام الصحي فحسب، بل أمام النظام الحكومي ونظام المعايير في معالجة الطوارئ أيضًا. وقد التقى الباحث في هذه النقطة مع الهادي بن مراد الذي كتب في الموضوع نفسه، مركّزًا على مبدأ الحالة الاستثنائية الذي خلقته الجائحة في شتى مجالات إدارة الشأن العام وكذلك الحياة الخاصة، جالبًا الانتباه إلى ثقل القرارات التي يمكن اتخاذها في الحالات الاستثنائية، من حيث تعريفها واستخدامها للفصول القانونية المناسبة لذلك في الدستور.

وهنا أشار بن مراد إلى أن خطرًا غير محسوب كان يمكن أن يتسبب فيه استخدام الفصل 80 من الدستور التونسي الذي يجمد العمل بالمجلس التشريعي في الظروف الاستثنائية في سياق تميّز بحالة من التوتر والصراع السياسي، مما شوّشَ إمكانيةً الاتفاق على تأويل واضح للأحكام في هذا المجال، خاصةً عندما تغيب الرؤية الواضحة بشأن تقديم تعريف واضح لما ينبغي أن يُفهم من عبارة الحالة الاستثنائية في غياب محكمة دستورية تفتي بدستورية القرارات.

من الناحية القانونية والمعيارية، لم تُربك الجائحة عمل المؤسسات وتأويل القوانين فحسب، بل وضعت قوانين حقوق الإنسان والمبادئ التي أسست عليها موضع سؤال. بهذا الخصوص، عالجت فاطمة اللافي في دراستها «وضع حقوق الإنسان على محكّ جائحة كوفيد-19: هل هو حجر صحي؟»، موضوع حقوق الإنسان في سياق تتعارض فيه شروط المصلحة الصحية والاقتصادية والاجتماعية العامة مع احترام حقوق الإنسان. وتقرِّ الباحثة بأنّ جميع الدول، حتّى تلك الأكثر ديمقراطية واجهت معادلةً صعبةَ الحلّ؛ فالقرار السياسي يكافِح لإيجاد هذا «التوازن الصحيح» بين طرفَي المعادلة. وهي ترى أنّ تونس، المرحِّبة بانتقالها الديمقراطي الناشئ وبدستورها الجديد، وجدت نفسها على محكّ هذه الأزمة، إذ هناك تخوّف أوّل من التأثير المباشر لهذه الأزمة الصحية في احترام حقوق الإنسان، وتخوّف ثان يتعلّق بآلية الطوارئ المطبّقة وضمانات الحقوق الفرديّة. وختمت الباحثة دراستها بالإقرار بأنّ الإجراءات المتّبعة في تونس قد كشفت انتصارَ مبدأ «أولويّة الحياة»، لكنّها تساءلت عن تبِعات الانتصار لهذا المبدأ، مستحضرةً الإجابة البارعة لرينيه كاسان René Cassin أحد صائغي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والحائز جائزة نوبل للسلام، عندما قال: «الحق في الحياة، نعم، ولكن ليس فقط أي حياة!».

رابعًا: الديني والسياسي في ظل الأزمة

هل للمقدس مكانٌ في معضلة الجائحة؟ تجيب أسماء نويرة بالاشتراك مع حاتم شقرون عن هذا السؤال بنعم، في دراسة عنوانها «الديني في زمن الأزمة: كوفيد-19 وإدارة الإسلام في تونس». يشرحُ الباحثان كيف أنّ إدارة أزمة جائحة كورونا

تطلّبت من السلطات التونسية تدخلاً سريعًا للحدّ من انتشار الفيروس وتجنّب السيناريو الأسوأ، لذلك أغلقت المقاهي والمطاعم والنوادي الليلية جزئيًا، وأُلغيت المؤتمرات والفعاليات الثقافية والعلمية، وعُلّقت الصلاة الجماعية بالتشاور مع بعض الأئمة وبالتنسيق مع وزارة الشؤون الدينية، وهذا لم يحدث في تونس فقط، بل في المملكة العربية السعودية أيضًا، حيث يؤدي المسلمون فريضة الحج. وهنا يوضح الباحثان كيف أنّ إغلاق المساجد كان من الإجراءات الحسّاسة التي أثارت امتعاض البعض وتفهّم البعض الآخر في الوقت ذاته. ثم تحوّلت هذه المواقف المتباينة إلى جدل دار في منصّات التواصل الاجتماعي بين مَنْ هلّل للقرار ومن ندّدَ به بحجة أنه شكّل حجرًا على «الحريات الدينيّة» من قِبَل الدولة العلمانية.

في بدايات احتدام أزمة الجائحة، أضفى البعض مسحةً دينية على ضحايا الجائحة من القطاع الصحي (أو كما أُشيرَ إليه الجيش الأبيض)، وذلك بمنح كلّ مَنْ تُوفِّي منهم مرتبة الشهيد باعتباره في حالة حرب ضدّ الوباء، ثم امتدّ هذا المنحى ليشمل كلّ مَنْ يموت بسبب الوباء استنادًا إلى أحد الأحاديث النبوية في كتاب سنن أبي داوود. لقد أصبح الأمر خطيرًا عندما نشرت إحدى الفتيات على الفيسبوك مدونةً فيها نص عن الفيروس يُحاكي الأسلوب القرآني، هنا أصبح السؤال: هل توجد حرية تعبير عندما يتعلق الأمر بالدين؟ وهذا سؤال طرحه ممثّل النيابة العمومية أثناء التحقيق مع المُدوِّنة الشابّة. وختم الباحثان المقال بالتأكيد على أنّ تصريحات كبار الشخصيات الدينية في الديانات التوحيدية الثلاث أظهرت تشابهًا من حيث القبول بالإجراءات الاحترازية المعتمَدة للتصدّي للجائحة، في حين أنّ النقاشات الدائرة على الشبكات الاجتماعية في مختلف البلدان، أظهرت مواقف متعدّدة ومتباينة حول هذا الموضوع، وهو ما لوحظ في تونس.

وأخيرًا، ناقشَ الباحثان صحبي خلفاوي ومهدي العش تأثير الجائحة في الأزمة السياسية التي تعانيها البلاد أصلاً، وقد بيّن الباحثان كلٌ على حدة، أنّ السياق الذي حلّت خلاله الجائحة بالبلاد كان من الناحية السياسية غير مناسب على الإطلاق، إذ إن الجائحة والحكومة الجديدة بدآ نشاطهما في الوقت نفسه، ولم يكن بعد للحكومة الجديدة الوقت الكافي لتحديد خطة عمل وموارد، وليس هذا فحسب، بل إن الأزمة السياسية التي جاءت فيها الحكومة، نتيجة توافق هش بين أطرافها، لم تكن تحظى بالدعم الكامل في البرلمان الذي اتهمها أطراف فيه بالفساد، في الوقت الذي كانت تواجه الجائحة.

ومن ناحية أخرى، كانت التركيبة السياسية والصراع بين رئيس الجمهورية والأحزاب المسيطرة في البرلمان قد فتحا الباب واسعًا أمام التصرف الشعبوي، على نحوٍ ألقى بظلاله على معالجة الجائحة. والدرس هو أن الجائحة ليست قضية صحية فقط، بل سياسية كذلك، إذ إن مواجهتها تفترضُ حشد الطاقات مجتمعةً، والطاقة السياسية بالأساس.

خاتمة

من نافل القول إن الكتاب، الذي قدّمنا أغلب فصوله وأفكاره، مفيدٌ في فهم الكيفية التي تعامل بها بلد عربي في مرحلة انتقالية مع جائحة هزّت أركان أقوى دول واقتصادات في العالم. وقد أظهر الكتاب أن جائحة كوفيد-19 ظاهرة شمولية. ومع إدراكنا أنّ الدراسة أُنجزت مُبكرًا، وربما على

عجلٍ بسبب الإرباك العام الذي خلقته الجائحة، فإنه من المهم أيضًا الإشارة إلى أن الباحثين قد أهملوا جملةً من القضايا، لا ندري بسبب عدم الاختصاص أم لأسبابٍ إبستيمولوجية تتعلقُ بالمخيلة النظرية المعتمدة.

من هذا المنظور، يمكن تحديد قضية أساسية لم يجرِ الوقوف عندها، رغم أنّ جميع فصول الكتابَ معنية بها، وهذه القضية لا تتعلق بكيف واجهت الدولة ومؤسساتها الجائحة، بل بكيف واجه التونسيون الجائحة، أفرادًا وعائلات وطبقات وفئات وأنماط عيش، وكذلك «الجماعة العلمية» في الطب السريري والمخبري وفي العلوم الاجتماعية والإنسانية، من دون أن ننسى منظمات المجتمع المدني؟

هذا يعني أنّ البحث كان يمكن أن يهتم بالمقاومة كما جرت وتجري في الحياة اليومية. فماذا يفعل الفقير عندما يُفرض عليه الحجر الصحي، وليس معه ما يسدّ به رمق أطفاله؟ وماذا تفعل المرأة التي بلا «سند» عندما تفقد عملها؟ لماذا استهتر الشبان العاطلون عن العمل بالحجر الصحي وقانون منع التجوال؟ وماذا كان ردّ فعل المسؤولين والباحثين في مخابر وزارة الصحة عندما أدركوا أنهم إزاء عصر مقاومة الفيروسات الطبيعية أو الاصطناعية، هل أسسوا وحدات بحث جديدة؟ وهل خصصوا موارد لطلبة الكليات كي يتخصصوا في هذا المجال؟ وهل هزّت الجائحة القناعات بالفلسفة وعلم الاجتماع؟ وماذا فعلت الجمعيات الأهلية؟ وهل غيّرت من مفهومها للصالح العام؟ وما الذي أحدثته الجائحة في العقل الجماعي التونسي؟

في البحوث التي قُدمت لا نجد وصفًا تاريخيًا للكيفية التي تصدى بها الناس للجوائح؛ الهروب والانعزال في الصحراء؟ الاستنجاد بالأولياء الصالحين؟ ماذا كان دور الأطباء في الماضي وما أساليبهم؟ مثلاً في نهاية القرن الثامن عشر في طرابلس، نجد أنّ القنصل البريطاني كان عندما يستقبل في بيته أحدًا من مسؤولي الدولة القرمانلية يضع بينه وبين الضيف كومةً من الحطب المشتعل كي لا تمر إليه الجراثيم المحتملة.

ثم إن الدراسات الواردة في الكتاب لم تتساءل لا فلسفيًا ولا اقتصاديًا عن القيم والمعايير التي جعلت الدولة التونسية الفقيرة تختار التضحية بالاقتصاد، بينما اختارت الحكومة الأميركية في عهد الرئيس دونالد ترامب التضحية بالمهمشين. وما الذي يعنيه هذا على المستوى الثقافي؟ أما الأبحاث الاقتصادية فقد اقتصرت على شرح آثار الجائحة في البنية الاقتصادية، مقترحةً حلولاً نيوليبرالية ليس فيها أدنى اهتمام بالبعد الأخلاقي للقضية. والأهم من كل ذلك، أنها لم تهتم بالكيفية التي تصرف بها المستثمرون في التعامل مع الجائحة، ونحن نعرف في تونس أنهم ركزوا كل جهدهم في الحصول على تعويضات من الدولة مثلهم مثل الفقراء المهمشين.

ختامًا، يُعدُّ كتاب **تونس في مواجهة جائحة كوفيد-19** من الأعمال القليلة في العالم العربي، التي اهتمّت على نحو مبكر نسبيًا بجائحة كوفيد-19، وهو بذلك قد فتحَ طريقًا عريضًا أمام البحوث المستقبلية.



مجلة **عمران** للعلوم الاجتماعية دورية محكّمة تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. تحمل الرقم الدولي المعياري (ISSN: 2305–2473). وقد صدر عددها الأوّل في صيف 2012. وهي دورية فصلية محكّمة تصدر مرة واحدة كلّ ثلاثة أشهر، ولها هيئة تحرير علمية أكاديمية مختصة وهيئة استشارية دولية فاعلة تشرف على عملها، وتستند إلى ميثاق أخلاقي لقواعد النشر وللعلاقة بينها وبين الباحثين. كما تستند إلى لائحة داخلية تنظّم عمل التحكيم، وإلى لائحة معتمدة بالقراء (المحكّمين) في الاختصاصات كافة.

يستوحي اسم المجلة مفهوم «العمران» الخلدونيّ بمدّخراته الأصيلة وإشعاعاته المتجددة. وقد ولدت فكرتها من أسئلة وإشكاليات المأزق المنهجي والوظيفي الذي تواجهه العلوم الاجتماعية والإنسانية العربيّة في مرحلة التغيّرات الاجتماعية الكبرى الجارية في الوطن العربيّ. وتندرج المجلة في سلسلة دوريات العلوم الاجتماعية والإنسانية في الوطن العربيّ والعالم، وتعمل على بلورة هوية أساسية لها بوصفها مجلّةً/مشروعًا، مستعيدةً تقاليد المجلات والدوريات التي أنتجت اتجاهات وحركات ومدارس علمية وفكرية. وهي تطمح في ذلك إلى أن تمثّل نقلةً نوعية في مجالات هذه العلوم، تقوم على مقاربة اختصاصات العلوم الاجتماعية ومناهجها بوصفها وحدة متكاملة في ما هو قريب من «المنهج التكاملي» العابر الاختصاصات في إطار الغاية العليا للعلوم الاجتماعية وهي «الحرية» بصفتها جوهر التفكير الذي هو جوهر الإنسان.

تعتمد مجلة **عمران** في انتقاء محتويات أعدادها المواصفات الشكلية والموضوعية للمجلات الدولية المحكّمة، وفقًا لما يلي:

- **أولًا:** أن يكون البحث أصيلًا معدًّا خصيصًا للمجلة، وألّا يكون قد نشر جزئيًا أو كليًا أو نشر ما يشبهه في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، أو قدّم في أحد المؤتمرات العلمية من غير المؤتمرات التي يعقدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أو إلى أيّ جهة أخرى.
- **ثانيًا:** أن يرفق البحث بالسيرة العلمية (.C.V) للباحث باللغتين العربية والإنكليزية.
- **ثالثًا:** يجب أن يشتمل البحث على العناصر التالية:

1. عنوان البحث باللغتين العربية والإنكليزية، وتعريف موجز بالباحث والمؤسسة العلمية التي ينتمي إليها.

2. الملخّص التنفيذي باللغتين العربية والإنكليزية في نحو 100 كلمة، والكلمات المفتاحية (Keywords) بعد الملخّص، ويقدّم الملخص بجمل قصيرة ودقيقة وواضحة إشكالية البحث الرئيسة، والطرائق المستخدمة في بحثها، والنتائج التي توصّل إليها البحث.
3. تحديد مشكلة البحث، وأهداف الدراسة، وأهميتها، والمراجعة النقدية لما سبق وكُتب عن الموضوع، بما في ذلك أحدث ما صدر في مجال البحث، وتحديد مواصفات فرضية البحث أو أطروحته، ووضع التصوّر المفاهيمي وتحديد مؤشّراته الرئيسة، ووصف منهجية البحث، والتحليل والنتائج، والاستنتاجات. على أن يكون البحث مذيّلًا بقائمة المصادر والمراجع التي أحال إليها الباحث، أو التي يشير إليها في المتن. وتذكر في القائمة بيانات البحوث بلغتها الأصلية (الأجنبية) في حال العودة إلى عدة مصادر بعدة لغات.
4. أن يتقيد البحث بمواصفات التوثيق وفقًا لنظام الإحالات المرجعية الذي يعتمده المركز (ملحق 1: أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع).
5. أن يقع البحث في مجال أهداف المجلة واهتماماتها البحثية بالمعنى الواسع للعلوم الاجتماعية شاملًا الدراسات الاقتصادية والسكانية والبيئية، وما شاكل ذلك.
6. تهتم المجلة بنشر مراجعات نقدية للكتب المهمة التي صدرت حديثًا في مجالات اختصاصها بأيّ لغة من اللغات، شرط ألّا يكون قد مضى على صدورها أكثر من ثلاث سنوات، وألّا يتجاوز عدد كلماتها 2800 – 3000 كلمة. ويجب أن يقع هذا الكتاب في مجال اختصاص الباحث أو في مجال اهتماماته البحثية الأساسية، وتخضع المراجعات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
7. تفرد المجلة بابًا خاصًا للمناقشات لفكرة أو نظرية أو قضية مثارة في مجال العلوم الاجتماعية لا يتجاوز عدد كلمات المناقشة 2800 – 3000 كلمة، وتخضع المناقشات إلى ما تخضع له البحوث من قواعد التحكيم.
8. يراوح عدد كلمات البحث، بما في ذلك المراجع في الإحالات المرجعية والهوامش الإيضاحية، وقائمة المراجع وكلمات الجداول في حال وجودها، والملحقات في حال وجودها، بين 6000 – 8000 كلمة، وللمجلة أن تنشر، بحسب تقديراتها وبصورة استثنائية، بعض البحوث والدراسات التي تتجاوز هذا العدد من الكلمات، ويجب تسليم البحث منضّدًا على برنامج وورد (Word)، على أن يكون النص العربي بنوع حرف واحد وليس أكثر من نوع، وأن يكون النص الإنكليزي بحرف (Times New Roman) فقط، أي أن يكون النص العربي بحرف واحد مختلف تمامًا عن نوع حرف النص الإنكليزي الموحد.
9. في حال وجود صور أو مخططات أو أشكال أو معادلات أو رسوم بيانية أو جداول، ينبغي إرسالها بالطريقة التي استغلت بها في الأصل بحسب برنامجَي اكسل(Excel) أو وورد (Word)، كما يجب إرفاقها بنوعية جيدة (High Resolution) كصور أصلية في ملف مستقل أيضًا.

- **رابعًا:** يخضع كلّ بحث إلى تحكيم سري تام، يقوم به قارئان (محكّمان) من القراء المختصين اختصاصًا دقيقًا في موضوع البحث، ومن ذوي الخبرة العلمية بما أنجز في مجاله، ومن المعتمدين

في قائمة القرّاء في المركز. وفي حال تباين تقارير القراء، يحال البحث إلى قارئ مرجّح ثالث. وتلتزم المجلة موافاة الباحث بقرارها الأخير؛ النشر/ النشر بعد إجراء تعديلات محددة/ الاعتذار عن عدم النشر، وذلك في غضون شهرين من استلام البحث.

- **خامسًا:** تلتزم المجلة ميثاقًا أخلاقيًا يشتمل على احترام الخصوصية والسرية والموضوعية والأمانة العلمية وعدم إفصاح المحرّرين والمراجعين وأعضاء هيئة التحرير عن أيّ معلوماتٍ بخصوص البحث المحال إليهم إلى أيّ شخصٍ آخر غير المؤلّف والقراء وفريق التحرير (ملحق 2).

1. يخضع ترتيب نشر البحوث إلى مقتضيات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
2. لا تدفع المجلة مكافآتٍ ماليّة عن المواد - من البحوث والدراسات والمقالات - التي تنشرها؛ مثلما هو متَّبَعٌ في الدوريات العلمية في العالم. ولا تتقاضى المجلة أيّ رسوم على النشر فيها.

(الملحق 1)

أسلوب كتابة الهوامش وعرض المراجع

1- الكتب

اسم المؤلّف، **عنوان الكتاب**، اسم المترجم أو المحرّر، الطبعة (مكان النشر: الناشر، تاريخ النّشر)، رقم الصّفحة.

- نبيل علي، **الثقافة العربية وعصر المعلومات**، سلسلة عالم المعرفة 265 (الكويت: المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، 2001)، ص 227.

- كيت ناش، **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**، ترجمة حيدر حاج إسماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013)، ص 116.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق غير الموالي مباشرةً على النّحو التالي مثلًا: ناش، ص 117.

أما إن وُجد أكثر من مرجع واحد للمؤلّف نفسه، ففي هذه الحالة يجري استخدام العنوان مختصرًا: ناش، **السوسيولوجيا**، ص 117.

ويُستشهد بالكتاب في الهامش اللاحق الموالي مباشرةً على النّحو التالي: المرجع نفسه، ص 118.

أمّا في قائمة المراجع فيرد الكتاب على النّحو التالي:

- ناش، كيت. **السوسيولوجيا السياسية المعاصرة: العولمة والسياسة والسلطة**. ترجمة حيدر حاج إسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2013.

وبالنسبة إلى الكتاب الذي اشترك في تأليفه أكثر من ثلاثة مؤلفين، فيُكتب اسم المؤلف الرئيس أو المحرر أو المشرف على تجميع المادة مع عبارة «وآخرون». مثال:

- السيد ياسين وآخرون، **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**، ط 4 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 109.

ويُستشهد به في الهامش اللاحق كما يلي: ياسين وآخرون، ص 109.

أمّا في قائمة المراجع فيكون كالتالي:

- ياسين، السّيد وآخرون. **تحليل مضمون الفكر القوميّ العربيّ**. ط 4. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991.

2- الدوريات

اسم المؤلّف، «عنوان الدّراسة أو المقالة»، **اسم المجلّة**، المجلّد و/أو رقم العدد (سنة النّشر)، رقم الصّفحة. مثال:

- محمد حسن، «الأمن القوميّ العربيّ»، **إستراتيجيات**، المجلد 15، العدد 1 (2009)، ص 129.

أمّا في قائمة المراجع، فنكتب:

- حسن، محمد. «الأمن القوميّ العربي». **إستراتيجيات**. المجلد 15. العدد 1 (2009).

3- مقالات الجرائد

تكتب بالترتيب التالي (تُذكر في الهوامش فحسب، ومن دون قائمة المراجع). مثال:

- إيان بلاك، «الأسد يحثّ الولايات المتحدة لإعادة فتح الطّرق الدبلوماسية مع دمشق»، **الغارديان**، 2009/2/17.

4- المنشورات الإلكترونية

عند الاقتباس من مواد منشورة في مواقع إلكترونية، يتعين أن تذكر البيانات جميعها ووفق الترتيب والعبارات التالية نفسها: اسم الكاتب إن وجد، «عنوان المقال أو التقرير»، **اسم السلسلة** (إن وُجد)، اسم الموقع الإلكتروني، تاريخ النشر (إن وُجد)، شوهد في 2016/8/9، في: ......http://www

ويتعين ذكر الرابط كاملًا، أو يكتب مختصرًا بالاعتماد على مُختصِر الروابط (Bitly) أو (Google Shortner). مثل:

- «ارتفاع عجز الموازنة المصرية إلى 4.5%»، الجزيرة نت، 2012/12/24، شوهد في 2012/12/25، في: http://bit.ly/2bAw2OB

- «معارك كسر حصار حلب وتداعياتها الميدانية والسياسية»، **تقدير موقف**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016/8/10، شوهد في 2016/8/18، في: http://bit.ly/2b3FLeD

(الملحق 2)

أخلاقيات النشر في مجلة عمران

1. تعتمد مجلة عمران قواعد السرية والموضوعية في عملية التحكيم، بالنسبة إلى الباحث والقراء (المحكّمين) على حدّ سواء، وتُحيل كل بحث قابل للتحكيم على قارئين معتمديْن لديها من ذوي الخبرة والاختصاص الدقيق بموضوع البحث، لتقييمه وفق نقاط محددة. وفي حال تعارض التقييم بين القراء، تُحيل المجلة البحث على قارئ مرجّح آخر.

2. تعتمد مجلة عمران قُراء موثوقِين ومجرّبِين ومن ذوي الخبرة بالجديد في اختصاصهم.
3. تعتمد مجلة عمران تنظيمًا داخليًا دقيقًا واضح الواجبات والمسؤوليات في عمل جهاز التحرير ومراتبه الوظيفية.
4. لا يجوز للمحرّرين والقراء، باستثناء المسؤول المباشر عن عملية التحرير (رئيس التحرير أو من ينوب عنه) أن يبحث الورقة مع أيّ شخص آخر، بما في ذلك المؤلّف. وينبغي الإبقاء على أيّ معلومةٍ متميّزة أو رأيٍ جرى الحصول عليه من خلال القراءة قيد السرّية، ولا يجوز استعمال أيٍّ منهما لاستفادةٍ شخصية.
5. تقدّم المجلة في ضوء تقارير القراء خدمة دعم فنّي ومنهجي ومعلوماتي للباحثين بحسب ما يستدعي الأمر ذلك ويخدم تجويد البحث.
6. تلتزم المجلة بإعلام الباحث بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل أو وفق تعديلات معينة، بناءً على ما يرد في تقارير القراءة، أو الاعتذار عن عدم النشر، مع بيان أسباب الاعتذار.
7. تلتزم مجلة عمران بجودة الخدمات التدقيقية والتحريرية والطباعية والإلكترونية التي تقدمها للبحث.
8. احترام قاعدة عدم التمييز: يقيّم المحرّرون والمراجعون المادّة البحثية بحسب محتواها الفكري، مع مراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس الاجتماعي أو المعتقد الديني أو الفلسفة السياسية للكاتب، أو أي شكل من أشكال التمييز الأخرى، عدا الالتزام بقواعد ومناهج ولغة التفكير العلمي في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
9. احترام قاعدة عدم تضارب المصالح بين المحررين والباحث، سواء كان ذلك نتيجة علاقة تنافسية أو تعاونية أو علاقات أخرى أو روابط مع أيّ مؤلّف من المؤلّفين، أو الشركات، أو المؤسّسات ذات الصّلة بالبحث.
10. تتقيد مجلة عمران بعدم جواز استخدام أيّ من أعضاء هيئتها أو المحررين المواد غير المنشورة التي يتضمنها البحث المُحال على المجلة في أبحاثهم الخاصة.
11. حقوق الملكية الفكرية: يملك المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات حقوق الملكية الفكرية بالنسبة إلى المقالات المنشورة في مجلاته العلمية المحكّمة، ولا يجوز إعادة نشرها جزئيًّا أو كلّيًا، سواءٌ باللغة العربية أو مترجمة إلى لغات أجنبية، من دون إذنٍ خطي صريح من المركز العربي.
12. تتقيد مجلة عمران في نشرها لمقالات مترجمة تقيّدًا كاملًا بالحصول على إذن الدورية الأجنبية الناشرة، وباحترام حقوق الملكية الفكرية.
13. المجانية: تلتزم مجلة عمران بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر.

(Annex II)

Ethical Guidelines for Publication in *Omran*

1. The editorial board of Omran upholds the confidentiality and the objectivity the peer review process. The peer review process is anonymized, with editors selecting referees for specific manuscripts based on a set of pre–determined, professional criteria. In where two reviewers cannot agree on the value of a specific manuscript, a third peer reviewer will be selected.
2. *Omran* relies on a network of experienced, pre–selected peer reviewers who are current in their respective fields.
3. *Omran* adopts a well–defined internal organization with clear duties and obligations to be fulfilled by the editorial board.
4. Disclosure: With the exception of the editor in charge of the editing process (normally the Editor–in–Chief or designated deputies), neither the editors, nor the peer reviewers, are allowed to discuss the manuscript with third parties, including the author. Information or ideas obtained in the course of the reviewing and editing processes and must be treated in confidence and must never be used for personal financial or other gain.
5. When deemed necessary based on the reviewers' reports, the journal may offer researchers methodological, technical and other assistance in order to improve the quality of their submissions.
6. The editors of *Omran* are committed to notifying the authors of all submitted pieces of the acceptance or otherwise of their manuscripts for publication. In cases where the editors of *Omran* reject a manuscript, the author will be informed of the reasons for doing so.
7. *Omran* is committed to providing quality professional copy editing, proof reading and online publishing services.
8. Impartiality: The editors and the reviewers evaluate manuscripts for their intellectual and academic merit, without regard to race, ethnicity, gender, religious beliefs or political views of the authors.
9. Conflicts of interest: Editors and peer reviewers should not consider manuscripts in which there is a conflict of interests resulting from competitive, collaborative or other relationships or connections with any of the authors, companies, or institutions connected to the papers.
10. Confidentiality: Unpublished data obtained through peer review must be kept confidential and cannot be used for personal research.
11. Intellectual property and copyright: The ACRPS retains copyright to all articles published in its peer reviewed journals. The articles may not be published elsewhere fully or partially, in Arabic or in another language without an explicit written authorization from the ACRPS.
12. The editorial board of *Omran* fully respects intellectual property when translating and publishing an article published in a foreign journal, and will seek the right to translate and publish any work from the copyright holder before proceeding to do so.
13. *Omran* does not make payments for manuscripts published in the journal, and all authors and researchers are exempt from publication fees.



– Michael Pollan, *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals* (New York: Penguin, 2006), pp. 99–100.

– Gabriel García Márquez, *Love in the Time of Cholera*, Edith Grossman (trans.) (London: Cape, 1988), pp. 242–55.

In quotes not immediately following the reference: Pollan, p. 31.

Where there are several references by the same author, add a short title: Pollan, *Omnivore's Dilemma*, p. 31.

In quotes immediately following the reference: Ibid., p. 32.

The corresponding bibliographical entry:

– Pollan, Michael. *The Omnivore's Dilemma: A Natural History of Four Meals*. New York: Penguin, 2006.

For books by three or more authors, in the note, list only the first author, followed by et al.:

– Michael Gibbons et al., *The New Production of Knowledge: The Dynamics of Science and Research in Contemporary Societies* (London: Sage, 1994), pp. 220–221.

In later quotes: Gibbons et al., p. 35.

The corresponding bibliographical entry:

– Michael Gibbons et al. *The New Production of Knowledge: The Dynamics of Science and Research in Contemporary Societies*. London: Sage, 1994.

II– Periodicals

Author's name, «article title,» *journal title*, volume number, issue number (Month/season Year), page numbers.

– Joshua I. Weinstein, «The Market in Plato's Republic,» *Classical Philology*, no. 104 (2009), p. 440.

The corresponding bibliographical entry:

– Weinstein, Joshua I. «The Market in Plato's Republic.» *Classical Philology*. no. 104 (2009).

III– Articles in a Newspaper or Popular Magazine

N.B. Cited only in footnotes, not in the references/bibliography. Example:

– Ellen Barry, «Insisting on Assad's Exit Will Cost More Lives, Russian Says,» *The New York Times*, 29/12/2012.

IV– Electronic Resources

When quoting electronic resources on websites, please include all the following: Author's name (if available), «The article or report title,» *series name* (if available), website's name, date of publication (if available), accessed on 9/8/2016, at: http://www...

The full link to the exact page should be included. Please use an URL Shortener (Bitly) or (Google Shortner). Example:

– John Vidal, «Middle East faces water shortages for the next 25 years, study says,» *The Guardian*, 27/8/2015, accessed on 31/10/2015, at: http://bit.ly/2k97Wxw

– Policy Analysis Unit–ACRPS, «President Trump: An Attempt to Understand the Background,» *Assessment Report*, The Arab Center for Research and Policy Studies, accessed on 10/11/2016, at: http://bit.ly/2j36v5S

iv. All research papers submitted for consideration must adopt the referencing guidelines adopted by the Arab Center for Research and Policy Studies (See Appendix I for a complete guide to the reference style used across all of our journals).

v. All submitted works must fall within the broad scope of *Omran*, including economics, demographics, and environmental science.

vi. Book reviews of between 2,800 and 3,000 words in length will be considered for submission to the journal, provided that the book covers a topic which falls within the scope of the journal and within the reviewer's academic specialization and/or main areas of research. Reviews are accepted for books written in any language, provided they have been published in the previous three years. Book reviews are subject to the same quality standards which apply to research papers.

vii. *Omran* carries a special section devoted to discussions of a specific theme which is a matter of current debate within the social sciences. These essays must be between 2,800 and 3,000 words in length. They are subject to the same refereeing standards as research papers.

viii. All submissions are to be between 6,000 and 8,000 words in length, inclusive of a bibliography, footnotes, appendices and the caption texts on images. The editors retain the right to publish longer pieces at their discretion. Research papers should be submitted typed on «Word». The Arabic text should be in the same font and not several fonts, and the English text should only be in «Times New Roman» font. Accordingly, the Arabic text should be in one single font totally different from the unified English font.

ix. All diagrams, charts, figures and tables must be provided in a format compatible with either Microsoft Office's spreadsheet software (Excel) or Microsoft Office's word processing suite (Word), alongside high–resolution images. Charts will not be accepted without the accompanying data from which they were produced.

4. The peer review process for *Omran* and for all journals published by the ACRPS is conducted in the strictest confidence. Two preliminary readers are selected from a short list of approved reader–reviewers. In cases where there is a major discrepancy between the first two readers in their assessment of the paper, the paper will be referred to a third reviewer. The editors will notify all authors of a decision either to publish, publish after modifications, or to decline to publish, within two months of the receipt of the first draft.

5. The editorial board of *Omran* adheres to a strict code of ethical conduct, which has the clearest respect for the privacy and the confidentiality of authors (cf. Annex II).

    i. The sequencing of publication for articles accepted for publication follows strictly technical criteria.

    ii. *Omran* does not make payments for articles published in the journal, nor does it accept payment in exchange for publication.

(Annex I)
Footnotes and Bibliography

I– Books

Author's name, *Title of Book*, Edition (Place of publication: Publisher, Year of publication), page number.



Omran is a quarterly, peer reviewed academic journal dedicated to the social sciences and published by the Arab Center for Research and Policy Studies (ISSN: 2305–2473). First published in the summer of 2012, *Omran* is overseen by an academic editorial board composed of experts as well as an actively engaged board of international advisers. Publication in *Omran* is governed by a strict code of ethics which guides the relationship between the editorial staff and contributors.

The name of the journal evokes Ibn Khaldun's concept of *ilm al Omran*, often viewed as a precursor to the social sciences. Born out of the perceived methodological and functional crises faced by the social sciences and humanities during an era of massive social transformations sweeping through the Arab region, *Omran* aims to establish for itself a distinct identity among prominent Arab journals and periodicals, as a journal/project aspiring to build new intellectual trends and schools of thought. It thus seeks to bring about a qualitative leap in its multidisciplinary field (encompassing anthropology, sociology, social history, political science, political economy, population sciences, environment, and development studies), espousing in this an integrated interdisciplinary approach. It views freedom as the guiding principle and ultimate goal of the social sciences, since freedom is the essence of thought, which is also the essence of humanity.

Submission to and publication in *Omran* is governed by the following guidelines:

1. Only original work which is submitted exclusively for publication within the journal is accepted. No work which has been previously published fully or in part will be considered for publication in *Omran*. Similarly, no work which substantially resembles any other work published in either print or electronic form, or submitted to a conference other than the conferences held by the ACRPS will be considered for publication.
2. Submissions must be accompanied by a curriculum vitae (CV) of the author, in both Arabic and English.
3. All submissions must include the following elements:
   i. A title in both Arabic and English together with the author's institutional affiliation.
   ii. An abstract, ranging between 100 words in length, in both Arabic and English as well as a list of keywords. The abstract must explicitly and clearly spell out the research problematic, the methodologies used, and the main conclusions arrived at.
   iii. The research paper must include the following elements: specification of the research problematic; significance of the topic being studied; statement of thesis; a review of literature emphasizing gaps or limitations in previous analysis; a description of the research methodology; hypothesis and conceptual framework; bibliography.



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

Arab Center for Research & Policy Studies

The Arab Center for Research and Policy Studies is an independent social sciences and humanities institute that conducts applied and theoretical research seeking to foster communication between Arab intellectuals and specialists and global and regional intellectual hubs. The ACRPS achieves this objective through consistent research, developing criticism and tools to advance knowledge, while establishing fruitful links with both Arab and international research centers.

The Center encourages a resurgence of intellectualism in Arab societies, committed to strengthening the Arab nation. It works towards the advancement of the latter based on the understanding that development cannot contradict a people's culture and identity, and that the development of any society remains impossible if pursued without an awareness of its historical and cultural context, reflecting its language(s) and its interactions with other cultures.

The Center works therefore to promote systematic and rational, scientific research-based approaches to understanding issues of society and state, through the analysis of social, economic, and cultural policies. In line with this vision, the Center conducts various academic activities to achieve fundamental goals. In addition to producing research papers, studies and reports, the center conducts specialized programs and convenes conferences, workshops, training sessions, and seminars oriented to specialists as well as to Arab public opinion. It publishes peer-reviewed books and journals and many publications are available in both Arabic and English to reach a wider audience.

The Arab Center, established in Doha in autumn 2010 with a publishing office in Beirut, has since opened three additional branches in Tunis, Washington and Paris, and founded both the Doha Historical Dictionary of Arabic and the Doha Institute for Graduate Studies. The ACRPS employs resident researchers and administrative staff in addition to hosting visiting researchers, and offering sabbaticals to pursue full time academic research. Additionally, it appoints external researchers to conduct research projects.

Through these endeavours the Center contributes to directing the regional research agenda towards the main concerns and challenges facing the Arab nation and citizen today.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية فكرية مستقلة، مختصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، في جوانبها النظرية والتطبيقية، تسعى عبر نشاطها العلمي والبحثي، إلى خلق تواصل في ما بين المثقفين والمتخصصين العرب في هذه العلوم، وبينهم وبين قضايا مجتمعاتهم، وكذلك بينهم وبين المراكز الفكرية والبحثية العربية والعالمية، في عملية تواصل مستمرة، من البحث والنقد، وتطوير الأدوات المعرفية.

يتبنى المركز رؤية نهضوية للمجتمعات العربية، ملتزمة بقضايا الأمة العربية، والعمل على رقيها وتطوّرها، انطلاقًا من فهم أنّ التطور لا يتناقض مع الثقافة والهوية، بل إنّ تطور مجتمع بعينه، بفئاته جميعها، غير ممكنٍ إلا في ظروفه التاريخية، وفي سياق ثقافته، وبلغته، ومن خلال تفاعله مع الثقافات الأخرى.

ومن ثمّ، يعمل المركز على تعزيز البحث العلمي المنهجي والعقلانية في فهم قضايا المجتمع والدولة، بتحليل السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الوطن العربي. ويتجاوز ذلك إلى دراسة علاقات الوطن العربي ومجتمعاته بمحيطه المباشر، وبالسياسات العالمية المؤثّرة فيه، بجميع أوجهها.

وفي ضوء هذه الرؤية، يعمل المركز على تحقيق أهدافه العلمية الأساسية، عن طريق نشاطاته الأكاديمية المختلفة، فهو ينتج أبحاثًا ودراسات وتقارير، ويصدر كتبًا محكّمةً ودوريات علمية، ويبادر إلى مشاريع بحثية، ويدير عدة برامج مختصة، ويعقد مؤتمرات، وورش عمل وتدريب، وندوات أكاديمية، في مواضيع متعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وموجّهة إلى المختصين، والرأي العام العربي أيضًا، ويساهم، عبر كل ذلك، في توجيه الأجندة البحثية نحو القضايا والتحديات الرئيسة التي تواجه الوطن والمواطن العربي. وينشر المركز جميع إصداراته باللغتين العربية والإنكليزية.

تأسّس المركز في الدوحة في خريف ٢٠١٠، وله فرع يعنى بإصداراته في بيروت، وافتتح ثلاثة فروع إضافية، في تونس وواشنطن وباريس. ويشرف على المركز مجلس إدارة بالتعاون مع مديره العام المؤسّس.

أسّس المركز مشروع المعجم التاريخي للغة العربية، وما زال يشرف عليه بالتعاون مع مجلسه العلمي، كما أسّس معهد الدوحة للدراسات العليا، وهو معهد جامعي تشرف عليه إدارة أكاديمية ومجلس أمناء مستقل برأسه المدير العام للمركز.

يعمل في المركز باحثون مقيمون، وطاقم إداري. ويستضيف باحثين زائرين للإقامة فيه فترات محددة من أجل التفرّغ العلمي، ويكلّف باحثين من خارجه للقيام بمشاريع بحثية، ضمن أهدافه ومجالات اهتمامه.



دعوة للكتابة

ترحب مجلة «عمران» للعلوم الاجتماعية بنشر الأبحاث والدراسات المعمقة ذات المستوى الأكاديمي الرصين، وتقبل للنشر فيها الأبحاث النظرية والتطبيقية المكتوبة باللغة العربية. وتفتح المجلة صفحاتها لمراجعات الكتب، وللحوار الجاد حول ما ينشر فيها من موضوعات. وسيتضمن كل عدد من «عمران» أبحاثًا ومراجعات كتب، ومتابعات مختلفة... وجميعها يخضع للتحكيم من قبل زملاء متخصصين.

ترسل كل الأوراق الموجهة للنشر باسم رئيس التحرير على العنوان الإلكتروني الخاص بالمجلة

omran@dohainstitute.org

عنوان الاشتراكات:
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research and Policy Studies
جادة الجنرال فؤاد شهاب – بناية الصيفي ١٧٤ – مار مارون
ص.ب.: ٤٩٦٥-١١ رياض الصلح ٢١٨٠-١١٠٧ بيروت – لبنان
البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org
هاتف: ٨/ ٧/ ٩٩١٨٣٦ ١ ٩٦١+ فاكس: ٩٩١٨٣٩ ١ ٩٦١+

عنوان التحويل البنكي:
Arab Center for Research and Policy Studies
Societe General de Bank au Liban sal.
Mazraa - Al Mama Street - SGBL Bldg. - Beirut - Lebanon
Account Number: 010 666 504 002 840 (For US Dollars)
IBAN Number:
LB19 0019 0000 0010 6665 0400 2840 (For US Dollars)
Swift Code: SGLILBBX



عمران
omran

فصليــة محـكّمة تُعـنى بالعلــوم الاجتماعيــة

قسيمة اشتراك

الاسم: ....

العنوان البريدي: ....

....

الهاتف: ....

البريد الإلكتروني: ....

عدد النسخ المطلوبة: ....

طريقة الدفع: ☐ شيك لأمر المركز ☐ تحويل بنكي

يمكنكم اقتناء أعداد المجلة ورقيًا أو إلكترونيًا في المكتبة الإلكترونية من خلال التسجيل في الموقع:

www.bookstore.dohainstitute.org

طريقة الدفع: أدوات الدفع الإلكتروني



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

يُعلن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
عن بدء استقبال طلبات المشاركة في أعمال الدورة الثامنة

من منتدى دراسات الخليج والجزيرة العربية

(4-6 كانون الأول/ ديسمبر 2021)

يبحث المنتدى في هذا العام موضوع استجابة دول الخليج العربية لجائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-١٩): السياسات والتداعيات، بوصفه موضوعًا رئيسًا أوّلَ، في محور القضايا الداخلية. ويناقش المصالحة الخليجية: آفاقها وانعكاساتها على علاقات دول الخليج الإقليمية والدولية، بوصفه موضوعًا رئيسًا ثانيًا في محور العلاقات الدولية.

لمزيد من المعلومات، يرجى مراجعة الموقع الإلكتروني للمركز www.dohainstitute.org





المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الاشتراكات السنوية

(أربعة أعداد)

لبنان	35 $ للأفراد	45 $ للمؤسسات
الدول العربية وأفريقيا	60 $ للأفراد	80 $ للمؤسسات
الدول الأوروبية	100 $ للأفراد	120 $ للمؤسسات
القارة الأميركية وأستراليا	120$ للأفراد	160 $ للمؤسسات

عنوان الاشتراكات:
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research and Policy Studies
جادة الجنرال فؤاد شهاب – بناية الصيفي 174 – مار مارون
ص.ب.: 4965-11 رياض الصلح 2180-1107 بيروت – لبنان
البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org
هاتف: 8 /7/ 991836 1 961+ فاكس: 991839 1 961+

عنوان التحويل البنكي:
Arab Center for Research and Policy Studies
Societe General de Bank au Liban sal.
Mazraa - Al Mama Street - SGBL Bldg. - Beirut - Lebanon
Account Number: 010 666 504 002 840 (For US Dollars)
IBAN Number:
LB19 0019 0000 0010 6665 0400 2840 (For US Dollars)
Swift Code: SGLILBBX

من إصدارات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

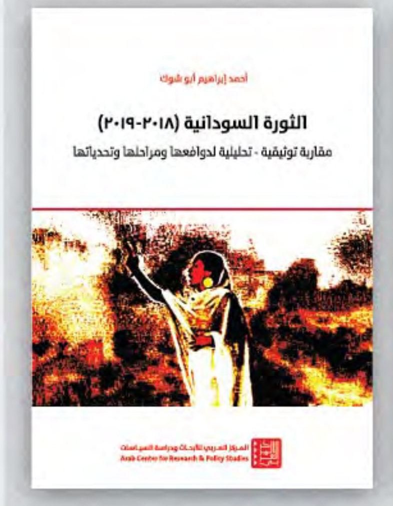














- للحصول على منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،
يرجى الاطلاع على قائمة موزّعي الكتب والمجلات على موقعنا الإلكتروني: www.dohainstitute.org
- بالنسبة إلى البلاد التي لا يوجد فيها موزعون إلى الآن، يرجى الاتصال مباشرة بقسم التوزيع في مكتب بيروت:
هاتف: 009611991837 أو على البريد الإلكتروني: distribution@dohainstitute.org

أيضًا في هذا العدد

ترجمة

بول ريكور
هل الأزمة ظاهرة حديثة على نحو خاص؟
ترجمة: عومرية سلطاني

مراجعات الكتب

إدغار موران وصباح أبو السلام
فلنُغير السبيل: دروس فيروس كورونا
مُراجعة: عبد الكريم عنيات

حمادي الرديسي (تحرير)
تونس في مواجهة جائحة كوفيد-19
مُراجعة: الحبيب الدرويش

يمكنكم اقتناء أعداد المجلة ورقيًا أو إلكترونيًا في المكتبة الإلكترونية من خلال التسجيل في الموقع:
www.bookstore.dohainstitute.org

سعر النسخة

قطر	30 ريالًا	العـــراق	5000 دينار	الجزائر	250 دينارًا
السعودية	30 ريالًا	تونس	5 دنانير	المغرب	30 درهمًا
الإمارات	30 درهمًا	سوريـــة	200 ليرة	موريتانيا	700 أوقية
البحرين	3 دنانير	لبنان	6000 ليرة	ليبيا	5 دنانير
الكويت	ديناران	الأردن	ديناران	فلسطين	3 دولارات
عُمان	3 ريالات	اليمن	400 ريال	الصومال	3500 شلن
مصـــر	10 جنيهات	السودان	20 جنيهًا		

جميع الحقوق محفوظة لمعهد الدوحة للدراسات العليا والمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
شارع الطرفة - منطقة 70 - وادي البنات - ص. ب: 10277 - الدوحة - قطر



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



DOHA INSTITUTE
FOR GRADUATE STUDIES

Issue 36 - Volume 9 - Spring 2021
ISSN 2305-2473